إستراتيجية الفتح العثمانى



الأستاذ
أحمد سالم
ماجستير فى التاريخ
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

مؤسسة شباب الجامعة
40 ش د / مصطفى مشرفة
تليفاكس :4839496 الإسكندرية
Email:shabab_elgamaa@yahoo.com

إستراتيجية الفتح العثماني

الاستاذ

أحمد سالم سالم علي

ماجيستير في التاريخ

كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

٢٠١٢

مؤسسة شباب الجامعة

٤٠ شارع الدكتور مصطفي مشرفة

إسكندرية – تليفاكس : ٤٨٣٩٤٩٦

Email:Shabab_Elgamaa@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ

الآية ١٢٨ الأعراف

إهـــداء .....

إلي من حمل الله على أيديهم
النور والعدل والرحمة والحرية
إلي الفاتحين العظام ...

المـؤلـف

المقدمـــة

لقد سقطت الدولة العثمانية منذ أقل من قرن من الزمان ، بعد أن استمرت أكثر من ستمائة عام ، صارعت خلالها لتجعل أمة الإسلام أمة واحـــدة ، وجاءت الضربات من الشرق والغرب تحاول القضاء على هذه الأمـــة ، وإذ بالدولة العثمانية تتلقى الضربات تلو الضربات مدافعة عن الإســـلام وأرضه وأهله أمام الطامعين ، الذين تكالبوا عليهـــا بمـــرور الـــزمن ، يستنزفون قواها ، ينخرون في بنيانها ، حتى تصدع الحصن المنيـــع ثـــم تهاوى ، لتتهاوى معه وحدة الأمة وأمانها ، وتنتهي دولة الإســـلام التـــى ظلت قائمة باختلاف مراكزها لأكثر من ألف وثلاثمائة عام ، يتسلم رايتها جيل بعد جيل .

لم تستطع القوى الغربية أن تنفذ إلي جسد الأمة إلا في فترات انقسامها ، فلقد بدأت الفتوحات الإسلامية في فترة عصيبة من تاريخ الإسلام ، كانت فيها الدولة صغيرة وضعيفة ، لكنها كانت قوية بالإتحاد واليقين ، لـــذلك وصلت مع ضعفها في أقل من قرن من الزمان إلي أطراف العالم القديم ، بل وتغلبت على قوى العالم الكبرى آنذاك. لكن بعد انقسام الأمة في القرن الرابع الهجري إلي ثلاث خلافات إسلامية ، في بغداد والقاهرة وقرطبـــة أصبح الوضع يختلف ، فمع تفوق الأمة حضـــارياً واقتصـــادياً ، إلا أن الفرقة والإنقسام أضعفها فصارت عرضة للغزو ثم الهزيمـــة ، وبـــدأت الحملات الصليبية تجد لها مكاناً على أرض الإسلام ، لكن ســـرعان مـــا اتحدت الأمة وطردتها وتغلبت على أكبر منها (التتار) بالإتحـــاد . وفـــي وقت بدأت فيه الأمة تنقسم من جديد وتتناحر ثم تضعف ، بدأت القـــوى الصليبية المتربصة العمل من جديد لالتهامها والإنقضاض عليها ، لولا أن قيض الله الدولة العثمانية التى كانت إمتداداً لدول الإسلام الكبرى المتحدة ، فعملت من جديد على وحدة الأمة ، فمن خلالها ظل الإتحـــاد قائمـــا ،

وظل التسلل إلي جسد الأمة مستحيلاً ، إلى أن بدأت الفرقة تدب من جديد بعد أن ضعفت الدولة ، فتحولت الأمة بضعفها إلي مئات الأمـــم ، ليـــتم السيطرة عليها بيسر وسهولة .

تحدث الكثير عن مساوئ الدولة العثمانية ، و كان الحديث أولاً من الغرب ، الذي له مصلحة أكيدة في عدم الإتحاد تحت راية واحدة ، فطفق يقلـــب في الصفحات ، ويزور الحقائق ، وينسب الأباطيل ، حتى يقودنـــا فـــي النهاية إلي التسليم بفساد هذه الدولة وعدم مشـــروعيتها ، وليقنعنـــا أولاً وأخيراً بأن حالنا في ظل كيانات مقسمة تحت ما يسمى بالقوميـــة ، هـــو أفضل حالاً وأقوى شأناً ، وأن الدولة الدينية هي دولة متخلفة من أنقاض العصور الوسطى ، ولا يتأتى لها أن تكون من ضمن العالم المتحضـــر ، لكن من يدعى ذلك من الغرب ومريديه لم ينتبه إلي أن الدولة العثمانية لم تكن أبداً دولة دينية ، بل لم تكن أياً من دول الإسلام السنية منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم دولة دينية.

لقد كانت الدولة الإسلامية تنتهج نظام العـــالم بمـــنهج إســـلامي ، إذ أن الفتوحات الإسلامية هى الفتوحات الوحيدة في التاريخ التى لم تعمل مـــن أجل التوسع وبسط النفوذ ، وما يتبع ذلك من فرض العقيدة والمذهب الذي تتبناه الدولة ، فلم يكن مبدؤها (الناس على دين ملوكهم) ، إنما كانت هذه الفتوحات من أجل إزاحة الظلم ، و إشاعة الحرية لـلأفراد يعتنقـــون مـــا يشاءون . و لم تكن الدول الأخرى بالفعل إلا دولاً دينية ، كانت الدولـــة الرومانية دولة دينية فى وثنيتهـــا أو فـــي مســـيحيتها ، كانـــت تعـــذب المسيحيين وتطهدهم ، وبعد أن آمنت بالمسيحية ظلت تطهد وتقتل وتعذب من لا يدين بمذهبها . وكانت الدولة الفرعونية دولة دينية ، تقـــوم فيهـــا السلطة المطلقة للكهنة فيحققون أغراضهم عن طريق الـــدين ، و وتقـــوم الصراعات بين كهنة المعبودات المختلفة لفرض عقيدتهم وبالتالي فرض

سلطانهم ، ثم يقول حاكمهم (ماعلمت لكم من إلـــه غيـــري) ، والدولـــة اليهودية الحالية ما هى إلا دولة دينية ، تقوم علـــى التفرقـــة العنصـــرية واضطهاد من هم ليسوا على دينهـــا ومـــذهبها الصـــهيوني ، وتحـــاول تطهيرهم أو إبعادهم .

أما الدولة الإسلامية على مر التاريخ ، فكانـــت دولـــة مدنيـــة ، تتـــرك الطوائف والملل في أرضها ، بل وتتحاكم تلك الملل فيما بينهـــا وتـــدير شئونها دون تدخل سلطان الدولة . لقد قامت الدولة العثمانية في عـــالم لا يدين إلا بالدولة الدينية ، والقتال من أجل فرض الدين ، ومع ذلـــك لـــم تعترف الدولة العثمانية بهذا وظلت إمتداداً لدولة الإسلام المدنيـــة التـــى يحتمى في ظلها كل الأديان ، فقامت في ظلها الكنائس والمعابد بجانـــب المساجد، في وقت كانت فيه الدول المعاصرة تبيد آلاف البشر من أجـــل دين أو مذهب .

فقد كان الإستعمار الأوروبي وقتئذ يشكل صحائف مشينة في التـــاريخ ، فعندما بدأت إسبانيا إستعمارها لقارة أمريكا ، بدأت في عمليـــات إبـــادة جماعية لأهل البلاد الأصليين ، فعلى سبيل المثال كـــان تعـــداد جزيـــرة هاييتى في السنة التى اكتشفت فيها أمريكا (١٤٩٢م) حوالي نصف مليون نسمة ، وصل عام ١٥١٤م إلي حوالي ثلاثة عشر ألف نســـمة . وفـــي الوقت الذي كانت تعمل فيه الدولة العثمانية من أجـــل الحريـــة ، كـــان الإسبان والبرتغاليون يصطادون الزنوج من علـــى ســـواحل إفريقيـــا ، لاستعبادهم وتسخيرهم في استغلال ثروات العالم الجديد ، ولقد اســـتطاع الإستعمار الأوروبي في عدة قرون إبادة السكان الأصليين عن بكرة أبيهم ، واستبدالهم بمستوطنين أوروبيين فضلاًعن عبيدهم من قارة إفريقيا .

في الوقت الذي كانت فيه إسبانيا تبيد معتنقي المذهب البروتستانتي الجديد حتى أفنت قرى بأكملهـا ، كانـت الدولـة العثمانيـة تفـتح أراضـيها للمضطهدين في دينهم أو مذهبهم، فانتقـل مئـات الآلاف مـن اليهـود والمسلمين الفارين من الأندلس ليستظلوا بظـل العدالـة والحريـة فـي الأراضي العثمانية .

عندما فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية عام ١٥٤٣م كان باستطاعته جعلها مدينة إسلامية صرفة منذ أول يوم ، وطرد مـا عـدا ذلـك مـن جنسيات وديانات ، وذلك ما كانت تقتضيه شريعة الحرب فـي زمانـه ، وهو نفي شعب المدينة بأكمله أو قتله أو بيعه في سوق النخاسة ، مع ذلك قام الفاتح بما عجز عن فهمه الفكر الغربي المعاصر له ، فلم تهدم كنيسة أو صومعة ، ولم يعتد على عقيدة مغايرة للدين الإسلامي ، بل انه أعـاد للأرثوذكس كرامتهم التى أهدرها الكاثوليك ، وأكرم بطرياركهم وأعطاهم حق الإشراف على شئونهم ، وكذلك فعل مع اليهود .

لقد كان الفتح العثماني متصلاً تمام الإتصال بالفتح الإسلامي الذي توقف في أوروبا منذ قرون ، كانت الشعوب تسارع في الدخول في ظل الحكـم العثماني ، لما وجدته من رفاهية ومساواة وحرية ، حتى أن هذه المساواة قد أدت بعد ذلك لمشكلة تضخم نفوذ الأقليات بمرور الزمن ، فعملت هذه الأقليات على التهام جسد الدولة من الداخل عـن طريـق المـؤامرات ، وبمساعدة الدول الغربية ، حتى أدى الأمر في النهاية إلي الكوارث التـي حاقت بالدولة . يقول أليكس جورافسكى في كتابه الاسلام والمسـيحية : (قد ميزت السلطات العثمانية رعاياها المسيحيين في ملل مستقلة مخضعة اياهم ليس لسلطة البطاركة الروحية فحسب ولكن لسلطتهم الزمنية أيضا ، وبهذا الشكل أصبحت (المجالس الملية) وطوائفها كيانات كنسية سياسـية ذات سمات وملامح متمايزة ، أي أن السلطة المدنية والشئون الاجتماعية

والاقتصادية والثقافية أوكلت كليا الي ما سمى (بالمؤسسة الدينية) أي هيئة العلماء لدى المسلمين والبطاركة والأساقفة لدى المسيحيين والحاخام الأكبر لدى اليهود ، وبمرور الوقت تعاظم ضغط مختلف الكنائس القومية والاثنية في الولايات والمناطق المختلفة ، وتنامى عدد الملل التي تدير شئونها الذاتية بصورة رسمية).

ويقول روبر مانتران عن هذه المساواة : (قد كتب بوسبيك الذي أقر أن بوسع ابن صياد سمك أو فلاح أو راع أن يصبح صدراً أعظماً استناداً إلي قدراته وحدها ، إن من يتمتع بالشرف الأول بين الأتراك بعد السيد الأكبر هو الذي لا يعرف أصله ولا أصل أبيه وأمه ، كما أردف وهكذا فإن كل انسان يثاب بحسب جدارته والمناصب يشغلها رجال قادرين على شغلها).

وفي أحد الإحصاءات عن الصدور العظام في فترة إزدهار الإمبراطورية (١٤٥٣ - ١٦٢٣م) ، وجد أن خمسة من أصل ثمانية وأربعين صدراً أعظماً يجري في عروقهم الدم التركى .

ولقد استطاعت الدولة العثمانية من خلال سياسة الملة والمساواة بين عناصر الدولة أن تجمع شتى الأعراق والملل والطوائف في ظل استقرار سياسي واجتماعي عدة مئات من السنين ، فإن الدولة الأموية التي قامت في صدر الاسلام مع قوتها العسكرية والسياسية والاقتصادية الكبيرة آنذاك لم تستطع أن تعمر كثيراً ، نظراً لأنها قد قامت بتفضيل العنصر العربي على باقي عناصرالدولة الاسلامية في الوظائف والقيادات ، وقد أدى هذا في النهاية لتبني الموالي من الفرس الدعوة العباسية المناهضة للحكم الأموي ، والتي كانت سبباً مباشراً في سقوط هذه الدولة وانهيارها .

ولقد ازدهر دور أهل الذمة من اليهود والنصارى في ظل تسامح الدولة العثمانية، فأصبح لهم شأناً كبيراً كما حدث في الدول الإسلامية الأولى ، خاصة اليهود الذين وضعوا في مرتبة دنيا في الدول الأوروبية ، وهذا ما كشف الوجه العنصري الحقيقي للدول التى تدعى الحضارة والتمدين . يقول د. عبد الوهاب المسيري في دراسته عن اليهود (أنهم كانوا يشكلون دوما أقلية في الغرب وكانوا يعملون في الوظائف المشينة، وساهمت عمليات الطرد المختلفة والتى استمرت حتى نهاية القرن التاسع عشر ووصلت إلي ذروتها مع وعد بلفور في تدعيم هوياتهم بوصفهم جماعات وظيفية إذ أنها لم تضرب بجذورها في أي رقعة جغرافية).

ولقد ازدادت أعداد اليهود والهجرة اليهودية إلي الولايات العثمانية ، حتى وصل عدد اليهود في استانبول وحدها الي أكثر من ثلاثين ألفا ، وفي أزمير حوالي عشرة آلاف وسالونيك وصل تعدادهم إلي حوالي خمسة وعشرين ألفاً .

وقد أدى انتقال سالونيك إلي سيطرة اليونان بعد الحرب العالمية الأولى إلي تدهور أوضاع اليهود الإقتصادية والإجتماعية ، وقد سنت السلطات اليونانية في العشرينات عدة قوانين معادية لليهود كما صادرت السلطات آنذاك أراضيهم وممتلكاتهم ، ونظم البعض في عام ١٩٣١م مذبحة ضد اليهود في أحد أحياء سالونيك ، عرفت باسم مذبحة (كمبول) مما أدى إلي هجرة الكثير منهم إلي فلسطين وبلدان أخرى .

ولقد جاء التشجيع من الغرب للهجرة اليهودية الكبيرة إلي أراضي الدولة العثمانية ، لأن أوروبا عملت على التخلص من اليهود بشتى الطرق ، وفى نفس الوقت عملت على زرع اليهود كمعول هدم في جسد الدولة العثمانية ، لذلك عمل السلاطين العثمانيون منذ القرن السادس عشر على

وضع قوانين خاصة لحماية فلسطين وسيناء من الطمع اليهودي ، ومـــع ذلك بدأ اليهود يهاجرون سراً إلي فلسطين وسيناء . وهكذا ظلت الدولـــة العثمانية تحافظ على الهوية الإسلامية لفلسطين وسيناء وكـــل الأراضـــي المقدسة التي ظلت تحت سيطرتها ، حتى تنامت الأطماع الصهيونية في سيناء وفلسطين ووصلت إلي أوجها في أواخر القرن التاسع عشـــر مـــع ضعف الإمبراطورية الشديد ، ولكن ظلت الامبراطورية تحـــافظ علـــى المقدسات الاسلامية بقيادة السلطان عبد الحميـــد الثـــاني ، الـــذي علـــم بالمخططات الصهيونية وعمل على إحباطها وإفشال مساعيها .

لكن تلك القوى وجدت الطريق مفتوحاً بعد إسقاط الخلافة العثمانيـــة فـــي تحقيق مخططاتها كاملة دون اعتراض ، فاستطاع اليهود الصهاينة الهجرة إلي فلسطين ، حتى أقاموا دولة اسرائيل دون أن يقف في وجههم أحـــد ، واستطاعت الدول الإستعمارية الكبرى الـــدخول بكامـــل حريتهـــا إلـــي الأراضي العربية والإسلامية ، وللأسف أيضاً لم يقف في وجههم أحد .

أما بالنسبة للمسيحيين فقد وجدوا حرياتهم الكاملة حتى وصل بعضهم إلي أرقى المناصب ، يعلق أندريه ريمون على ذلك بقوله : (إن شيخاً مستنيراً مثل الجبرتي يعرب عند الحاجة عـــن اســـتهجانه للـــدور الـــذي يلعبـــه المسيحيون والذي يرى أنه زائد عن الحد). هذا لأن الطوائف المســـيحية كانت موجودة تقريبا في جميع دول الشرق العربـــي ، ويتضـــح أنهـــا استفادت إلي حد كبير من الإمكانيات الاقتصادية الجديدة المتاحة بفضـــل إنشاء الإمبراطورية العثمانية ، وكذلك بفضل نمو التجارة مـــع أوروبـــا، وقام المسيحيون بطبيعة الحال بدور الوســـاطة بـــين الفرنجـــة والتجـــار المحليين ، ولعب المسيحيون المحليون أيضاً دوراً هاماً كمعاونين للحكام باعتبارهم أصحاب كفاءات إدارية كما كانوا كثيرا يعملـــون كأصـــحاب مصارف .

هكذا كانت الدولة العثمانية في سياستها واستراتيجيتها ، وهكـــذا قامــت فتوحاتها ، على مبادئ الدين الإسلامي الحنيف ، الذي لا يفرق بين أبيض وأسود وبين تركى وعربي، فظلت طوال تاريخها امتداداً عظيماً لتــاريخ الإسلام الزاهر ، ولم تكن كما يروج لها الــبعض دولـــة عنصــرية ذات أطماع استعمارية كما كان الإســتعمار الغربــي ، لــذلك أدرك قيمتهــا الكثيرون ، فيقول مصطفى كامل في كتابه المسألة الشــرقية : (واجــب المسلمين أن يلتفوا أجمعين حول راية الخلافة المقدســة وأن يعززوهــا بالأموال والأرواح ففي حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم ، وفي بقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الإسلامية المقدسة) .

هكذا اشتمل هذا البحث على دراسة أسلوب الدولة العثمانية واستراتيجياتها الأساسية في فتوحاتها ، التى أدت بها إلي أن تنال هذه المكانة العظيمة في التاريخ البشري ، وأسباب تبوئها الصدارة عالميا لفترة كبيرة من الزمن ، وقد قمت بتقسيم فترة الفتوحات العثمانية الكبرى إلي أربعة مراحل أساسية ، منذ الإمارة العثمانية واستقلالها عن الدولة السلجوقية عــام ١٢٩٩م ، حتى الربع الأخير من القرن السادس عشر ، وبالتحديد عام ١٥٧٤م ، أي سنة وفاة السلطان سليم الثاني، حيث بدأت الفتوحات العثمانية في التوقف تقريباً .

إشتمل الفصل الأول على استعراض عام للسلاطين العثمانيين الأوائل منذ عثمان الأول ، مؤسس الدولة ، حتى مراد الثانى الذي توفى عام ١٤٥١م، وفي هذا الفصل نستطيع التعرف على اســتراتيجيات الدولــة الأساســية ومبادئها في التوسع والفتح ، حتى وصلت في نهاية هذه المرحلة لتصبح دولة آسيوية أوروبية كبيرة.

والفصل الثانى يستعرض فترة السلطان محمد الفاتح (١٤٥١ – ١٤٨١م)، التى تعتبر من أهم مراحل الدولة العثمانية ، استطاعت فيها الدولة أن تتطلع إلي العالمية بعد ما حققته من فتح للقسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، لذلك قام هذا الفصل بإلقاء الضوء على فتح القسطنطينية ودوافعه ونتائجه إقليمياً وعالمياً ، ثم استعراض ما حققه محمد الفاتح بعد ذلك من التوسع واسلوبه في ذلك .

وفي الفصل الثالث ، نستعرض فترة حكم السلطان بايزيد الثانى (١٤٨١ – ١٥١٢م)، التى أدت إلي استقرار ملحوظ للأراضي المفتتحة ، فضلاً عن بعض الحروب التى خاضتها الدولة من أجل تثبيت قواعدها وهيمنتها ، ثم بعض الصراعات التى بدأت تستجد على الساحة الدولية ، مثل قيام الدولة الصفوية وما أعقب ذلك من تغيير في استراتيجيات الدولة ، ثم نرى التوسع الكبير الذي حدث خلال حكم السلطان سليم الأول (١٥١٢ – ١٥٢٠م) الذي وصل بحدود الدولة في فترة وجيزة إلي أضعاف مساحتها السابقة ، بعد أن ألحق بها مصر والشام والحجاز ، حتى أصبحت الدولة العثمانية مركزاً للخلافة الإسلامية ، وعليه بدأت تتبوأ الصدارة في العالم الإسلامي .

وفي الفصل الرابع والأخير ، تصل الدولة العثمانية إلي أوج ازدهارها في كافة المجالات ، وتصل إلي الصدارة عالمياً ، حتى أصبح حاكمها السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ – ١٥٦٥م) يلقب بلقب سلطان العالم ، وأصبحت أيضا صراعات هذه المرحلة على أشدها بين الدولة العثمانية التى أصبحت زعيمة العالم الإسلامي ، وبين الدول الصليبية التى نافستها أشد المنافسة على الزعامة العالمية ، وأرادت سحب البساط من تحتها ، لتستولى على مركز العالم القديم ، حيث الأهمية الإقتصادية والإستراتيجية والدينية ، ونرى كيف تعاملت الدولة العثمانية مع ذلك من خلال سياسة

حكيمة اتبعتها ، خاصة في عهد السلطان سليمان الذي استطاع أن يتغلب على معظم هذه العوائق .

أتمنى في النهاية أن يشكل بحثى إضافة ولو يسيرة ، وإفادة للباحثين بل والمطلعين في هذا المجال . ثم لا يسعنى إلا أن أتقدم بالشكر الجذيل لكل من ساهم في خروج هذا العمل ، وأخص بالذكر كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، التى أدين لأساتذتها بكل الفضل في التعليم والرعاية والتوجيه .

وفي النهاية لا يسعنى إلا أن أدعو الله تعالى بأن يجعل هذا العمل لبنة في صرح العلم وأن يجزيني به خير الجزاء ، وأن يجعله خالصاً في سبيله ، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين ، إنه ولى ذلك والقادر عليه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

الإسكندرية

في ديسمبر ٢٠١٠

أحمد سالم سالم

الفصل الأول
المرحلة الأولى (١٢٩٩ـ ١٤٥١م)
إقامة الدولة وصراع البقاء

- عثمان الأول (١٢٩٩ – ١٣٢٦م)
- أورخان الأول (١٣٢٦ – ١٣٦٢م)
- مراد الأول (١٣٦٢ – ١٣٨٩م)
- بايزيد الأول (١٣٨٩ – ١٤٠٢م)
- محمد الأول (١٤١٣ – ١٤٢١م)
- مراد الثاني (١٤٢١ – ١٤٥١م)

الفصل الأول
المرحلة الأولى (١٢٩٩ـ ١٤٥١م)
إقامة الدولة وصراع البقاء

تمهيد :

كانت الدولة العثمانية منذ قيامها دولة محاربة أصبحت بمرور الوقت شديدة المراس من الناحية العسكرية والحربية ، ويرجع ذلك بالطبع إلي بداية نشأتها وموقعها الذي احتلته منذ أيامها الأولى كإمارة صغيرة في شمال غرب الأناضول ، ضمن إمارات تركمانية شتى ، نشأت مع نزوح العديد من القبائل التركمانية من أواسط آسيا أمام المغول المتجهين غربا ، مع بداية الزحف المغولى على العالم الاسلامي في القرن الثالث عشر.

وقد اختلفت تلك الإمارة الصغيرة الناشئة عن الإمارات المحيطة بها في موقعها الحساس الملامس لخطوط العدو البيزنطى الصليبي المتربص دائما بالمسلمين ، والذي كان يتحين الفرص الملائمة للإنقضاض وقضم الأراضي الإسلامية ، التى كانت يوما من الأيام تحت امرته ، وأخصها أراضي الأناضول التي أصبحت إسلامية بفضل دولة سلاجقة الروم ، التى وقفت للبيزنطيين وقاسمتهم في ملكهم حتى إنهيارها على يد الضربات القاصمة للمغول ، ولكن بعد إنحصار الموجة العنيفة للغزو المغولى ظهرت تلك الإمارات التركية وإقتسمت أراضي الأناضول فيما بينها. وهكذا كانت إمارة آل عثمان الناشئة تضع على عاتقها منذ أيامها الأولى في القرن الرابع عشر الميلادي عبء القتال والجهاد الذي لم يتوقف منذ ذلك الحين ، بل إنه أصبح في جبهات متعددة مع اتساع رقعة الدولة ، ونشر رايتها على الكثير من الأسقاع في أوروبا وآسيا وإفريقيا .

لذلك أصبحت الدولة العثمانية بحق دولة عالمية ، ضمت بين جنباتها معظم أراضي الدولة الإسلامية الأولى وكثير من الأراضي الجديدة ، وحملت على عاتقها المسئولية الأولى للخلافة الإسلامية ، ألا وهى حماية الدين ونصرته ونشره ، وإذا تفحصنا بعض وصايا السلاطين الأوائل لأولادهم ، لوجدنا أن الدولة قامت منذ البداية على أسس ومبادئ دينية وجهادية ، وهي على الأرجح التي أوصلت هذه الدولة إلي تلك المساحة الشاسعة وذلك العمر المديد . من هذه الوصايا وصية عثمان الأول مؤسس الدولة العثمانية لابنه أورخان حيث يقول : (إنك تعلم أن غايتنا هى إرضاء رب العالمين ، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق ، فتحدث مرضاة الله جل جلاله ، يا بنى لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد ، فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت وهذا يا ولدى ما أنت أهل له).(١)

ومن وصية السلطان محمد الفاتح لابنه بايزيد الثانى : (كن عادلاً رحيماً ، وابسط على الرعية حمايتك بدون تمييز ، واعمل على نشر الدين الإسلامي ، فإن هذا هو واجب الملوك على الأرض ، قدم الإهتمام بأمر الدين على كل شئ ، ولا تفتر في المواظبة عليه ، ولا تستخدم الأشخاص الذين لا يهتمون بأمر الدين ، وسع رقعة البلاد بالجهاد واحرس أموال بيت المال من أن تتبدد).(٢)

هكذا كانت الإستراتيجية الأولى التي قامت عليها الفتوحات العثمانية ، تماماً كما بدأت الفتوحات الإسلامية في زمن الإسلام الأول . لقد كانت الدولة تجاهد دائماً منذ أن كانت إمارة صغيرة ضد الصليبيين ، في الوقت الذي كان باستطاعتها عندما أصبحت قوة كبيرة ، أن تتجه لتوحيد إمارات الأناضول أولاً تحت سلطانها ، ولكن سلاطين آل عثمان كان اتجاههم دائما ناحية الغرب ، حيث أوروبا النصرانية وأراض لم يدخلها الاسلام

من قبل ، حتى تغيرت المعادلة وأصبحت أراضي الإسلام في خطر من جميع جوانبها الشرقية والغربية ، وحينئذ كان على الدولة العثمانية المجاهدة أن تتجه إتجاها آخر ينم أيضا عن استراتيجيتها الأولى ، وهي الجهاد لنصرة الدين وحمايته ، لقد استطاعت الدولة العثمانية بفضل استراتيجيتها الجهادية أن تكون ثانى الدول الاسلامية في اتساع الفتوحات وسرعتها بعد الدولة الأموية .

إذا نظرنا في تاريخ الاسلام ، وجدنا أن معظم دول الإسلام الأولى لم تتأسس بواسطة جماعة أو عشيرة استولت على الحكم اغتصابا أو عن طريق الإنقلاب ، ولكن من أصول تأسيس الدول الكبرى في الاسلام هو القيام بالدعوة الي إمام ما ، وكان هذا الإمام غالباً ما يكون من سلالة شريفة ، حتى يفضله الناس ويقاتلون من أجل نصرته .

لكن الدولة العثمانية قد خالفت هذه القاعدة كل المخالفة ، فمنذ تأسيس هذه الدولة كإمارة صغيرة بواسطة عشيرة لم يتجاوز عددها المئات ، لم يكن بحسبان مؤسسيها التقدم لإمامة المسلمين وتكوين دولة إسلامية عالمية .

و المدقق ببداية التاريخ العثماني ، يجد أن الإمارة العثمانية الصغيرة الناشئة حديثا لم تقم بالدعوة إلي نفسها ، أو حتى بمحاولة توسيع حدودها على حساب الكيانات الصغيرة المماثلة لها على أرض الأناضول ، لكن تلك الإمارة ارتضت مع صغرها وضعفها أن تكون بمثابة حائط صد أمام البيزنطيين ، يمنعهم من التقدم في الأناضول المسلمة ، ولم تكتف هذه الإمارة بذلك بل أرادت التقدم على حساب الأراضي البيزنطية في الأناضول و أوروبا ، وكان بعد ذلك توسعها في الأناضول على حساب الإمارات التركية ، وسيلة لإتمام السيطرة و جمع القوة لمواجهة الصليبيين .

يقول جيبونز Gibbons : (إن العثمانيين لم يستطيعوا توسيع أراضيهم في الأناضول إلا بعد الفتوحات التي قاموا بها في البلقان ، ولم تكن فتوحاتهم في البلقان من أجل النهب والسلب ، بل ربما بهدف مخطط للإستيطان في هذه المنطقة).(٣)

ولكن السؤال هنا هل تستطيع عشيرة مكونة من مئات الأشخاص أن تقوم بالتوسع على حساب البيزنطيين وخاصة في الأراضي الأوروبية ؟؟

تكمن الاجابة هنا في الإستراتيجية العظمى التى قامت عليها الدولة العثمانية ، ألا وهى (الجهاد) . إن الجهاد الذي دعا إليه العثمانيون في بداية أمرهم ، قد جذب المجاهدين المسلمين من كل إمارات الأناضول المسلمة ، بل و أيضاً من بعض أراضي الاسلام الأخرى ، حيث قامت الدولة بالدعاية إلي الجهاد ضد الصليبيين ولنشر دين الله ، على حساب الدعاية إلي نفسها لتكون دولة كبيرة أو إمامة إسلامية . ومن هنا وضعت الدولة العثمانية دون أن تشعر الركيزة الأولى ، لتصبح في المستقبل القريب دولة اسلامية عالمية . وكما كان الجهاد هو المقوم الأول لإنشاء الدولة الإسلامية الأولى ، أصبح مرة أخرى مقوماً أساسيا قامت عليه الركائز الأولى لإنشاء دولة عثمانية حملت في أقل من قرن من الزمان صفات الدول الاسلامية الكبرى في صدر الاسلام .

والجدير بالذكر أن عثمان بك المؤسس الأول للدولة ، حدث بينه وبين قائد مدينة بروسه (أقرينوس) صراعاً شديداً استمر عدة سنوات قبل استسلام المدينة ، التى أعتنق قائدها الإسلام ، فلم يتردد عثمان بك في أن يضمه لقواده ويمنحه لقب بك ، حتى أصبح بعد ذلك من القادة البارزين للدولة العثمانية .(٤)

هكذا لم تعتمد الدولة العثمانية منذ نشأتها على عنصر مؤسسيها الأتـــراك ، ولكن كان عنصرها الأول هو الاسلام ، فمن اعتنقه أصبح عثمانيا له نفس الحقوق وعليه نفس الواجبات ، لذلك أصبحت تلك الدولة في وقـــت قصير تضم أعراقاً وملل شتى ، ساهمت معظمها في قوة الإمبراطوريـــة وبنائها في شتى المجالات ، والأبطال العثمانيون من أصول مســيحية أو غير تركية يمتلئ بهم التاريخ العثماني ، بل ويفتخر بنسبهم اليه .

ولتلك الأسباب انخرطت الكثير من الجماعات الإسلامية تحت لواء الدولة العثمانية كجماعة (غازيان روم) أى غزاة الروم أو الغزاة ، وكان هؤلاء يعرفون في المجتمعات التركية القديمة بلقب (آلب) أي البطل ، وبعد أن أسلم الأتراك أصبحوا يلقبون بالغزاة جمع غازى(٥) ، وكانت هذه الجماعة ترابط على حدود الروم ، وتصد هجماتهم عن المســلمين منــذ العصــر العباسي .

وهناك أيضا جماعة (آخى تشكيلاتى) أى تشــكيلات الأخــوة ، وهــى تشكيلات الفتوة السابقة التي طورها الأتراك ونشروها فــي الأناضــول خاصة ، وهم جماعة من الباعة وأهل الحسبة اشتهروا بالإستقامة والجود كانوا يراقبون السوق ويعدلون ، وكسبوا محبة الناس.(٦)

لقد تمكنت تشكيلات الأخوة من النهوض بأدوار مركزية في نشوء الدولة العثمانية وارتقائها ، وبالتالي الإسهام المباشر في رسم أهدافها وتشــكيل مؤسساتها ، وما يتصل بها من أعمال تنظيمية وإدارية وعسكرية ، سواءً داخل المدن أو على الحدود ، وصولاً إلي المناطق المفتتحة داخل المجال البيزنطى .(٧)

هكذا ساهمت الجماعات الدينية مساهمة فعالة في التكــوين الأول للدولـــة العثمانية وإرساء الأسس الأولى لاستراتيجياتها ، كما ساهمت بعـــد ذلـــك

مساهمة مباشرة فيما يتعلق بالجهاد والفتوحات والنشاط الدينى والإجتماعي داخل الأراضي المفتوحة[٨] ، وهذا بالطبع لأن سياسة المرابطة على الثغور قد اتخذت طابعاً خاصاً ، جمع فيما بينه كافة التيارات في الدولة سواءً فكرية أو سياسية أو دينية على اختلاف مواقعها وانتماءاتها . إتخذت كل تلك التيارات بغض النظر عن تباينها إتجاهاً وهدفاً واحداً وحد غايتها وقوى شوكتها وجعلها بعيدة كل البعد عن التنافس والصراع ، وهذا ما رأيناه قائما منذ بداية الفتح الاسلامي .

لم تتعد استراتيجية الفتوحات الأولى للعثمانيين في الأراضي المسيحية ، الإستراتيجية الإسلامية الأولى ، التي تقوم على تطبيق القانون الاسلامي في الأراضي المفتوحة ، ومعاملة الأهالي تبعاً لقوانين معاملة أهل الذمة في الاسلام .

لقد قارن بيتر شوجر Sauger في كتابه (أوروبا العثمانية) بين الحكم العثماني في شرق أوروبا وبين الحكم الاسلامي للدولة الاسلامية الأولى على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، والذي اتخذه ركيزة لبناء وجهة نظره في الحكم العثمانى ككل واستراتيجية الفتوح العثمانية الأولى . يقول في ذلك أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم قد اتسع مجال دعوته حتى استوعب النصارى واليهود داخل دولته الاسلامية دون أن يطلب منهم تغيير عقيدتهم ، فهناك معاهدات ترجع الي أيام حكمه صلى الله عليه وسلم ، توضح ذلك بما لا يدع مجالا للشك ، مثل معاهدة أهالي نجران عام ٦٣١م ، والتي حددت الإلتزامات والضرائب المفروضة عليهم ، في مقابل أن يصبحوا في حماية الله وذمة رسوله ، هم وأهلهم وأرضهم وتجارتهم وكنائسهم وشعائرهم .

ويقول أنه بذلك نضع أيدينا على المبدأ الإسلامي الأول الذي حكم حياة شعوب أوروبا الشرقية تحت الحكم العثماني ، والذي أصبح عنصراً أصولياً ، فالإنسان (المسيحي واليهودي) الذي يقبل السيادة للإسلام ويرغب أن يعيش في دولة اسلامية تحت شروط مفروضة ، يصبح (ذميا) أي شخص مشمول بالحماية ، وهذه الحماية إمتدت إلي ما وراء الحرية الدينية التي كانت أمراً واضحاً حسبما أشارت نصوص المعاهدة مع نجران ، إذ اشتملت على نوع من الحكم الذاتى أخذ طابعاً مؤسسياً في إطار الحكم العثماني عرف بنظام الملة ، الذي كان عبارة عن سياسة حكيمة للأقلية تقوم على التبعية الدينية . ويمكن التعرف على أصل هذا النظام من نصوص معاهدة نجران المشار إليها ، إذ تشير إلي أنه إذا طلب نجراني إقامة العدل والحق ، فذلك أمرٌ متروك لأهالي نجران يقيمونه فيما بينهم .[٩]

لقد أشارت معاهدة نجران فيما أشارت بوضوح ، إلي احترام القوانين المحلية والعادات والتأكيد على ذلك . وقد أكد العثمانيون احترامهم لتلك الأعراف والعادات في المناطق التي حكموها من جنوب شرق أوروبا فور دخولها ، بل لقد ضمنوها في القوانين العثمانية اللاحقة التي أصدرها السلاطين تباعا لتطبق في تلك الأقاليم والتي عرفت باسم (القوانين).

يقول (شوجر) : لقد اتبع العثمانيون بطبيعة الحال الأركان الأساسية (أركان الاسلام) بل إن كل عثماني عمل على أن يعيش طبقا لما تحضه عليه تلك الأركان من توجيهات ، وما المباني العامة الكثيرة من مستشفيات وأسبلة وطرق وغيرها والتي أقيمت في جنوب شرق أوروبا ، إلا نتيجة للإلتزام بأركان الاسلام ، ولعل الآيات رقم ١٩٠ : ١٩٣ من سورة البقرة [١٠] كانت تمثل أهمية كبرى لرسالة الدولة العثمانية ، لقد أصبح الجهاد والغزو عند العثمانيين هو المبرر الرسمي لوجود الإمبراطورية العثمانية.[١١]

عثمان الأول (١٢٩٩ـ ١٣٢٦م) :

على تلك الأسس بدأت الدولة العثمانية رحلة الجهاد والتوسع ، منذ أن تأسست تلك الدولة ثم استقلت رسميا عام ٦٩٩ للهجرة / ١٢٩٩م ، ولم تكن البداية بالطبع في عهد عثمان الأول إلا حول الإمارة العثمانية الناشئة في الممتلكات المسيحية المتبقية في الأناضول ، منذ الصراع الأزلى بين الإسلام ممثلاً في دول الإسلام الكبرى والمسيحية ممثلة في الدولة البيزنطية . كان آخر ذلك الصراع بين دولة سلاجقة الروم التركمانية الأصل وبين الدولة البيزنطية ، ولقد استطاع سلاجقة الروم منذ عهدهم الأول إلتهام الأراضي البيزنطية في الأناضول ، حتى اتخذوا من مدينة قونيه عاصمة لهم ، وكان آخر الممتلكات المسيحية في الأناضول عند قيام الدولة العثمانية بقايا للوجود اليوناني حول طرابيزون Trabzon على الشواطئ الجنوبية للبحر الأسود ، والوجود الأرميني في الوسط الجنوبي من آسيا الصغرى ، إلي جانب الممتلكات البيزنطية المنتشرة بمحاذاة الشاطئ الآسيوي من بحر مرمرة وأهمها مدينتي نيقيه وبروسة .

لقد انطلق عثمان الأول من مدينة (ينى شهر) التي أصبحت عاصمة ملكه ، وبدأ في إرسال حملاته العسكرية ضد المدن اليونانية المجاورة ، واستولى على كثير من الحصون قبل أن تتحرك جيوش الدولة البيزنطية لمواجهته ، وبعد أن دحر الجيش البيزنطى لم يجرؤ اليونانيون على الخروج من أسوار نيقيه Nicaea .(١٢) ولقد استطاع عثمان في هذه الفترة المبكرة من التاريخ العثماني أن يبث الرعب في قلوب أعدائه وأن يقوض قبضتهم في الأناضول وأن يصل إلي ساحل المضايق .

لقد كانت هذه المرحلة المبكرة من التوسع قاصرة على الأناضول ، فقد كانت الدولة العثمانية الناشئة ، تريد في بداية الأمر ترسيخ أقدامها وإرساء قواعدها الجهادية الأولى في مقابل العالم المسيحي وخاصة الشرقي ، الذي كان في تلك الفترة في تناحر وضعف سهل للعثمانيين وسارع بنمو دولتهم ، واتساعها ناحية الجانب الأوروبي ، الذي لم ينتبه إلي خطورة العثمانيين إلا بعد أن عبروا البحر واستولوا على جاليبولي Gallipoli .

ومنذ ذلك الوقت أصبح التقدم العثماني في آسيا الصغرى في معظم الأحيان موازيا لتقدمهم في البلقان زمنيا ، وفي بعض الأحيان كان الفتح في البلقان أسرع منه في الأناضول.(١٣)

وهذا بالطبع يرجع إلي سهولة السيطرة على تلك البقاع ، حيث النزاع السياسي القائم بين دويلات شبه جزيرة البلقان كما أسلفنا ، بالإضافة إلي الإضطهاد المذهبي الذي عانى منه الكثير من أهال تلك البلاد ، فلقد كان ملك المجر(لودفج) Louis على سبيل المثال متعصبا أشد التعصب للمذهب الكاثوليكي الذي يدين به ، وبينما كان يفرض مذهبه بالعنف والقتل على البلقانيين الأرثوذكس ، كان الفتح العثماني يمارس الحرية الدينية والوجدانية وتسامح في هذا الخصوص إلي أبعد الحدود ، ففضل أهالي تلك البلاد حكم العثمانيين على غيرهم ، فلم يبدوا أي مقاومة ، فساعد ذلك على سهولة اقتحام المدن والقلاع .(١٤)

تشير الدلائل الي أن عثمان مؤسس الدولة العثمانية وضع الأسس والمبادئ الرئيسة التي سارت عليها الدولة في مرحلتها الأولى على الأقل، فلم تشق طريقها للإستقلال إلا من أجل الجهاد والفتح ، فكانت أولى الدوافع دوافع دينية كما ظهر في وصية عثمان لابنه . و لقد تحدثت

بعض المصادر بولاية عثمان قضاء إحدى المدن في حياة والده أرطغرل وكان ذلك حوالي عام ١٢٨٥م ، وأنه قد حكم لنصرانى بيزنطـى أمـام تركى مسلم ، وكان هذا الحدث سببا في هداية الرجل وقومه إلي الاسلام ، لذلك اجتذب الجهاد في عهده الكثير من الجماعات الدينية المجاهـدة ، التي أسست قواعد الفتح منذ بداية الدولة ، وأرست دعائم وركائز لم تزول مع الوقت ، وكان لها نتائجها الإيجابية في دخول أعداء الدولة أنفسهم في الاسلام . مات عثمان الأول وهو مستمر في فتوحاته عندما أصـبحت مساحة دولته ١٦ ألف كم .

أورخان الأول(١٣٢٦ـ ١٣٦٢م) :

ولقد استأنف أورخان بن عثمان استراتيجية الفتح العثماني ، حيث استطاع إسقاط بروسة المدينة البيزنطية القديمة علم ١٣٢٦م فـي نفـس وقـت إحتضار أبيه ، فخلفه في الحكم والقيادة واتخذ بروسة عاصـمة جديـدة للإمارة العثمانية ، واستطاع أورخان التوسـع علـى حسـاب الوجـود البيزنطى في الأناضول ، فأسقط مدينة نيقيه (ازنيق) العاصـمة السـابقة للبيزنطيين عام ١٣٣٠م .[١٥]

استطاع أورخان بعد إسقاطه نيقيه ، الإستيلاء على ما تبقى من الأراضي البيزنطية في شمال غربى الأناضول دون صعوبة ، ولم يشأ التقد نحـو أوروبا إلا بعد الاستقرار الكامل لإمارته داخل الأناضول ، لـذلك عمـل على تصفية الوجود البيزنطى هناك ، فضم امارة (قره سى) التركمانيـة ليتجه بعدها إلي الجنوب حيث الأراضي الأخيرة للبيـزنطيين والواقعـة جنوبي بحر مرمرة فاستولى عليها ، هكذا سيطر بالكامل علـى جنـوبي بحر مرمرة ، فبدا له الطريق مفتوحا للعبور إلي أوروبا ، وكان ذلك بين عامي ١٣٤٥- ١٣٥٠م .[١٦]

ومن الجدير بالذكر أن أورخان الأول بدأ في وضـــع سياســـات للدولـــة العثمانية ، كان لها عميق الأثر فيمن تلاه من الســـلاطين ، ســـواءً فـــي اسلوب فتوحاتهم للأراضي المسيحية ، أو محاولة دمج تلـــك الأراضـــي المفتوحة في دولتهم بحيث تصبح جزءً لا يتجزأ من جسد الدولة ، ولابـــد من الإشارة إلى أن تلك السياسات إستطاعت بالفعل النجاح في ذلك بنسبة كبيرة في أراضي الأناضول أكثر من نجاحها في البلقان ، وهذا يرجع في غالب الأمر إلي طبيعة شعوب تلك المنطقة المتنوعة المتنـــافرة ، والتـــي كانت في معظم الوقت في حالة من الصراع ، وحالة عدم الاستقرار تلك ، لم تمكن العثمانيين من صهر تلك البقاع صـــهراً كـــاملاً فـــي البوتقـــة العثمانية ، كما حدث في معظم البلاد التي انطوت تحت الحكم العثماني ، وأخصها أراضي الأناضول .

وإليه يرجع الفضل أيضا في تكوين أول جيش نظامى على أسسٍ حديثـــة آنذاك ، فالجيش العثمانى قبل عهد أورخان كان أغلبه من المجاهدين الذين لا يبغون إلا الجهاد (النصر أو الشهادة) ، فلم تكن لهم رواتب معلومـــة ، ولم يلتزموا بالجندية ولم يداوموا على المران ، بل كان اجتماعهم من أجل القتال والفتح ، وعمل أورخان على زيادة عدد جيشـــه الجديـــد ، الـــذي حرص أن يجعله من المسلمين المخلصـــين لعقيـــدتهم وســـماه (الجـــيش الجديد)، ووضع له راية أصبحت بعد ذلك أساساً للراية العثمانية ، فكانت حمراء وسطها هلال تحته سيف ، أطلق عليه ذو الفقار تيمنا بسيف علي رضي الله عنه .

لقد استطاعت استراتيجية أورخان الناجحة دمج أراضي الأناضول التـــي ضمها الي سلطانه دمجاً كاملاً ، فبعد استسلام بروسة ونقل مقر الحكـــم إليها ، ما لبثت أن أصبحت مدينة إسلامية قلباً وقالباً حتى سميت بمدينـــة الفقهاء ، فقد حول أكبر كنائسها إلي مسجد ، مما جعلها سنة للعثمانيين من

بعده ، وهي تحويل أكبر كنائس أي مدينة مسيحية مفتوحة الي مسـجد . وبعد فتحه نيقيه (ازنيق) ، أنشأ بها أول جامعة عثمانية وعهد بإدارتها إلي داوود القيصري ، وهو أحد العلماء الذين تلقوا تعليمهم في مصر . يقول كارل بروكلمان Brockleman : وما هي إلا فترة وجيزة بعد فتح نيقيه حتى استعادت مكانتها كمركزا لصناعة القاشانى ، ومقر لعدد من معاهـد التعليم .[١٧]

وفي عام ١٣٤٠م قام ببناء مركزاً تجارياً في بروسة (بورصـة) يضـم سوقاً وبزستان أي سوقاً مغطى ، والذي سيرى بعد ذلك في معظم المدن التركية .

يقول د. خليل اينالجيك : إن العثمانيين كـانوا فـي السـنوات الأولـى لإمبراطوريتهم يحاولون الحصول على انقياد المسيحيين الطوعى ، وعلى ثقتهم قبل اللجوء إلي الحرب .[١٨]

وهذا بالفعل ما جعل العثمانيين بدهائهم السياسي ، يضـعون سياسـاتهم السلمية الخاصة بالأراضي المسيحية قبل دخولهم العسكري ، الذي يكون بمثابة التمهيد الأخير بعد سيطرتهم السياسية الكاملة . كان من ضمن هذه السياسات سياسة التدخل في الشئون الداخلية للإمبراطوريـة البيزنطيـة المتداعية ، وساعدهم في ذلك الضعف الشديد والتنافس على السلطة داخل الإمبراطورية .

ولقد عزز العثمانيون ذلك التدخل بسياسة المصاهرة ، التي اتبعوها مـع الحكام المسيحيين ، فكان هذا الزواج يؤدى في النهاية إلي الإنـدماج ثـم الضم ، فكان بمثابة صفقات سياسية رابحة يعقدها السلاطين العثمـانيون مع حكام الامارات المسيحية.[١٩]

كان من أهم هذه الزيجات التي ساعدت العثمانيين في فتوحاتهم الأولى ، زواج أورخان الأول من ابنة الإمبراطور البيزنطى ، والذي طلب من أورخان بصفته صهراً مساعدته لصد هجمات السلاف والبلغاريين عام ١٣٤٧م[٢٠] ، ومنذ ذلك الوقت وجد العثمانيون لهم موطأ قدم على الجانب الأوروبي لم يبرحوه أبدا .

ففي عام ١٣٥٢م عبر ولى العهد الغازى سليمان باشا الي روملى (أرض الروم) وشتت بسهولة جيش التحالف الصربي- البلغاري ، الذي كان ينوي الحملة على القسطنطينية Constantinople ، واعترافا بفضل سليمان باشا ، أهدى امبراطور بيزنطة إليه عام ١٥٥٣م قلعة صغيرة تقع على الجانب الأوروبي لتسهل عبوره إلي أوروبا ، وهكذا حازت الدولة العثمانية وللمرة الأولى أرضاً في القارة الأوروبية بصورة رسمية وشرعية . وفي ١٣٥٧م عام وفاة سليمان باشا ، إستطاع الإستيلاء على كامل شبه جزيرة جاليبولي ، الواقعة على الجانب الأوروبي من الدردنيل Dardanelles ، بما في ذلك المدينة ، ووصل في الغرب إلي حدود نهر مريج ، وبذلك أصبح البيزنطيين محاصرين من الغرب.[٢١] وبذلك أصبحت جاليبولى القاعدة الأولى للعثمانيين في أوروبا ، والتي انطلقوا منها بعد ذلك في حملات مستمرة توجت بإخضاع البلقان كاملة .

لقد اتبع أورخان في أوروبا كما حدث من قبل في الأناضول ، سياسة الإستقرار والدمج ، فبعد تمكنه من التوسع المبدئي في أوروبا ، بدأ بإرسال أعداد كبيرة من الرعاة التركمان إلي المدن المفتوحة ، بغية صهرها ودمجها مع باقي الأراضي العثمانية في الأناضول ، و بحيث لا يتمكن المسيحيون بعد ذلك من طرد المسلمين من أوروبا . ولقد تماشت تلك السياسة الحكيمة مع سياسات الفتوحات الإسلامية الأولى ، والتي اعتمدت بصورة أساسية على التهجير والتوطين ، مما أدى إلي امتزاج

عناصر السكان المستوطنة مع السكان الأصليين للبلاد المفتوحة ، وجعلها جزءً أصيلاً من أرض الاسلام .

ويعتبر ميخال الغازى ، أحد القادة العسكريين البيزنطيين والذي اعتنق الإسلام وتعاون مع العثمانيين ، نموذجاً مشهوراً للعملية التي كان يتم فيها الإنصهار في المجتمع الجديد.(٢٢)

لم يحاول أورخان فرض الاسلام على رعاياه غير المسلمين ، بل طبق التسامح الديني الكامل ، الذي يفسر إلي حد كبير تحول العثمانيين الي دولة قوية ، ولكن أورخان رأى ضرورة ايجاد تمييز بين المسلم والمسيحي غير التمييز الديني ، وذلك لاجتذاب المسيحيين وبخاصة فئاتهم العليا ، بحيث يتخلون عن عقيدتهم في نظير مزايا معينة . ولقد حل أوروخان هذه المشكلة بتوفير نظام للمكافآت على الخدمة العسكرية ، ثم بقصرها على المسلمين .

لهذا قسم الأراضي التي جرى احتلالها على المحاربين المخلصين ، وأعلن أن جزءً كبيراً من الأراضي التي يتم الإستيلاء عليها خارج المدن سيوزع على الجنود الذين اشتركوا في القتال . وكان شغل هذه الأراضي يتم على شكل إقطاعات حربية (تيمارات) ، بشرط أن يقوم شاغلوها بالوفاء بحاجات الخدمة العسكرية ، سواء بأن يرسلوا إلي ميادين القتال عددا من الرجال يتناسبون مع مساحة الأرض التي يشغلونها ، أو بأن يدفعوا مبالغ تكفى للإنفاق على قوات بديلة . وكان ذلك بمثابة تطوير للنظام الإقطاعى الأوروبي ، وإن اختلف عنه في صغر مساحة الأراضي التي كان يجب شغلها ، وبفضل هذه الحيازات الصغيرة وسرعة اتساع مساحة الأراضي المحتلة ، إستطاع العثمانيون منذ البداية أن يمارسوا سلطة مطلقة على أملاكهم الآخذة في الاتساع ، والحيلولة دون قيام طبقة

نبلاء ، بحيث أن الدولة العثمانية لم تشهد طيلة تاريخها نوعا من النبالة الوراثية.[٢٣]

هكذا أفسح النظام العثماني بذكائه وديناميكيته الطريق لآلاف المسيحيين للدخول في الاسلام ، ليصبحوا عثمانيين بمجرد اعتناقهم للدين ، حتى ينالوا المزايا المتعددة التي يتمتع بها المسلم في ظل الحكم العثماني ، دون النظر لأصل عرقهم أو لغتهم أو دينهم السابق ، فازدادت تبعا لذلك أعداد العثمانيين حتى أصبحوا بمرور الوقت بالملايين ، وهكذا استطاع النظام العثماني الإستفادة بشكل كبير من الخبرات والمهارات المنتمية للديانات والأعراق الأخرى ، فشغلت الكثير من المناصب الكبرى بواسطة مواطنين ذوى أصول مسيحية- ينتمون الي أعراق شتى- طالما أنهم اعتنقوا الدين الإسلامي .

مراد الأول(١٣٦٢ـ ١٣٨٩م)

عندما تولى السلطان مراد الأول الملقب (بمراد خداوندكار) - أى مراد الله - العرش بعد وفاة أبيه أورخان عام ١٣٦٢م ، حول استراتيجية الدولة كاملة تجاه شبه جزيرة البلقان Balkans ، والتي كان يتنازعها عدد كبير من صغار الحكام ، لكنه قبل التوجه شطر أوروبا حاول أن يثبت وضع دولته في الأناضول أولاً ، فقام بفتح أنقرة للمرة الثانية ، ووطد حكمه بها ليحمى ظهره ثم انطلق إلي أوروبا ، فتساقط أمراء البلقان واحداً اثر واحد في قبضة العثمانيين . واستطاع مراد الأول في نفس سنة توليه الحكم أن يسقط (أدرنة) Adrianople المدينة البيزنطية الهامة ، والتي تعتبر العاصمة الثانية للدولة البيزنطية .

هنا تظهر براعة السلطان مراد في إدارته لسياسة الدولة ، حيث نقل عاصمة ومقر حكمه من بروسة الي أدرنة ، فكانت خطوة جريئة تحسب له ، استطاع من خلالها أن يقترب أكثر من مسرح الأحداث على الساحة

الأوروبية ، ويراقب عن كثب الصراعات الحادثة هناك ، ويتدخل في تلك الصراعات في الوقت المناسب لذلك ، فكانت بذلك أدرنة أول عاصمة لدولة اسلامية في شرق أوروبا ، استطاع من خلالها السلاطين اللاحقين تحقيق حلم المسلمين القديم بإسقاط الإمبراطورية المسيحية الشرقية والإحلال مكانها .

أصبحت أدرنة منذ فتحها مركزاً اسلامياً ، وطد أقدام المسلمين في أوروبا، وسرعان ما تركزت في العاصمة الجديدة جميع المقومات اللازمة للنهوض بالدولة وأصول الحكم ، فتكونت فيها فئات الموظفين وفرق الجيش وطوائف رجال القانون وعلماء الدين ، وأقيمت دور المحاكم وشيدت المدارس المدنية والمعاهد العسكرية . وقد ظلت أدرنة على هذا الوضع السياسي والعسكري والإداري والثقافي والديني حتى فتح العثمانيون القسطنطينية عام ١٤٥٣م فاتخوها عاصمة لهم .(٢٤)

أما على الجانب المسيحي ، أصبحت القسطنطينية معزولة تماماً عن باقي أجزاء الدولة البيزنطية ، قابعة خلف أسوارها تنتظر مصيرها الأخير ، لكن السلطان مراد لم يشأ أن تكون أولى مواجهاته الأوروبية بعد الإستيلاء على أدرنة ، مواجهه مصيرية مع الإمبراطورية البيزنطية ، لكنه آثر التوسع بقدر الإمكان في الأراضي المسيحية وتجريد الإمبراطورية البيزنطية من كل مقومات حياتها ، بدمج أراضيها بالأراضي العثمانية ، حيث يصعب على المسيحيين إرجاع تلك الأراضي المفقوده لنفوذهم ، أو نفوذ الإمبراطورية البيزنطية .

استطاع السلطان مراد بناءً على ذلك عام ١٣٦٣م أن يصل بفتوحاته غربا حتى جبال البلقان ، وبعد ذلك واصل فتوحاته حتى ضم معظم مقدونيا Macedonia ، بعد أن هزم القائد العثمانى لالا شاهين التحالف

المسيحي المكون من ملك المجر وبولنده وأمراء البوسنة Hercegovina والصرب Srbija ووالاشيا Wallachia ، واستطاع مراد على الجانب الآسيوي أن يتوسع في الأناضول ، بعد زواج ابنه بايزيد من ابنة أمير كرميان ، فما لبثت الإمارة أن دخلت في نطاق الدولة العثمانية ، كما اشترى مراد أراضي إمارة حميد من حاكمها ، وبذلك أدمج في أملاكه أربعاً من دول التركمان في آسيا الصغرى ، وهم (سلطانوى – قره سى – كرميان – حميد).[٢٥]

ومنذ عام ١٣٧١م هدف مراد الأول إلي إعادة بناء ودمج نسيج الدولة ، فقد اتسعت مساحتها في أوروبا وآسيا ، مع مقدرته على التوسع أكثر في الجانب الأوروبي ولكنه عمل على تحقيق إستراتيجية الدولة في وجوب دمج الأراضي المفتوحة وعثمنتها حتى يصعب إقتطاعها بعد ذلك من جسد الدولة .

ولقد لعبت روابط (الآخية) أو جماعات الاخوة دورا هاما في ذلك الشأن ، فكانت تنطلق هذه الروابط في اثر الفتح العثماني لتقيم التكايا والزوايا ، حتى إن كثيراً من القرى الجديدة التي نشأت ترجع في أصولها الي تلك المراكز التي أقامتها تلك العناصر ، أما في المدن أصبح دور الروابط الآخية غاية في الأهمية ، ذلك أن طوائف الحرف القديمة (الأوروبية) لم يكن أمامها إلا الإندماج مع أصحاب الحرف والمهن المختلفة ومخالطتهم ، والذين كانوا يمارسون نشاطهم الإقتصادى في حماية الدولة العثمانية ، ولقد أدى هذا التحول في السلطات الإدارية الذي بدأ خلال الفترة الأولى من الإنتصارات العثمانية ، إلي تحسين الأوضاع التي كانت سائدة في تلك المدن قبيل الفتح العثماني.[٢٦]

ولم يتوقف الأمر على هذا الحد ، بل لقد لعبت الأوقاف الخيريـــة التـــي أنشأتها الدولة العثمانية دورا كبيرا في إعادة بنـــاء وتنظـــيم الأراضـــي المفتتحة ، حتى أن شوجر يذكر أنه في منتصف القرن السادس عشـــر ، أدى إقامة بعض المؤسسات والمنشآت الخيرية إلـــي تحويـــل ســـرايبفو Sarajevo من قرية مضـــمورة إلـــي مدينـــة ، كمـــا أوجـــدت مدينـــة (أوزنكوبرو) في مكان خال بالقرب من أدرنـــة ، ويقـــول : أن انتشـــار الأوقاف خلال هذا العصر في أوروبا ، أدى الي تغيرات عميقة في المدن والقرى حيثما وجدت هذه الأوقاف.(٢٧)

هذا بالطبع كان يتماشى مع سياسة التهجير والتوطين التى اتبعتها الحكومة العثمانية منذ عهد أورخان ، فزادت تبعا لذلك أعداد التركمان بشكل كبير في الأراضي المفتوحة ، ودخلت عناصر أخرى من أهالى تلك البلاد في الاسلام ، إلي جانب تقسيم الأراضي خـــارج المـــدن إلـــي تيمـــارات أو إقطاعات تمنح للعسكريين ، وكل هذا أدى إلي إحكام السيطرة العثمانيـــة تماماً على أراضي البلدان المفتوحة ، بل جعلتها جزءً لا يتجزأ من النسيج العثماني .

عاود السلطان مراد الفتوحات مرة أخرى منذ عام ١٣٨١م ، واستطاع أن يستولى على مدينة (صوفيا) Sofia (٢٨) بعد حصار ثـــلاث ســـنوات ، واستطاع بعد ذلك الصـــدر الأعظـــم خيـــر الـــدين باشـــا فـــتح مدينـــة (سالونيك) Thessalonik (٢٩) الشهيرة عام ١٣٨٣م.(٣٠)

وعلى اثر هذه الفتوحات السريعة والمؤثرة ، قرر السلاف تكوين اتحـــاد صليبي لمواجهة العثمانيين ووقف توسعاتهم ، بل وطـــردهم مـــن كـــل أوروبا، وحاولوا مد هذا التحالف إلي دول أوروبا الغربية ، ليكون تحالفا مسيحيا لوقف المد الاسلامي ، الذي ربما يطال باقي الممالك الأوروبية ،

لكن محاولاتهم لمد ذلك التحالف باءت بالفشل ، فاقتصر التحالف على الصرب وبلغاريا والبوسنة والهرسك وألبانيا وبولندا والمجر ، حتى بلغت قوات التحالف حوالي مائتى الف جندى ، تقابلت مع الجيش العثماني بقيادة السلطان مراد في سهل (قوصوه) Kosovo [٣١] ، الذي سميت باسمه المعركة الكبيرة الفاصلة ، والتي انتهت بانتصار العثمانيين انتصارا باهرا عام ١٣٨٩م ، كان من نتائجه إدخال البلقان بالكامل تحت الحكم العثماني لمدة خمسمائة عام[٣٢] ، وكان من نتائجها أيضا استشهاد السلطان مراد بعد المعركة وهو يتفقد الجرحى على يد أمير صليبي جريح.[٣٣]

استشهد السلطان مراد بعد أن ضاعف مساحة دولته من ٩٥ ألف كيلومتر مربع الي حوالي خمسمائة ألف كيلومتر مربع أى أكثر من خمسة أضعاف ، يقول عنه المؤرخ البيزنطي هالكو ديلاس Khalkokondylas: (قام مراد بأعمال هامة كثيرة . دخل ٣٧ معركة سواءً في الأناضول أو في البلقان خرج منها جميعا ظافراً ، وكان يعامل رعيته معاملة شفوقة دون نظر لفروق العرق والدين). [٣٤]

لم يكن السلطان مراد مجرد فاتحاً وسع رقعة دولته بالحرب ، بل كان حاكماً بارزاً وسياسياً حكيماً ، له شخصيته التي صبغت فتوحاته بآثار ظلت باقية طيلة خمسة قرون ، فاستحق عن جدارة لقب المؤسس الفعلى للإمبراطورية العثمانية .

يقول عنه المؤرخ الفرنسي فيرنارد جرانارد Grenard : (لا يمكن أن يعثر على حاكم على مستوى السلطان مراد . لم يكن داهية عسكرياً واستاذاً استراتيجياً فحسب، بل كان في ذات الوقت دبلوماسيا مرهفاً . كان حاكماً بالفطرة . جعل من العثمانيين أمة واحدة . عرفهم بالمثل وزودهم بها . كان عند وفاته قد أمن مستقبل هذه الدولة لخمسة قرون).[٣٥]

بايزيد الأول(١٣٨٩ـ ١٤٠٢م) :

إستلم السلطان بايزيد – الملقب (بيلدرم) أي الصاعقة – السلطة بعد استشهاد أبيه عام ١٣٨٩م . ونستطيع من خلال لقبه أن نتعرف على سياسة الدولة في عهده ، فقد تلقب بالصاعقة لسرعته الخاطفة ، وللتنقل السريع بين جبهة الأناضول والجبهة الأوروبية ومع أن أمه يونانية دخلت الإسلام حديثًا ، إلا أن هذا لم يدفعه للتخلى عن استراتيجية الدولة الأساسية في أوروبا وهى الجهاد والفتح ، لكنه لم يفعل كما فعل والده من قبل في التطلع إلي أوروبا وحدها ، بل أراد أيضا أن يرسي قواعد امبراطوريته الآسيوية والتى نازعه فيها أمراء الإمارات التركمانية المجاورة .

نستطيع القول أنه منذ عهد بايزيد الأول ، تطلع العثمانيون لإرساء دعائم دولة عالمية وليست مجرد دولة تنتهج منهج غزو أعداء الله ، بل دولة مسيطرة كبيرة ، لقد استطاع بايزيد إرساء قواعد نظام حكم جديد ، استبدل النظام العثماني القديم القائم على حكم البلاد الفتوحة من خلال أمراء تابعين ، بنظام الحكم المباشر والخضوع للسلطة المركزية . لقد نقل هذا النظام الدولة نقلة نوعية في طريقة السيطرة والحكم ، فلقد تحولت بالفعل إلي دولة إسلامية كلاسيكية ، استطاعت في المرحلة التالية من خلال تلك الإستراتيجية ربط الولايات بالمركز ربطاً قوياً مباشراً ، وسيظهر هذا الأمر جلياً في القرن السادس عشر مع وصول الدولة إلي أقصى اتساع لها ، حيث استطاعت حماية ولاياتها الواقعة على أقصى الحدود في يسر وسلاسة ، بل والدخول في أكثر من جبهة قتالية في نفس الوقت ، واستمر هذا الأمر مطبقاً حتى بداية ضعف السلطة المركزية ذاتها في القرن الثامن عشر .

كانت أولى مؤشرات هذا النهج ، ما قام به السلطان بايزيد بعد استلامه للسلطة مباشرة في إخضاع كل الإمارات التركمانية المجاورة للدولة العثمانية ، بعد أن كانت موالية للدولة في عهد أبيه وجده ، ولقد شجعه على ذلك ما قامت به تلك الإمارت بعد استشهاد أبيه مباشرة من الثورة على العثمانيين ، وخاصة بعض الإمارت التي كانت قد خضعت للحكم العثماني زمن مراد مثل إمارة حميد ، وهكذا توجه بايزيد من الروملي مسرعاً إلي الأناضول حيث قام على مدى ثلاث سنوات منذ عام ١٣٩٠م بإخضاع الإمارت التركمانية لسلطانه.(٣٦)

لقد أدى هذا إلي تطور كبير في الإستراتيجية العثمانية ، فقد أدت تلك الغزوات إلي وصول النفوذ العثماني لأول مرة إلي سواحل بحر إيجه Aegean Sea والمتوسط الأناضولية ، وحيازة عدة موانئ هامة هناك مثل آيدن ومنتشه ، هذا بالإضافة إلي حيازة العثمانيين لأسطول إمراة صاروخان ، حيث استطاعوا بواسطته دخول مياه المتوسط ، وهذا في حد ذاته يعتبر تطوراً كبيراً بالنسبة للقوة العثمانية ، فحتى ذلك الوقت كانت قوة العثمانيين برية بشكل كامل ، لذلك لم يستطيعوا مجاراة البيزنطيين بحرياً لامتلاكهم أسطول ذو خبرة ومهارة . والجدير بالذكر أن القوة البحرية للعثمانيين لم تظهر بشكلها الإستراتيجي المؤثر إلا مع بدايات القرن السادس عشر مع انتقال الثقل والقوة والإستراتيجية الدولية إلي البحر . وسيظهر عجز الدولة العثمانية عن مواجهة الدول البحرية مثل البندقية Venice في هذه الفترة المبكرة من الفتوحات العثمانية ، ولذلك لجأت الدولة في كثير من الأحيان في تلك الحالات إلي الطرق الدبلوماسية .

ولقد ظهر هذا الأمر جلياً عام ١٣٩٣م ، عندما انتهى السلطان بايزيد من تسويته للأمور في الأناضول ، وانتقل إلي البلقان مرة أخرى ، بعد أن أقسم اللاهوتيون قسمهم المشهور بإعادة توحيد الكنيستين المسيحيتين لمواجهة العثمانيين ، واستطاعوا تقوية المورة بمساعدة البندقية التي تعتمد على القوة البحرية ، فلجأ بايزيد إلي الدبلوماسية ، حيث أجبر الإمبراطور البيزنطى على إرغامهم بالإعتراف بسيطرته عليهم.(٣٧)

أكمل السلطان بايزيد فتوحاته في أوروبا ، وفي وقت قصير استطاع أن يخضع الأفلاق (أو ولاشيا وهى جزء من رومانيا الحالية) وكذلك إخضاع البلغار Bulgarian إخضاعاً تاماً ، واستولى على عاصمتهم ، وفتح مدينة أثينا Athens عاصمة اليونان . أثارت تلك الانتصارات خوف الغرب ، فسارع لتكوين تحالف صليبي آخر للوقوف في وجه بايزيد ، واستطاع ملك المجر تكوين هذا التحالف من كل الدول الأوروبية تقريبا ، قبل أن ينطلق عام ١٣٩٦م ليواجه الجيش العثماني بقيادة السلطان بايزيد في موقعة كبيرة عند نيقوبوليس Nicopolis في شمال البلقان ، والتي أسفرت عن انتصار العثمانيين انتصاراً ساحقاً دوى صداه في أرجاء العالم الإسلامي .(٣٨)

كان من نتائج هذا الإنتصار دخول معظم مناطق البلقان تحت الحكم العثمانى ، فيما عدا ساحل دلماشيا Dalmatia ، وبعض مدن شبه جزيرة المورة . وأصبحت ولايات الصرب والبوسنة وولاشيا توابع عثمانية ، وتقلصت الإمبراطورية البيزنطية واقتصرت على العاصمة (القسطنطينية) وضواحيها . وقسمت بقية شبه الجزيرة الي أقاليم عثمانية.(٣٩)

بعد هذا الإنتصار الكبير للعثمانيين ، وتوطيد حكمهم في البلقان ، لم يبق الا البطشة الأخيرة التي تطيح بالدولة البيزنطية نهائيا ألا وهي إسقاط

العاصمة القسطنطينية ، لكن السلطان بايزيد أراد أولاً أن يصبغ فتوحاته بالصبغة الإسلامية ، ومساندة الرأي العام الاسلامي ، بالإضافة إلي ضمان ولاء الدولة المملوكية في مصر ، حتى يتم حماية ظهيره أثناء محاصرته للقسطنطينية ، لذلك قام بإرسال بعثة إلي الخليفة العباسي المتوكل ، والذي يقبع في حماية السلطنة المملوكية في القاهرة وذلك عام ١٣٩٦م ، وكانت هذه البعثة محملة بالهدايا والتحف وأسرى من المسيحيين ، وطلبت هذه البعثة من الخليفة تشريفاً وتقليداً بإعتماد بايزيد سلطانا على الروم ، وإقرار فتوحاته[٤٠] ، ولم يكن في ميسور السلطان المملوكى برقوق أن يأبى عليه إجابة بايزيد إلي طلبه ، إذ كان يرى في العاهل العثمانى حليفه الأوحد ضد المغول ، الذين كانوا يهددون كلا من بايزيد وبرقوق بخطر عظيم .

وبعد حيازة السلطان بايزيد لقب سلطان الروم بإقرار من الخليفة ، لم يصبح مجرد أميراً للثغور ، بل أصبح وريثا لأمجاد سلاجقة الروم وسلاطين قونيه العظام ، بالإضافة إلي حكمه للبلاد المفتوحة بصفة شرعية و الذي جعل منه مجاهداً وسلطاناً ذائع السيط ، إندرج تحت لوائه الكثير من المجاهدين من عموم البلدان الإسلامية .

بعد معركة نيقوبليس ، لم يكن أمام السلطان بايزيد إلا إحكام الحصار حول بيزنطة (القسطنطينية) لإسقاطها ، فكانت كل الشواهد في ذلك الوقت تقضي بسقوط هذه الدولة الهرمة وعاصمتها ، التي وقفت كثيرا في وجه الفتح الإسلامي لشرق أوروبا منذ قيام الدولة الاسلامية الأولى ، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان ، اجتاحت جحافل الموجة الثانية للمغول بقيادة تيمورلنك[٤١] الشرق الاسلامي ، ووصلت الي الأناضول ، و سرعان ما فك السلطان بايزيد الحصارعن المدينة وسارع بجيشه لصد هذه الهجمة الشرسة ، فتقابل بجيشه مع جيوش تيمورلنك في واقعة هائلة

عند أنقرة Ankyra عام ١٤٠٢م ، أسفرت عن هزيمة العثمانيين هزيمة ساحقة ، بسبب العدد الهائل لجيوش تيمورلنك ، التى تقول بعض المصادر أنها وصلت إلي ثمنمائة ألف ، هذا إلي جانب أن سياسة بايزيد تجاه الإمارات التركمانية قد أدت الي انسحاب عدد كبير من جنوده أثناء المعركة ، ممن كانوا يدينون بالولاء لتلك الامارات ، وأدى ذلك بالطبع إلي سرعة انهزامه ووقوعه في الأسر حيث مات بعد عام .

يقول المؤرخ التركى يلماز أوزتونا : (كانت معركة أنقرة أكبر حرب ميدانية حدثت على وجه الأرض خلال القرون الوسطى (٤٧٦م – ١٤٥٣م) وفي هذه الحرب التحم اثنان من أكبر الحكام العسكريين في التاريخ ، وفيها تبارى لإحراز النصر خاقان تركيان مسلمان كانا يقتسمان الأقطار بين الصين والأدرياتيك ومعهما أبناؤهما).(٤٢)

مع كل ذلك لم تكن أنقرة معركة فاصلة في التاريخ ، إذ لم تغير المجرى التاريخي لدولة من الدولتين ، لكنها مع هذا حملت نتائج ليست بالهينة ، فقد أدت إلي انحلال الأملاك العثمانية بعد سقوط الدولة تقريبا خاصة في آسيا الصغرى ، وإلي تأخير فتح القسطنطينية وبالتالي إطالة عمر القرون الوسطى خمسين عاماً أخرى ، ورجوع معظم إمارات الأناضول التركمانية إلي الإستقلال وتأخير وحدتها سبعون عاماً .

هكذا دخلت الدولة العثمانية في نظر كثير من المعاصرين في ذمة التاريخ، إلا أن الأقدار أسفرت عما لم يكن في حسبان الكثيريين ، فلقد أفاقت الدولة العثمانية من تلك الكارثة المصيرية التى حلت بها قبل مرور عشر سنوات ، مما ينم عن قوة بنيان هذه الدولة وثبات أساسها ، الذي وضعه سلاطينها السابقين ببعد نظرهم وحسن سياستهم . فقد أدى على سبيل المثال نقل العاصمة الي أدرنةعلى الجانب الأوروبي ، عدم تمكن

تيمورلنك من الوصول إلي مركز الحكم ، وبالتالي عدم القضـــاء نهائيـــا على الدولة ، هذا بالاضافة إلي أن المجهودات التي قـــام بهـــا الســـلطان بايزيد في سبيل توحيد الدولة في ظل حكم مركزي لم تضع هباءً ، فقـــد قسم الأراضي المفتوحة حديثاً ، وقام بتوزيعها مباشرة على شكل تيمارات كما فعل السلطان مراد ، وأدى ذلك بالطبع إلـــي حـــرص أمـــراء تلـــك التيمارات (الاقطاعات)، إلي إعادة توحيدها في ظل الحكم العثماني حتى يتسنى لهم الإنتفاع بها .

ولقد أدت سياسة التوطين التي اتبعها السلاطين العثمانيين فـــي المنـــاطق المفتوحة في البلقان ، إلي زيادة أعداد المسلمين وخاصة الأتراك في تلك المناطق ، فوصلت أعدادهم هناك الي مئات الآلاف ، وصعب طردهم أو القضاء عليهم نهائيا في تلك المناطق ، ومن الغريب أن غزو تيمورلنـــك لأراضي الأناضول أدى بدوره إلي هروب الكثير من العائلات التركيـــة إلي المناطق الأوروبية ، حتى أن جنوة استفادت من تقديم الخدمات لهـــم وجنت ربحا وفيرا ، ولقد ذكر المؤرخ البيزنطى دوكاس Ducasse ، أنه كان في أوروبا أتراكاً أكثر مما كان في الأناضول.(٤٣)

ومن الأحداث الفريدة في التاريخ بوجه عـــام ، عـــدم إنتهـــاز الشـــعوب المسيحية التي وقعت في قبضـــة العثمـــانيين - خاصـــة الامبراطوريـــة البيزنطية - فرصة تداعى الدولة على هذا النحو ودخولها فترة ضـــعف وتناحر ، ليقوموا بتوحيد جهودهم للتخلص من الحكم العثمـــانى نهائيـــاً ، خاصة بعد أن أثبت العثمانيون أنهم قوة غير قابلة للهزيمة على الأقل في تلك الفترة الأولى من فتوحاتهم ، لكن بعض المؤرخين يرجعون ذلك إلي أن الحكم العثمانى للشعوب المسيحية في شرق أوروبا كان أخف وطأة من الحكم البيزنطى الجائر.

وقد أرجع المؤرخ فنلى Finlay سبب نهوض الدولة العثمانية من كبوتها وانتعاشها سريعا إلي نفس أسباب نجاحها الأول ، وهو تفوق العثمانيين على كل الشعوب المعاصرة من حيث المعتقدات الدينية والسلوك الأخلاقي والحربي ، والذي أدى بدوره إلي خضوع أعدادا كبيرة من المسلمين والمسيحيين لآل عثمان بمحض اختيارهم ، مما يدل بصفة قاطعة على التفوق الحقيقي ، فثمة أجناس أخرى برزت إلي حيز الوجود واحتلت مناطق غنية ، ثم ما لبثت أن أصيبت بالترف والإنحلال ، على حين حافظ العثمانيون وقتاً طويلاً على حماستهم وأخلاقهم الأصلية.(٤٤)

محمدالأول (١٤١٣ – ١٤٢١م) :

بعد معركة أنقرة ، منح تيمورلنك الإمارت التركمانية استقلالها تحت نفوذه ، وقسم الممتلكات الباقية للعثمانيين في آسيا بين بعض أولاد السلطان بايزيد ، على أن يكون حكمهم تحت سلطانه أيضاً ، لكنه لم يستطع كما سبق القول أن يتدخل في البلقان التى تنازعها إبنان من أبناء السلطان بايزيد وبعض الأمراء المسيحيين ، وما لبث تيمورلنك أن رجع عائداً إلي عاصمته سمرقند Samarqand ، ونشبت على اثر ذلك فتيل الحرب الأهلية بين أبناء السلطان بايزيد للإستئثار بالسلطة ، واستمرت ما يقرب من عشر سنوات ، حتى استطاع محمد الأول بن بايزيد الملقب (بجلبي)- أي الشريف أو النبيل - أن يستأثر بالسلطة موحداً جناحى الامبراطورية تحت حكمه عام ١٤١٣م.

كان محمد جلبي سياسياً حكيماً ومحارباً ذكياً ، استطاع أن يدمج بين الصفتين في رحلته نحو استرجاع الإمبراطورية وسابق قوتها وهيبتها ، فقضى معظم سنين حكمه القليلة في رد نفوذ الدولة إلي الأقاليم التي فقدتها، خاصة في الإمارات التركمانية التي حظيت باستقلالها بعد أبيه بايزيد . لذلك اتبع سياسة سلمية بعقد اتفاقيات سلام مع الحكومات البلقانية

، وبعض الحكومات المسيحية الأخرى مثل البندقية وجنوة ، فكـان فـي الحقيقة يعمل لكسب الوقت لإعادة النفوذ العثماني إلي ما كـان عليـه ، ولكي يقوى السلطان محمد مركزه في الأناضول قام بسلسلة سريعة مـن الحملات العسكرية في بداية حكمه ، واستطاع أن يسـتعيد كثيـر مـن المناطق التي أخذت من أبيه بايزيد عام ١٤٠٢م.(٤٥)

ومما يؤثر عن السلطان محمد جلبي ، أنه استعمل الحزم مع الحلـم فـي معاملة من قهرهم ممن شق عصا الطاعة في الدولة ، فانه لما قهر أميـر القرمان ، وكان قد استقل عفا عنه بعد أن أقسم له على القرآن الشـريف بألا يخون الدولة فيما بعد ، وعفا عنه ثانية لما حنث في يمينه .(٤٦)

والجدير بالذكر أن السلطان محمد قد نقل العاصمة من أدرنة إلي بروسة العاصمة السابقة في الأناضول ، والتي تلقب بمدينة الفقهاء ، ولقد فسـر البعض ذلك بأنه أراد أن يظهر حسن نيته للأوروبيين ، الذين عقد معهـم معاهدات السلام بنقل مقر حكمه من دار الجهاد والحرب (أدرنة) إلي دار السلام والعلم (بروسة) ، خاصة و أن بروسة تقع في الأناضول ، حيـث أراد السلطان محمد إقرار حكمه واسترجاع ما فقدته الدولة مـن نفـوذ ، والقضاء على الفتن والإضطرابات الداخلية والمؤامرات التي يقـوم بهـا أمراء التركمان .

وما لبث أن قضى السلطان على الإضطرابات ووحد صفوف دولته فـي الأناضول اتجه إلي البلقان مرة أخرى ليسوى فيها الأوضاع ، وليحـاول إرجاع الوضع البلقانى إلي ما كان عليه قبل النكبة العثمانية . واسـتطاع بالفعل النجاح في ذلك الي حد كبير ، لكنه هزم عندما خاض حربا بحرية مع البندقية وقراصنتها المتمركزين في الجزر الإيجية ، الذين استمروا في أسر السفن التركية ونهب السواحل . وبالرغم أنه بدأ يعمل على تأسيس

أسطول بحري لمواجهة الدول ذات الإستراتيجيات البحرية من أمثال البندقية وجنوة ، إلا أن الأسطول البندقي المخضرم قد أوقع هزيمة فادحة بالأسطول العثماني الناشئ بالقرب من جاليبولي عام ١٤١٦م ، وعلى أثر هذه الهزيمة عقد السلام بين البندقية والدولة العثمانية .

يقول بروكلمان : الحق أن انتصار البنادقة على العثمانيين في جاليبولي عام ١٤١٦م هو الذي حملهم على التفكير جديا في انشاء أسطول بحري.(٤٧)

لقد كانت تلك الهزيمة نقطة فيصلية في استراتيجية الحرب العثمانية ، التي كانت دوماً تتجه نحو البر حيث القوة الحربية الضاربة للعثمانيين ، لذلك قام السلطان محمد الأول ثم من بعده مراد الثاني بإنشاء نواة قوة حقيقية يستند اليها بحريا ، حتى تتمكن الدولة العثمانية من مواجهة الدول الأوروبية البحرية التي تسيطر على سواحل بحر ايجه والمتوسط وجزرهما ، مثل البندقية وجنوة ومن بعدهما اسبانيا والبرتغال ، وأصبح هذا الأسطول أساسا لأسطول طوره محمد الفاتح ، حتى أصبح ركيزة أساسية في خطة فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م ، ثم جاء عهد سليمان القانونى الذي وصلت فيه الدولة العثمانية إلي أوج قوتها البحرية التي سيطرت بقوة على سواحل البحر المتوسط ، واستطاعت بالإضافة إلي ذلك النفاذ إلي البحار الرئيسية المؤثرة والسيطرة على منافذها البحرية .

هكذا استطاع السلطان محمد الأول ، الذي يعتبره المؤرخون المؤسس الثاني للدولة العثمانية ، توحيد جناحي الإمبراطورية الآسيوي والأوروبي في دولة موحدة واستطاع القضاء على الفتن والإنشقاقات الداخلية وتوحيد الصف ، واستطاع إرجاع معظم مساحة الدولة على عهد أبيه ، حيث كانت عام ٩٤٣ ألف كم عام ١٤٠٢م ، ثم أصبحت عام ١٤٢١م حوالي

٨٧٠ ألف كم .[٤٨] واستطاع تمهيد الطريق لمن خلفه من سلاطين لبنـــاء قوة عسكرية لا تقهر في البر والبحر، ومواصلة استراتيجية الجهاد التـــي قامت عليها الدولة . لقد استطاع تحقيق كل ذلك في أقل من عشر سنوات ، بعد أن كانت الدولة العثمانية في طريقها الي الزوال .

مراد الثاني (**١٤٢١ – ١٤٥١م**) :

تولى السلطان مراد السلطة بعد موت أبيه عام ١٤٢١م وهو يبلـــغ مـــن العمر سبعة عشر عاما ، وله أربعة من الأخوة يصغرونه سناً ، وما لبث أن امتلك زمام السلطة فتكالب عليه الطامعون في الحكم نظراً لصغر سنه ، ولكنه أثبت منذ سنواته الأولى أنه جدير بمنصبه ، فلقد استطاع القضاء على مناوئيه وفرض سيطرته على كل أراضـــي الامبراطوريـــة عـــام ١٤٢٣م . ولقد استغلت بعض الدول المسيحية إنشغال الســلطان مـــراد بالقضاء على الفتن ، وتمكنت من مد نفوذها في الأراضي العثمانية على الجانب الأوروبي .

بدأ السلطان مراد إكمال سياسة والده ، التي تهدف لإعادة النفوذ العثمانى لما كان عليه ، ومعاودة الفتح العثمانى لبلدان شرق أوروبا ، لذلك أعـــاد العاصمة ومقر الحكم الي أدرنة مرة أخرى ، مما يشير الي رجوع سياسة الدولة إلي سابق عهدها ، ويشير أيضاً إلى شبه تعافى للدولة من كارثتها السابقة ، وما لبث أن اتجه السلطان فوراً إلي حصار القسطنطينية وكـــان ذلك عام ١٤٢٢م ، ولكن من الواضح أنه قد أسرع باتخاذ هذا القرار، قبل أن يطمئن تماماً إلي استتباب أوضاع دولته ، سواءً في أوروبا أو علـــى الجانب الآسيوي ، لذلك اضطر إلي فك هذا الحصـــار بعـــد شـــهرين ، ليقضي على التمرد الذي قام به أخيه الأصغر مصطفى بمعاونة العديد من الأمراء التركمان ، وبالقضاء على هذا التمرد أحكم قبضته تمامـــا علـــى أراضي الأناضول .[٤٩]

بعد ذلك وجه السلطان وجهه شطر أوروبا ، عازماً على القضاء على الدولة البيزنطية ، لكنه ما لبث أن عقد مع الامبراطور البيزنطى مانويل الثانى Manuel II (١٣٩١ – ١٤٢٥م) إتفاقية سلام وكان ذلك عام ١٤٢٤م ، فكان سلاماً يستند إلي القوة، حيث فرض السلطان شروطه كاملة على الإمبراطور ، فتسلم السلطان بناء على ذلك المدن الواقعة على البحر الأسود ، بالاضافة إلي جزية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف قطعة فضة، وبذلك عادت بيزنطة إلي التبعية العثمانية ، والتي ظلت على هذا الوضع حتى نهايتها .(٥٠) ويرجع البعض هذا السلام الي تخوف السلطان مراد من تسليم القسطنطينية إلي البنادقة كما فعلوا بسالونيك والمورة عام ١٤٢٣م.(٥١)

أراد السلطان بعد ذلك إبعاد النفوذ البندقي من خطوط السواحل المؤدية مباشرة الي الأملاك العثمانية في البلقان ، وخاصة بعد استيلائهم على كثير من الأملاك البيزنطية لاسيما سالونيك والمورة ، لقد رأى العثمانيون أن سيطرة البندقية على الممرات المؤدية للبحر الإيجي تهدد باستمرار المواصلات بين الأناضول والروملي ، أي أنها تقف حجر عثرة في التوحيد الكامل لشطرى الإمبراطورية ، وفي نفس الوقت خشى البنادقة من سيطرة العثمانيين على أجزاء هامة من ممتلكاتهم ، والتى لعبت دورا هاما في مصالحهم التجارية.(٥٢)

ومن خضم هذا التنافس والصراع قامت حرب استمرت طوال خمس سنوات بين البندقية والدولة العثمانية ، انتهت تقريبا باستيلاء العثمانيين على مدينة سالونيك ذات الموقع الهام للمرة الثانية والأخيرة عام ١٤٣٠م. وفي ذلك الصراع كانت قوة البندقية تتركز في البحر ، لذلك استطاعت الحفاظ على قواعدها الساحلية بالإعتماد على أسطولها المخضرم ، ولم تتمكن القوات العثمانية المعتمدة على القوات البرية منافسة البندقية من هذه

الناحية ، فقد كان الأسطوال العثمانى أسطولاً ناشئاً ، لم يكن ذو فاعلية حقيقية أمام قوة بحرية مثل البندقية .

مع ذلك استطاع العثمانيون انتزاع سالونيك بقوة من أيد البنادقة ، واتبعوا بعد ذلك سياسة تميل إلي الهجوم في البلقان ، وأرادوا بذلك تأمين حدود الدولة عند نهر الدانوب Danuvius ، وإخضاع هذه المناطق للحكم العثمانى المباشر، ليتم لهم السيطرة على جميع الأراضي الواقعة جنوب النهر ، ولكن اعترضهم في تنفيذ ذلك النفوذ المجرى في كل من الصرب والبوسنة وولاشيا ، فكانت تلك الدويلات منذ ذلك الوقت منحصرة بين النفوذ العثمانى والمجرى .

ومنذ ذلك الحين حاول السلطان مراد بما أوتى من قوة ، إخضاع هذه المناطق ومد النفوذ العثمانى إليها نهائياً ، بواسطة غارات مستمرة خاصة بعد عام ١٤٣٢م ، وانتهز السلطان موت حاكم المجر عام ١٤٣٧م ليكثف جهوده في هذه المنطقة ، وفي عام ١٤٣٩م استطاع احتلال الصرب وجعلها ولاية عثمانية ، وفي العام التالي هاجم بلجراد Belgrade قلعة المجر الرئيسية آنذاك .(٥٣)

وفي ذلك الوقت أعلن البابا أوجينوس عام ١٤٣٩م الحرب الصليبية ضد العثمانيين، في نفس الوقت الذي أعلن فيه لاديسلاس Ladislaus ملكاً على المجر وبوهيميا ، هكذا تشكلت شمال نهر الطونة (الدانوب) كتلة كاثوليكية قوية ، إمتدت إلي ملدافيا (البغدان) Moldova التي تقع تحت سيادتها من البلطيق الي البحر الأسود .

وظهر كذلك في هذه الآونة أكبر عسكري مسيحي في عصره وهو هونيداي Hunyadi ، حيث كان كاثوليكيا متعصبا ، هدفه الوحيد إخراج الأتراك من البلقان ثم من أوروبا كلها ، وفي تلك الآونة بالذات

ظهرت تمردات في الأناضول اقتضت رجوع السلطان مراد إليها بسرعة، فأفسحت المجال هنالك للقوات المجرية بقيادة هونيداي للتوغل في البلقان بنجاح بين عامي ١٤٤١ – ١٤٤٢م ، حتى انهم أرغموا السلطان مراد على عقد معاهدة أدرنة عام ١٤٤٤م ، التي أعيد بمقتضاها تنظيم الصرب كدويلة حاجزة ، ووافق المجريون على مغادرة الأراضي البلغارية وعلى عدم عبورهم الدانوب ، وأقسم على احترام المعاهدة الملك الذي أقسم على الانجيل والسلطان الذي أقسم على القرآن الكريم ، والتزما بعدم مخالفتهما شروط هذه المعاهدة ماداما على قيد الحياة .(٥٤)

وفي تلك الأثناء أكمل السلطان مراد عامه الأربعين وكان قد اطمئن على استقرار دولته وهدوئها النسبي ، فلم يتردد في التنازل عن العرش لابنه وولي عهده السلطان محمد الثاني (الفاتح) ، الذي لم يتجاوز بعد اثني عشر عاما . لقد أراد الإنقطاع للعبادة كما يقول المؤرخون ، ولكنه في ذات الوقت أراد أن يهئ ابنه تهيئة فعلية بتوليه زمام الأمور في مرحلة مبكرة من عمره ، لاكتساب الخبرة وامتلاك الحزم والثقة والقدرة على اتخاذ القرار ، ولم يبتعد مراد تماما ووضع حول السلطان الجديد رجالاً أكفاء يثق في مشورتهم ورأيهم ، وقد أدى هذا بالفعل إلي النضج المبكر للسلطان محمد الثاني .

أدرك البابا أن الصلح الذي تم ، لم يكن إلا تعطيلاً لخططه بالكلية ، بالإضافة إلي انتهازه فرصة تخل السلطان مراد عن العرش فحث المجريين على نقض الصلح ، على اعتبار أن العهود التي تعطى لغير المؤمنين لا تلزم أصحابها ، فلم يكن من المجريين إلا أن غزوا البلدان البلقانية ، وتقدموا على شواطئ البحر الأسود ، واتصلوا بأسطول البندقية في جاليبولي.(٥٥)

والجدير بالذكر أن الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثامن John VIII (١٤٢٥ – ١٤٤٨م) ، قام بمجهودات كبيرة في محاولة توحيد الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية ، وذلك لضمان مساعدة الغرب الأوروبي لبيزنطة المتداعية ، والتى توشك على السقوط في أيد العثمانيين ، فتوحيد الكنيستين سيسمح أيضاً بتوحيد كل القوى الأوروبية ضد الخطر الاسلامى، على الرغم من أن شعب القسطنطينية ورجال الكنيسة الأرثوذكسية قابلوا تلك المحاولات باستياء شديد ، وتمسكوا بمذهبهم الذي عانى أهله كثيرا بسبب اضطهاد الكاثوليك اللاتين ، بالإضافة إلي الإعتقاد أن الغرب الأوروبي كان يعمل على القضاء على الدولة البيزنطية ، ليتم له محو معقل الكنيسة الأرثوذكسية ومن يحميها من العناصر البيزنطية .(٥٦)

لقد تسببت محاولات الإمبراطور المستمرة في شعور العثمانيين بذلك الخطر الذي يتهددهم إذا تم توحيد الكنيستين ، فكانوا يعملون منذ ذلك الوقت بكامل طاقتهم ، في سبيل سرعة القضاء على الدولة البيزنطية ، واحتلال القسطنطينية التي أصبح وجودها يمثل تهديداً مباشراً للمصالح العثمانية .

لقد أصبح الوضع خطيراً ، لاسيما وأن الجيش الصليبي لم يهجم على الأملاك العثمانية في أوروبا فقط ، بل أيضا استطاع أن يصل إلي الأناضول بمساعدة الاسطول البندقي ، ولم يدر بخلد قائد ذلك الجيش أبدا أن السلطان مراد هو الذي سيتصدى له ، بل ظن أن الطفل الجالس على العرش لن يستطع حتى بمساعدة مستشاريه فعل أي شئ .

اجتمع في ذلك الوقت مجلس شورى السلطنة في أدرنة ، واتخذ قراراً بلغه الوزير الأعظم جاندارلي باشا إلي السلطان محمد الثانى كان نصه :

(لا يمكننا الرد على مقاومة العدو اللهم إلا إذا اعتلى والـدك السـلطان مكانك . أرسلوا والدكم ليجابه العدو وتمتعوا براحتكم . تعـود السـلطنة إليكم بعد اتمام المهمة).

فأرسل السلطان محمد فوراً إلي والده المتواجد في مغنيسيا ، غير أن مراد الثاني تحاشيا لكسر سلطان ابنه ، أبلغه أن الدفاع عن دولته من واجبـات ذاته السلطانية ، فكتب السلطان محمد إلي والده قائلاً : (إن كنـا نحـن البادشاه فإننا نأمرك : تعالوا على رأس جيشكم ، وإن كنتم أنـتم فتعـالوا ودافعوا عن دولتكم).(٥٧)

تحرك السلطان مراد فوراً مع جنوده من الأناضـول ، ويقـول بعـض المؤرخون أنه استطاع العبور إلي أوروبا بمسـاعدة السـفن الجنويـة ، وانضم الي قوات أخرى انتظرته على الجانب الأوروبي ، وأياً كان الأمر فالمؤكد أنه استطاع الوصول على رأس قواته ، لمجابهة الجيش الصليبي الذي لاقاه بالقرب من مدينة (وارنة) البلغارية الواقعة على البحر الأسود وكان ذلك في نوفمبر عام ١٤٤٤م ، وأمر السلطان مـراد أثنـاء سـير المعركة أن ترفع المعاهدة التي تم انتهاكها على أسنة الرماح ، فزاد ذلك من حماس الجند وانتصر السلطان مراد انتصاراً ساحقاً.(٥٨)

وكان هذا الانتصار بمثابة قضاءً شبه نهائياً على قوات المجر، المنـافس القوى للعثمانيين في البلقان . لم يكتف السلطان مراد بهذا الانتصار الكبير الذي دعم موقف دولته كثيرا في أوروبا ، بل أراد أن يستغله في إحـراز انتصار حاسم آخر ، من شأنه أن ينهى كل المحاولات المسـيحية ضـد العثمانيين في أوروبا ، وأن ينهى الصراع ويحسم الأمر فـي البلقـان ، خاصة وأن الحكام المحليين قد تمردوا خـلال الأزمـة الأخيـرة عـام ١٤٤٤م.

هكذا قام السلطان مراد منذ عام ١٤٤٦م بحرب متواصلة ، إستطاع من خلالها مد النفوذ العثمانى إلي المورة والإنتصار على المتمردين الألبان ، وتأكيد الحكم العثمانى في الصرب ، واستأنف سياسته القديمة من حيث التوسع ، ولقد بلغت تلك السياسات قمة النجاح عندما هزم هونيداى في معركة كوسوفو أو (قوصوه الثانية) عام ١٤٤٨م.(٥٩) تلك المعركة الدامية التي استمرت ثلاثة أيام ، وانتهت بفوز ساحق للعثمانيين ، وقد أخرجت هذه المعركة بلاد المجر لعشر سنوات على الأقل من عداد الدول التي تستطيع النهوض بعمليات حربية هجومية ضد العثمانيين.(٦٠)

وكان لدوى هذه الإنتصارات صدى كبير في أرجاء العالم الاسلامى ، خاصة في مصر ، حيث أوفد السلطان مراد الثانى عام ١٤٤٥م على أثر معركة وارنة أميراً كبيراً ومعه جماعة من الأمراء الذين انكسروا في الحرب بهيئتهم التي أسروا بها ، ويذكر ابن اياس عن يوم دخولهم أنه كان أعظم من يوم المحمل(٦١) ، وعندئذ أمر السلطان المملوكى جقمق بتلاوة اسم السلطان مراد تقديراً له بعد إسم الخليفة العباسي، والدعاء لأرواح الشهداء العثمانيين في الأقطار المملوكية ، وأقيمت الإحتفالات بهذا النصر في مصر . ويدلنا ذلك على مدى المكانة التي وصل إليها العثمانيون في العالم الاسلامي في تلك الفترة ، بسبب جهادهم المستمر ضد الصليبيين ، مما سيكون له عظيم الأثر فيما بعد على النفوذ الروحي للعثمانيين ، وما تبعه من نفوذ فعلى في العالم الاسلامي أولاً والعالم العربي ثانياً .

وبانتهاء معركة قوصوه الثانية انتهت المحاولة الصليبية السادسة والأخيرة في سلسلة محاولات إخراج العثمانيين من البلقان ، ولقد تحولوا بعد ذلك

من موقف الهجوم الي موقف الدفاع . وقد توقفت أوروبا بعد واقعة كوسوفا لعصور طويلة عن التفكير في إخراج العثمانيين من جنوب الدانوب(٦٢) . وكان هذا الإنتصار خاتمة عظيمة لحياة السلطان مراد السياسية والعسكرية ، إذ توفى عام ١٤٥١م وخلفه ابنه السلطان محمد الفاتح .

لقد كان عهد مراد الثانى خاتمة مرحلة كبرى في التاريخ العثمانى ، مرحلة كانت فيها الدولة العثمانية في صراع يؤكد حقها في الوجود على الساحة الدولية ، خاصة الأوروبية ، وهذا ما وقف في سبيله كثيراً التحالفات الصليبية كما رأينا ، لكن الدولة العثمانية في نهاية هذه المرحلة الهامة أكدت فيما لا يدع مجالا للشك في كونها دولة إسلامية قامت على أساس جهادى ، أضفى علي وجودها نوعاً من الشرعية حظى بعطف واقرار العالم الاسلامي ، بما فيه الخليفة العباسي الراعي الروحى للمسلمين في تلك الفترة . لكن هذه المرحلة لم تكن إلا مرحلة مبدئية ، كانت بمثابة أساساً صلباً وركيزة قام عليها بعد ذلك البنيان الحقيقي للدولة، التي أصبحت في المرحلة الثانية تسير نحو العالمية بخطاً وئيدة .

وقد أجمع الكثير من المؤرخين على أن حكم السلطان مراد الثانى كان حداً فاصلاً في تاريخ الامبراطورية العثمانية في كثير من النواح ، والتي دفعت الدولة دفعاً إلي معترك الصراع العالمي والمنافسة على الصدارة .

يقول شوجر : (إن خلاصة هذه التنظيمات – التي نظمت في عهد مراد الثانى – نشوء نسيج عثمانى من عناصر مختلفة تركية وإسلامية وبيزنطية وحتى عربية في بناء دولة بناءً متكاملاً لدرجة تدعو للإعجاب).(٦٣)

فمن الناحية الحربية استطاع الحصول على أفضل سلاح لــدى أعدائـــه (المدفع والبندقية) ، وإدخال أسلوب حصار المعســكرات مــن الجهــات الأربع بواسطة العربات التى تجرها الخيول وأسلوب المناورة ، مما كان له عظيم الأثر فيما بعد على أسلوب الجــيش العثمـــانى واســـتراتيجيته الهجومية والدفاعية ، وقد استعمل المدافع الضخمة لأول مرة في حصار القسطنطينية خلال عام ١٤٢٢م ، واستعمل البندقية لأول مرة في معركة وارنة عام ١٤٤٤م ، بالاضافة حروبه مع البندقية التي ساعدت كثيراً في تطوير وتحديث الأسطول ، الذي سيكون له شأن كبيــر فـــي الحـــروب العثمانية فيما بعد .

ولقد كان عهد مراد الثانى مهماً أيضاً بالنسبة للتطور الاقتصادى ، فقــد تطورت التجارة ونمت المدن العثمانية بشكل واضح كبروسة وأدرنـــة . وهكذا فقد سجل الرحالة بروكيير Bracquiere ، أن الــدخل الســـنوي للدولة العثمانية بلغ حوالي مليونين وخمسمائة ألف دوقية ، وهـــو مبلـــغ ضخم لو استغله مراد لاستطاع فتح أوروبا بسهولة، وهذا مـــا ســـيمكن السلطان محمد الثانى إتمام معظم خططه التى أرادها بالنسبة للدولة.[٦٤]

أما بالنسبة للحياة الثقافية فقد كان عصر السلطان مــراد أساســاً اتخـــذه السلاطين في رعاية الشعراء والكتاب والعلماء ، وفي ظله ظهرت أولـــى المؤلفات المسهبة في اللغة التركية ، وكانت الترجمة أساساً لأقدمها مـــن غير شك.[٦٥]

هوامش الفصل الأول

١- على الصلابي ، محمد الفاتح وعوامل النهوض في عصره ، مكتبة الايمان بالمنصورة ، ص ٣٢ .

٢- على الصلابي ، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، دار التوزيع والنشر الاسلامية ، الطبعة الأولى عام ٢٠٠١م ، ص ١٤٨

٣- أحمد آق كوندز ، الدولة العثمانية المجهولة ، وقف البحوث العثمانية عام ٢٠٠٨م ، ص ٥٠

٤- المرجع السابق ، على الصلابي ، الدولة العثمانية الخ ، ص ٤٧

٥- المرجع السابق ، أحمد كوندز ، الدولة العثمانية المجهولة ، ص ٢٦

٦- المرجع السابق ، ص ٥١ : ٥٦

7- Halil Inalcik, The Ottoman Empire, Organization and economy (collected studies), variorum reprints, London 1985, P. 78 – 80

٨- انظر : حسن الضيفة ، الدولة العثمانية الثقافة المجتمع السلطة ، دار المنتخب العربي – بيروت ، الطبعة الأولى عام ١٩٩٧م ، ص ٥٦ : ٦٤

٩- بيتر شوجر ، أوروبا العثمانية ، ترجمة د. عاصم الدسوقي ، دار الثقافة الجديدة ، الطبعة الأولى عام ١٩٩٨م ، ص ١٩

١٠- بسم الله الرحمن الرحيم (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين .. واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل .. ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين .. فإن انتهوا فان الله غفور رحيم .. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) الآية .

١١- المرجع السابق ، شوجر ، أوروبا العثمانية ، ص ٢١

١٢- أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التـاريخ العثمـاني ، دار الشروق ، الطبعة الثانية عام ١٩٨٦م ، ص ٣٧

13- H. A . Gibbons, Foundation of the Ottoman Empire, History of The Osmanlis, 1300 – 1403, Oxford, P. 20 : 50

١٤- المرجع السابق ، أحمد عبد الرحيم ، في أصول التاريخ العثمانى ، ص ٤٨ : ٥٠

١٥- كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة : نبيه أمـين فارس و منير البعلبكي ، دار العلم للملايين – بيـروت ، الطبعـة الخامسة عام ١٩٦٨ ، ص ٤٠٩ ، ٤١٠

١٦- المرجع السابق ، أحمد كونـدز ، الدولـة العثمانيـة المجهولـة ، ص ٦٤

١٧- المرجع السابق ، بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٤١٠

١٨- خليل اينالجيك ، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء الي الانحـدار ، ترجمة د. محمد . م . الأرناؤوط ، دار المدار الاسلامي ، الطبعة الأولى عام ٢٠٠٢م ، ص ١٦

١٩- اسماعيل أحمد ياغي ، الدولة العثمانية فـي التـاريخ الإسـلامي الحديث ، مكتبة العبيكان ، الطبعة الثانية عام ١٩٩٨م ، ص ٢٥

20- Nicol Donald, The last Centuries of Byzantium 1261- 1453, Cambridge university press, reprinted 2002, P. 253 : 260

٢١- يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، الجزء الأول ، ترجمـة : عدنان محمد سليمان ، منشـورات مؤسسـة فيصـل للتمويـل – استانبول ، الطبعة الأولى عام ١٩٨٨م ، ص ٩٦ .

٢٢- المرجع السابق ، خليل اينالجيك ، تاريخ الدولة العثمانيـــة الـــخ ، ص ١٦

٢٣- المرجع السابق ، أحمد عبد الرحيم ، في أصول التاريخ العثماني ، ص٤٠

٢٤- المرجع السابق ، اسماعيل ياغي ، الدولة العثمانية الخ ، ص ٣٨

٢٥- المرجع السابق ، أحمد عبد الرحيم ، في أصول التاريخ العثماني ، ص ٤٨ ، ص ٤٩

٢٦- المرجع السابق ، شوجر ، أوروبا العثمانية ، ص ٣٣

٢٧- المرجع السابق ، ص ٣٤

٢٨- صوفيا : هي عاصمة بلغاريا الحالية .

٢٩- سالونيك : هي مدينة رومية قديمة تقع جنوبي بلاد مقدونيا ، أسسها الاسكندر المقدونى ، تقع في اليونان حاليا . موناســتير ، برليــه ، استيب : يقعوا في الاتحاد اليوغوسلافي السابق .

٣٠- محمد فريد بك المحامى ، تاريخ الدولـــة العليـــة العثمانيـــة ، دار النفائس ، الطبعة الأولى عام ١٩٨١م ، ص ١٣٣

٣١- (قوصوه) أو (كوسوفا) : تعنى ساحة الطيور السوداء ، والجـــدير بالذكر أن هذه المعركة اعتبرها سكان الجبل الأسود كارثة قومية ، حتى أنهم ظلوا يضعون على قلنسواتهم شريط حداد أســود حتــى تخلصوا من الحكم العثمانى . انظر : أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في اصول التاريخ العثمانى ، ص ٤٩

٣٢- المرجع السابق ، يلمـــاز أوزتونـــا ، تـــاريخ الدولـــة العثمانيـــة ، ص ١٠٠، ١٠١

٣٣- يروى أن السلطان مراد قد سمع قبيل المعركة في دعاء طويل يستجلب به رحمة الله ونصره ، ويتمنى فيه الشهادة ومن هذا الدعاء (يا إلهى ، إننى أقسم بعزتك وجلالك أننى لا أبتغى من جهادى هذه الدنيا الفانية ولكننى أبتغى مرضاتك ، ولا شئ غير رضاك يا إلهى ، إننى أقسم بعزتك وجلالك أننى في سبيلك ، فزدنى تشريفا بالموت في سبيلك) انظر : على الصلابي ، الدولة العثمانية الخ ، ص ٦١

٣٤- محمد حرب ، العثمانيون في التاريخ والحضارة ، المركز المصري للدراسات العثمانية ١٩٩٤م ، سلسلة دراسات عثمانية (١) ، ص ١٥ ، ١٦

٣٥- المرجع السابق ، يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٠٢

٣٦- المرجع السابق ، ص ١٠٣ ، ١٠٤

٣٧- المرجع السابق ، شوجر ، أوروبا العثمانية ، ص ٣٧

٣٨- المرجع السابق ، بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٤١٩ ، ٤٢٠

٣٩- المرجع السابق ، شوجر ، أوروبا العثمانية ، ص ٣٧

٤٠- عبد الرازق الطنطاوى القرموطى ، العلاقات المصرية العثمانية ، الزهراء للعلام العربي ، الطبعة الأولى عام ١٩٩٥م ، ص ٤١ ، ٤٢

٤١- تيمورلنك : قائد مغولى ، ولد عام ٧٣٦ للهجرة / ١٣٣٦م جنوبي سمرقند (أوزباكستان الحالية) ، وهو من سلالة جانكيزخان المغولى إلا أنه اعتنق الاسلام ، حاول تيمورلنك إعادة مجد المغول ، بدأ

بالتوسع من سمرقند فنجح في الإستيلاء على خوارزم عام ١٣٧٩م ثم خراسان ، وباكستان وأفغانستان ثم أذربيجان ، واستولى على فارس ثم أصفهان التي بلغ عدد القتلى فيها من جراء غزوه حوالي سبعين ألفاً ، وبعد إخضاعه فارس وإيران اتجه إلي العراق فخربها، وواصل سيره فخرب دياربكر وبلاد أرمينية وجورجيا ، ثم اتجه بعدها الي الشرق مرة أخرى فاحتل دلهى ودمرها عن آخرها ، ثم رجع الي سمرقند ، إلا أنه لم يمكث فيها طويلا وعاد للغزو ، فدمر حلب ودخل دمشق وأحرقها ، حتى أصبحت أطلالا ، ثم اتجه الي طرابلس وبعلبك ودمرهما ، ثم دمر بغداد عن آخرها وقتل بها أكثر من مائة ألف مسلم ، ثم اتجه لملاقاة الدولة العثمانية ، حيث هزم السلطان بايزيد في موقعة أنقرة عام ١٤٠٢م ، فوقعت أملاك الدولة العثمانية في آسيا بين يديه وما لبث أن مات بعد ذلك بقليل أثناء غزوه للصين عام ١٤٠٥م ، بعد أن دانت له البلاد من دلهى إلي دمشق ، بعد مماته ذهبت إمبراطوريته التي بناها على القتل والتدمير أدراج الرياح ، وقسم ما بقى منه بين أولاده . انظر : ابن عربشاه ، عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ترجمة وتحقيق : أحمد فايز الحمص ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، عام ١٩٨٦م .

٤٢- المرجع السابق ، يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١١٠

٤٣- زبيدة عطا ، الترك في العصور الوسطى ، دار الفكر العربي ، ص ١٧٩ .

٤٤- المرجع السابق ، أحمد عبد الرحيم ، في أصول التاريخ العثماني ، ص ٦٠ ، ٦١

٤٥- محمود محمد الحويري ، تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات ، الطبعة الأولى عام ٢٠٠٢م ،ص١٠١

٤٦- المرجع السابق ، محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية ، ص ١٤٩

٤٧- المرجع السابق ، بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٤٦٨

٤٨- المرجع السابق ، يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١١٩

49- John E. N. Hearsey, City of Constantine, London, Murray 1963, P. 232

50- George Ostrogorsky, History of The Byzantine State, Translated from the German by Toan Hussey, Reutgers University press 1997, P. 529

٥١- المرجع السابق ، خليل اينالجيك ، تاريخ الدولة العثمانية الـخ ، ص ٣٤

52- S. J. Shaw, History of The Ottoman Empire and modern Turkey, Cambridge 1976, Vol. 1, P. 47, 48

٥٣- المرجع السابق ، شوجر ، أوروبا العثمانية ، ص ٤٤

٥٤- المرجع السابق ، يلماز أوزتزنا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٢٥،١٢٤

٥٥- المرجع السابق ، بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٤٢٨

56- Shaw, op. cit, P.50

٥٧- المرجع السابق ، أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٢٦

58- Ostrogorsky, op. cit, P. 50

٥٩- المرجع السابق ، شوجر ، أوروبا العثمانية ، ص ٤٥

٦٠- المرجع السابق ، إسماعيل ياغي ، الدولة العثمانية الخ ، ص ٤٧

٦١- المرجع السابق ، عبد الرازق القرمــوطى ، العلاقــات المصــرية العثمانية ، ص ٥٦ ، نقلاً عن ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور .

٦٢- المرجع السابق ، أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٢٩

٦٣- المرجع السابق ، شوجر ، أوروبا العثمانية ، ص ٤٥

٦٤- المرجع السابق ، إينالجيك ، تاريخ الدولة العثمانية الخ ، ص ٣٨ ، ص ٣٩

٦٥- المرجع السابق ، بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٤٢٩

الفصل الثاني

المرحلة الثانية (١٤٥١ – ١٤٨١م)

نحو دولة إسلامية عالمية ١

- **محمد الثاني (١٤٥١ – ١٤٨١م)**
- **فتح القسطنطينية .**
- **استراتيجية التوسع بعد فتح القسطنطينية .**

الفصـــل الثـانـــي

المرحلـة الثانيـة (١٤٥١ـ ١٤٨١م)

نحـو دولـة إسلاميـة عالميـة ١

تمهيد :

تشتمل هذه المرحلة على فترة حكم السلطان محمد الثاني (١٤٥١ – ١٤٨١م) ، لقد مثلت هذه الفترة مرحلة انتقالية في تاريخ الدولة العثمانية ، وكانت أساسا لتحولها من مجرد دولة آسيوية إسلامية جهادية تصارع من أجل البقاء وتوسيع دائرة تواجدها ونفوذها في أوروبا ، إلي دولة تتجه الي تأسيس نظام العالم ، وقد ذكرت بعض المصادر إطلاق لقب حاكم العالم على السلطان محمد الفاتح ، خاصة بعد فتح القسطنطينية ، وتجدر الإشارة هنا أن هذا اللقب لم يكن لقبا شرفياً بل كان لقبا فعلياً يدل على توجهات الدولة في ذلك الوقت ، ويدل على ذلك أيضا بعض ألقاب السلاطين اللاحقين خاصة السلطان سليم الأول (١٥١٢– ١٥٢٠م) الذي تلقب بخاقان الأرض وسلطان البر والبحر، والسلطان سليمان الأول الذي تلقب بسلطان العالم .

مما لا شك فيه أن فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م الذي يعد أبرز أحداث هذه الفترة ، قد أدى إلي تغيير استراتيجيات الدولة العثمانية وسياساتها نحو التوسع ، فقد أثبت فتح القسطنطينية للعالم أجمع أن الدولة العثمانية قد انتقلت إلي مرحلة جديدة ، ستكون من خلالها قادرة على تكوين دولة عالمية تسيطر على أهم أجزاء العالم القديم ، التى سيطرت عليها الإمبراطوريات الكبرى منذ فجر التاريخ . هكذا بدأ العالم يتعامل مع دولة جديدة ، هى وارثة الإمبراطورية البيزنطية في أوروبا ، والسلاجقة العظام في آسيا ، ثم وارثة الدولة المملوكية وقواعدها في افريقيا والشام والجزيرة ، وبدأ حاكم الدولة العثمانية يتعامل مع باقى الحكام وسفراء

الدول وغيرهم من منطلق تبعيتهم وخضوعهم لشخصه ، أي الهيمنة الكاملة .

لم تكد تنتهى هذه المرحلة إلا وقد سيطرت الدولة تماماً على الحلقة الرابطة بين قارتى آسيا وأوروبا ، و السيطرة التامة على البحر الأسود وغلقه تماما ، والإستئثار بالتجارة العابرة بين آسيا وأوروبا من الناحية الشرقية ، وتغيير الخريطة السياسية والإقتصادية لكثير من دول القارة الأوروبية ، وتقويض الدور التجارى الهام لجمهوريات إيطاليا البحرية مثل البندقية وجنوة ، هذا فضلا عن بداية الدور البحري للدولة ، والتى استطاعت من خلاله السيطرة على بحر إيجه وجزره ، لتأمين الإتصال بين جناحى الإمبراطورية ، لقد وضعت هذه المرحلة بالفعل الركائز الكبرى التى ستسير عليها الدولة حتى تصل إلي ذروة تفوقها الإقليمي والعالمى .

لقد أدت هذه المرحلة من التاريخ العثمانى إلي التأثير في مجريات الأمور واستراتيجيات العالم الكبرى ، لقد أدت بالفعل إلي إنهاء العصر الوسيط وبداية العصر الحديث ، لقد أجمع المؤرخون على أن عام سقوط القسطنطينية هو بداية التاريخ الحديث ، لم يكن هذا الإجماع لمجرد أهمية الحدث ، بل لأن سقوط القسطنطينية الممثلة العظمى لمدن العصر الوسيط من كافة النواحى بتلك الطريقة ، لم يعن سوى سقوط أنظمة و استراتيجيات العصور الوسطى بأسرها ونهائيا واستبدالها بأنظمة واستراتيجيات جديدة ، تكون قادرة على مواجهة النظام العالمى الجديد واستراتيجياته المستحدثة من قبل العثمانيين .

لقد انهارت الأساليب التقليدية في الدفاع والهجوم ، وشكل المدينة وطريقة تحصينها باختصار لقد انهارت مدينة العصر الوسيط . هذا فضلا عن أن

انهيار الإمبراطرية البيزنطية أحد معالم ذلك العصر ، قد أدى إلي انهيار الشكل التقليدي الدينى في السيطرة على الشعوب الأوروبية و في التبعية للكنيسة ، وبدأت تحل محله بالتدريج النظم الأوروبية التي استندت على العرق محل الدين ، وبدأت تبعا لذلك حركات الاصلاح الديني .

لقد انهارت الكنيسة الشرقية حامية الأرثوذكسية في القسطنطينية ، مع أن محمد الفاتح قد تعهد برعاية الكنيسة ورعاياها الأرثوذكس وبطرياركهم الأكبر ، إلا أن نفوذ الكنيسة الفعلى قد انتهى بانتقال الكنيسة الأرثوذكسية إلي موسكو ، لتصبح روسيا الراعى الأكبر للأرثوذكس وارثة النفوذ الدينى الروحى للقسطنطينية ، لقد أدى ذلك بالفعل لتغيرات سياسية كبيرة على الصعيد الدولى فيما بعد ، لقد ارتقت روسيا لتصبح زعيما للعالم المسيحي الشرقي ، مقابل دول الغرب المسيحي كاثوليكية المذهب ، وأصبحت عدواً لدوداً فيما بعد للإمبراطورية العثمانية المهيمنة على أوروبا الشرقية التابعة روحيا وعرقيا (العرق السلافى) لروسيا ، هكذا أصبحت روسيا ثم الاتحاد السوفيتى فيما بعد يشكل قوة تدخل كبيرة في العالم المسيحي الشرقي ، خاصة أوروبا الشرقية ، وأدى ذلك الي وراثة روسيا للنفوذ العثمانى في البلقان وشرق أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى وقيام الثورة البلشفية عام ١٩١٧م .

لقد غيرت بالفعل تلك المرحلة الخريطة السياسية للعالم ، وتركت بصماتها على صورة العالم وصراعاته السياسية والعرقية والدينية حتى اللحظة الراهنة.

محمد الثانى (الفاتح) (١٤٥١ – ١٤٨١م)

تولى السلطان محمد الثانى ولاية الأمر بعد وفاة أبيه عام ١٤٥١م ، وقد بلغ من العمر حوالي تسعة عشرعاما ، ولكنه فاق سنه بخبرته التي استطاع أن يكتسبها من توليه الأمر أكثر من مرة قبل ذلك ، منذ أن كان في الثانية عشرة من العمر ، بالإضافة إلي توليه إمارة مغنيسيا Amasya وهو في سن صغيرة تحت إشراف مجموعة من علماء الدين

خضع السلطان محمد لنظام تربوى صارم تحت اشراف مجموعة من علماء عصره المعروفين ، فتعلم وحفظ القرآن الكريم والحديث والفقه والعلوم العصرية من رياضيات وفلك وتاريخ ودراسات عسكرية نظرية وتطبيقية ، بالإضافة إلي اشتراكه في العديد من الحروب التي كان يشنها والده السلطان مراد ضد أوروبا ،أو التي كان يصد فيها اعتداءاتهم.(١)

كانت للنشئة الدينية التي تربى عليها السلطان محمد دوراً كبيراً في تكوين شخصيته بل كانت لها أثر كبير على من حوله ، لقد كان في كل تصرفاته سواءً في ناحية الحكم أو على الجانب الإنسانى يحقق شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم له بالصلاح والخيرية ، ولو لم يكن في آل عثمان إلا محمد الفاتح ، لكفاهم أن واحداً ممن تولى أمرهم قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لتفتحن القسطنطينية على يد رجل ، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش. (٢)

يرجع فضل تلك النشأة إلي مجموعة من أبرز علماء العصر، أهمهم الشيخ (آق شمس الدين)(٣) ، فكان ضمن العلماء الذين أشرفوا على السلطان محمد عندما تولى إمارة مغنيسيا ، ظل معه حتى فتح القسطنطينية يوجهه ويرشده ويعظه ويذكره دائما بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يبشر بالفتح ، ويحثه على أن يكون ذلك الرجل الذي مدحه الرسول في حديثه .

لم يكن آق شمس الدين فقيها وعالم دين فحسب ، بل كان عالماً مشهوراً في كثير من علوم عصره ، فله بحوث في علم النبات ، وله كتاباً في الطب باللغة التركية عن الأمراض المعدية اسمه (مادة الحياة) وأيضا

(كتاب الطب) ، كما أن له سبعة كتب باللغة العربية ، أهمها (حل المشكلات) و(دفع المتائن) و(تلخيص المتائن).[٤]

لقد كان للشيخ آق شمس الدين وتوجيهه الدينى والمعنوى للسلطان الكثير من التأثير في الناحية السياسية والحربية ، لقد جعل اهتمام السلطان الأول منصباً على إسقاط القسطنطينية ، ولقد تماشت توجيهات الشيخ مع وضع الدولة السياسي والاستراتيجي عندما تولى السلطان السلطة عام ١٤٥١م .

يقول شوجر : (كان إسقاط القسطنطينية على يد السلطان محمد الثانى يخدم كل الأسباب من حيث الطبيعة المحاربة للدولة العثمانية ، فإن الإستيلاء على تلك المدينة كان ضرورة سياسية واستراتيجية ، ذلك أن وجود قلعة مسيحية ليس فقط لرعايا الدولة المسيحية بل لكل أوروبا في وسط أراضي السلطان وفي موقع استراتيجي غاية في الأهمية ، كان أمراً يهدد أمن السلطنة في الداخل والخارج . كما أن وجود إمبراطور مسيحي وبطريرك للكنيسة داخل الدولة مستقلين عن السلطة العثمانية ، كان من شأنه أن يجعل من رعايا السلطان المسيحيين والذين كانوا يمثلون آنذاك أغلبية السكان ، عناصر للثورة المضادة ، هذا فضلا عن أن احتلال تلك المدينة الكبيرة كان من شأنه تقليل خطر الحملات الصليبية ، الذي بات أمراً واضحاً بعد مؤتمر فلورانسا ، ومن ناحية أخرى كانت القسطنطينية قد أصبحت مصدراً للمؤامرات والدسائس).[٥]

فلولا الدفعات الروحية والمعنوية لذلك الشيخ لما حدث هذا الانتصار الكبير في هذا الوقت القصير ، والدليل على ذلك ما حدث خلال حصار المدينة ، فقد اجتمع العلماء والأمراء العثمانيون وقابلوا السلطان محمد وخاطبوه قائلين (إنك دفعت بهذا القدر الكبير من العساكر إلى هذا الحصار جريا وراء كلام أحد المشايخ – يقصدون آق شمس الدين –

فهلكت الجنود وفسد كثير من العتاد ، ثم زاد الأمر على هذا بــأن جــاء العون من بلاد الفرنج للكافرين داخل القلعة ، ولم يعد هناك أمل في هــذا الفتح) .

لكن الشيخ الواثق من نصر الله أجاب متيقنا (لابد من أن يمن الله علينــا بالفتح) وتوجه بخطاب للجند كان من نتائجه أن قرر مجلــس الحــرب العثمانى المنعقد في ٢٧ مايو ١٤٥٣م قبل يومين من النصر الإســتمرار في الحرب من أجل الفتح مهما كانت النتائج.(٦)

لقد كان للشيخ آق شمس الدين دور كبير في هذا الفتح ، فكــان أول مــن ألقى خطبة الجمعة في القسطنطينية ، وكان ذلك في كنيسة آيا صــوفيا ، وكان موضوعها عن ضرورة اعمار المدينة ، وتوصية الجنــد بوصــايا الرسول صلى الله عليه وسلم عند الفتح ، من عدم اعتداء على مسنين أو تخريب للمدينة .

قال السلطان لمن حوله بعد الفتح : (إنكم ترونني فرحاً . فرحى ليس فقط بفتح هذه القلعة . إن فرحى يتمثل في وجود شيخ عزيــز الجانــب فــي عهدى، هو مؤدبي الشيخ آق شمس الدين).(٧)

هكذا استحق الشيخ آق شمس الدين لقب (الفاتح المعنوى للقسطنطينية) كما تلقبه المصادر التركية ، كما استحق السلطان محمد الثانى(٨) بشارة رسول الله وكان أهلاً لها في حروبه وغزواته ، بل وفي معاملــة أهــل الــبلاد المفتوحة بالمسامحة الجمة التى لم يستطع أن ينكرها المؤرخــون ممــن اعتدوا على شخص السلطان ، بل نسبوا اليه الكثير من الأوصاف الشائنة . لقد حاول المؤرخون الغربيون بعد فتح القسطنطينية بشتى الطرق تشويه صورة محمد الفاتح ، والتقليل من إنجازه العظيم ، وإرجاعه إلي وحشيته هو ومن معه في الجيش ، وبربريته كما ذكرت بعض المصادر لفظاً ، إن

أغلبية المؤرخين الغربيين ممن عاصروا الفتح أو من المتـأخرين ، قـد ألصقوا تهماً بشخص الفاتح وأعماله لم تثبت مطلقا بالأدلة التاريخية .

وممن عاصروا وقائع الفـتح طبيـب مـن البندقيـة يسـمى (نيقـولا باربارو)Barbaro تحدث بإسهاب في يومياته عن فتح القسطنطينية وذكر السلطان محمد ، بطريقة تنم عن الحقد الصليبي والكراهية ،التى تملكتـه كما تملكت العديد من المؤرخين الغربيين تجاه من حطم قـوتهم و تملـك مدينتهم ، فقد نعت السلطان محمد بنعوت بذيئة ، فضلا عن سبه وقذفه ، وقد اتهمه بشرب الخمر في قوله (شعر السلطان ومعه القائـد البحـرى وكافة جنوده بالابتهاج ، وبدأ الجميـع فـي الشـراب والسـكر طبقـا لعادتهم).[٩]،[١٠]

لقد كانت قوانين الفاتح (فاتح قانون نامه سى) تحرم شرب الخمر وتوقـع عقوبات جزائية لمن يقترف هذا الاثم ، وجاء نص القانون : (إن شرب أحد خمراً وكان مسلما ومن سكان المدن ، يقوم القاضي بتعذيره ، وتؤخذ منه غرامة مالية مقدارها آقجا واحدة لكل جلدتين).[١١]

لقد غالى الكثير من المؤرخين الغربيين في لصق التهم الباطلة بالسـلطان محمد ونفـى صـلاحه وتقـواه ، ومـنهم هـامرHammer وإدوارد شيبرد Edward Shepard ، ولقد سار عدد من المـؤرخين المسـلمين على منهاجهم . وأهم تلك الأباطيل المنسوبة إليه (قانون قتل الاخوة) ، مع أنه من الثابت تاريخياً انتساب العديد من القوانين التي وضعت في العهود اللاحقة إلي محمد الفاتح ، بصفته واضعاً للقوانين الأولـى فـي الدولـة العثمانية ، فلم يوجد نصاً واضحاً في الديوان الهمايونى الخاص ، يؤكـد وجود بند قانون قتل الأخوة في القوانين التى أصدرها الفاتح ، هذا فضلاً عن أن القانون الذي ينسب خطأ إلي الفاتح قد ورد فيـه لقـب (خليفـة

المسلمين) ، ومن المعلوم أن هذا اللقب قد انتقل الـــي آل عثمـــان ، مـــع سقوط مصر وتنازل الخليفة العباسي المتوكل عن الخلافة للسلطان ســـليم الأول ، أي أن أول من تلقب بهذا اللقب من آل عثمان هو السلطان سليم الأول .

فلم يرد في أية وثيقة من الوثائق الرسمية في عهد محمد الفاتح أنـــه قـــد تلقب بهذا اللقب العظيم ، كما أنه قد ورد في آخر نص القانون ، إسم نجل السلطان (باسم السلطان محمود) ، ومن المعروف أن أبنـــاء الســـلطان الذكور هم مصطفى وبايزيد وجم .(١٢)

ويذكر المؤرخ التركى أحمد كوندز ، المادة المتعلقة بقتل الاخـــوة التـــى وردت في هذه القوانين وهى : (إذا تيسرت السلطنة لأي ولد من أولادي فيكون مناسباً قتل إخوته في سبيل تأسيس نظام العالم ، وقد أجـــاز هـــذا معظم العلماء ، فيجب العمل به).

ويعقب على هذه العبارة أنها لا تتعارض مع الشرع الحنيف ، لأن مـــن المعلوم في الدين الاسلامي ، أن عقوبة العصيان أو البغى مما يؤدى إلي شق وحدة الصف هى القتل ، ويذكر أن الفقهاء الحنفيون قد أقروا عقوبة القتل عن طريق التعذير إن اقتضت تلك مصلحة العامـــة علـــى تطبيـــق الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة ، ويطلق الفقهاء على هذا (القتل سياسة) ، ويسري هذا الحكم على اللصوص والنهـــاب وقطـــاع الطـــرق وسارقي الدكاكين والمخلـــين بـــأمن المجتمـــع والمفســـدين والطـــامعين والمعاونين على نشر الفساد ، وعلى كل من يقتضي اعدامه لحفظ مصلحة العامة.(١٣)

أدرك السلطان محمد الفاتح أنه لن يستطيع تكوين دولة عالمية تهيمن على الشرق والغرب معاً ، إلا بتنظيم الدولة مدنياً وقانونياً ، هكذا وضع قانون

الدولة الأول ، الذي ظل معمولاً به إلي عهد سليمان القانونى في القــرن السادس عشر . ولقد ذكر بعض المؤرخين أن محمد الفاتح لم يأت بالجديد في هذه القوانين ، وأنها صورة معدلة ومنقولة من المؤسسات البيزنطية ، وهذا بالطبع ينافى الصحة وينافى المنطق لأن الدولة العثمانية إذا تيســر لها اقتباس شيئاً من التنظيمات والقوانين السابقة عليها كان من الأولى لها والأصلح إتخاذ الدولة السلجوقية التركية المسلمة مثالاً لهــا ، أو الدولــة العباسية من قبلها ، فهى دولة إسلامية ذات تنظيمات وقوانين عظيمــة ، فمن أين اقتبست الدولة العثمانية مراتب القضاة مثلاً ، وعلاقــة قضــاة العسكر أو شيوخ الاسلام بالسلطة الحاكمة والسلطان ، وعلاقة كل هؤلاء بالرعية ، يستحيل أن تكون أنظمة الدولة البيزنطية أساساً لهذا .

هكذا وضع محمد الفاتح القانون الأساسي الذي تماشى مع سياسة فتوحاته وتوسعاته ، إلي جانب إنجازاته الحضارية الملموسة ، على صعيد العلــم ونشره والإهتمام به ، عن طريق ترجمة الكتب والإرتقاء حضارياً بتشييد المنشآت الدينية والمدنية ، لذلك أطلقت عليه أوروبا لقب (السيد العظيم) .

يقول عنه توماس أرنولد Thomas Arnold : (اذا كان أحد السلاطين العثمانيين يستحق أعظم لقب يمنحه العالم الاسلامي ، فهــو بــلا شــك السلطان محمد الفاتح ، بعد أن أسس عاصمة الإمبراطورية العثمانية فــي القسطنطينية ، تلك المدينة المسيحية العظيمة التي كانت قد خيبت جميــع محاولات المسلمين لفتحها عنوة لقرابة ثمانية قرون) .[١٤]

فتح القسطنطينية :

تعد القسطنطينية من أهم المدن في التاريخ ، من حيث الأهمية التاريخية والإستراتيجية والموقع الجغرافى ، والأهمية الإقتصادية والتجارية . كانت قرية صغيرة للصيادين قبل أن تأخذ مكانتها الهامة في عهد الإمبرطور قسطنطينConstantine I ، الذي جعلها عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية Byzantine Empire عام ٣٣٠م ومقر الكنيسة الأرثوذكسية ، ولقد سميت باسم مؤسسها . لم تتبوء القسطنطينية تلك الأهمية الكبرى إلا من حيث موقعها الفريد ، فهى شبه جزيرة تحيطها المياه من ثلاث جهات ، لذلك اكتسبت مناعتها المعروفة ، هذا فضلا عن الحماية الصناعية[١٥] المتمثلة في الأسوار الضخمة والأخاديد المائية التى تحيط بالمدينة ، فقد تفنن الأباطرة المتلاحقون في تحصينها لحساسية مركزها وموقعها الرابط بين قارتى آسيا وأوروبا ، بالإضافة إلي أنها أصبحت بعد ذلك أهم مراكز التجارة العالمية ، فقد سيطرت على تجارة البحر الأسود ، وهى ملتقى الطرق التجارية بين آسيا حيث الطرق البرية المؤدية إلي الهند والصين ، وبين وسط وغرب أوروبا ، مما جعلها مطمعاً لقوى عديدة عبر الزمن .

هكذا طمح المسلمون منذ بداية دولتهم في تحطيم النصرانية ممثلة في القسطنطيينية[١٦] ، فكانت القسطنطينية بمثابة الدرع المنيع ، الذي منع الإسلام من الولوج إلي قارة أوروبا على مدى ثمانية قرون ، لذلك كان مشروع الخلافة الأول بعد قضائهم على دولة الفرس هو فتح القسطنطينية.

كان أول ما شغل السلطان محمد بعد توليه السلطة ، هو فتح تلك المدينة بأية وسيلة ممكنة ، فمن واقع دراسته للتاريخ علم محاولات المسلمين المستمرة لفتح هذه المدينة فضلا عن تلك القوة الكبيرة التي تمتع بها المسلمون آنذاك ، وحشدهم كل الامكانيات الممكنة ، لذلك بدأ يستعرض أسباب ذلك العجز المستمر ومحاولة تدارك الأخطاء ووضع الآليات المناسبة والإمكانيات الفائقة لحسم ذلك الأمر .

كانت أولى الخطوات الإستراتيجية الفعالة التى قام بها ، هى بنائه قلعة (روملى حصار)[١٧] – التى تطلق عليها المصادر الغربية اسم القلعة قاطعة الرقبة – في أضيق مكان من البسفور ، في مواجهة قلعة بايزيد يلدرم (أناضولى حصار) ، وبذلك استطاع إحكام الرقابة على البسفور والتحكم في الدخول والخروج .

لقد أصبح السلطان محمد الفاتح بهذه الطريقة هو المؤسس الفعلى لاستراتيجية (حصار المضايق) ، والتى أصبحت أساساً بعد ذلك في خوض المعارك الكبرى المستندة على منافذ بحرية ، خاصة عند الدول العظمى في العصر الحديث ، ومن أشهر الأمثلة على استخدامها كان في الحرب العالمية الثانية ، من قبل كل من ألمانيا وانجلترا ، فقد كانت النيران المتقاطعة للمدافع على الجانبين لا تسمح بعبور أي سفينة معادية .

لم يكتف السلطان بهذا ، بل أراد أن يضع استراتيجيات جديدة تنهى حصار المدينة في أقل وقت ممكن ، فكلما طال الوقت صعب الفتح ، فلقد حوصرت المدينة في الماضى ما يقرب من سنة دون أن تسقط ، ولم تستطع المدافع التي استخدمها والده مراد الثانى في الحصار عام ١٤٢٢م أن تفعل شيئاً ، هكذا قرر صنع المدافع بشكل مختلف ، وبناءً على ذلك توصل الي نوعين من المدافع ، تغيرت على أساسهما استراتيجية الحرب في العصر الحديث ، وهما المدافع الباليستية ضخمة الحجم ومدافع الهاون التى استعملت لأول مرة في التاريخ ، وكان لها فاعلية كبرى ضد وحدات الاسطول البيزنطى . وكان على السلطان أن يعرف حجم المقذوف الذي يستطيع التأثير في تلك الأسوار الضخمة ، فوجد أن حجم هذا المقذوف سوف يتطلب صنع مدفع ذو حجم خاص جدا لم يصنع من قبل ، لذلك استعان بصانع المدافع المجري الأصل (أوربان Urban) ، وبالفعل استطاع صنع أكبر مدفع في ذلك العصر.[١٨]

لقد وصف الطبيب البندقي نيقولا باربارو ما رآه من قوة هذا المدفع الجبار فقال : (إمتازت المدافع بكبر حجمها بشكل واضح ، وكان لأحدها حجم ضخم بشكل استثنائي ونادر ، يلقي بقذيفة يبلغ وزنها ألف ومائتى رطل ، وعندما يقوم بإطلاق القذيفة فان صوت انفجارها يجعل كافة أسوار المدينة والأرض الداخلية بها تصاب بالإرتجاج ، حتى السفن في الميناء تشعر أيضا بالاهتزاز من جراء ذلك ، وبسبب الضجة الهائلة التي أحدثها هذا المدفع فإن العديد من النسوة قد أغمى عليهن جراء الصدمة التى سببتها عملية إطلاق القذائف ، ولا يوجد مدفع أضخم من ذلك المدفع).[١٩]

أما بالنسبة للأسطول ، فكان فتح القسطنطينية نقطة فاصلة في تاريخ البحرية العثمانية إجمالاً . لقد كان وضع القسطنطينية كشبه جزيرة يفرض على السلطان الاستعانة بأسطول قوى ، كما استعانت من قبل الجيوش العربية الإسلامية في محاولاتها الأولى ، لكن الدولة العثمانية حتى عصر الفاتح لم تكن تخبر أساليب القتال البحري كما يجب ، فلم يكن لديها أسطول مدرب على رأسه قيادات بحرية* ماهرة ، كما هو الحال بالنسبة لأساطيل البنادقة والبيزنطيين المدافعة عن المدينة ، لذلك عمل السلطان محمد منذ أن بدأ في التخطيط لحصار المدينة ، على إنشاء أسطول كبير متعدد الوحدات ، يعتمد عليه في الحرب البحرية .

فكما كانت حملات العرب على القسطنطينية حجر زاوية في بناء سياسة بحرية جديدة ، وتطويراً هاماً في الإستراتيجية البحرية الهجومية للدولة العربية الإسلامية ، قوامها خلق تعاون قوى وتنسيق تام بين القوات البرية والبحرية في الهجوم والغزو[٢٠] ، كان كذلك حصار القسطنطينية وبناء خطة هجوم برية بحرية ذات تكامل وتناسق من قبل محمد الفاتح ، بدأ في تشكيل الإستراتيجيات البحرية للأساطيل العثمانية وجعلها ذات فاعلية

كبيرة وقدرة على اكتساب الخبرة في الميدان البحري بسرعة كبيرة ، إستطاعت من خلالها أن تتفوق على أساطيل الدول البحرية ، وتستولى على معظم جزر البحر المتوسط ، وهذا ما أدى بالفعل إلي تسليم الدول البحرية مثل البندقية وجنوة ، ومن بعدهم البرتغال وإسبانيا ، بالسيطرة التامة للقوات العثمانية بشكل لا ينازع فيه على الأجزاء الشرقية للبحر المتوسط ، مما أدى الي انتقال الصراع العثمانى - الأوروبي بشكل كبير إلي الأجزاء الغربية من البحر المتوسط ، فضلا عن وسط أوروبا حيث وصلت القوات العثمانية عام ١٥٢٩م الي أبوب فيينا .

يقول بروكلمان : (لكن محمد الفاتح كان أول من أورث العثمانيين السمعة التي يستحقونها في البحر أيضا).[٢١]

تختلف المصادر في تقدير عدد سفن الاسطول التركى المشترك في حصار وفتح القسطنطينية ، لكن تعداده بالتأكيد لم يكن كبيراً بالمقارنة مع الأساطيل الإسلامية التي حاصرت المدينة من قبل ، وخاصة حملة سليمان بن عبد الملك عام ٩٨ للهجرة والتى وصل فيها عدد السفن الي ١٨٠٠ سفينة ، فكان بذلك أكبر حشد من السفن عرف في العصور الوسطى[٢٢] ، كان الأسطول العثمانى مكونا من حوالي ١٤٥ سفينة طبقا لرواية بربارو[٢٣] أما دوكاس فيتحدث عن ثلاثمائة سفينة.[٢٤] .

ظل هذا الأسطول بالرغم من احتلاله للجزر الصغيرة القريبة من المدينة، بالإضافة إلي تحكمه الكامل في البوسفور Bosphorus ، أمامه عقبة كئوداً حتى يتسنى له حصار المدينة بحرياً بشكل كامل وإحكام السيطرة عليها ، لقد نصبت سلسلة حديدية ضخمة أغلقت الخليج الذي يحد المدينة من الناحية الشمالية (خليج القرن الذهبي) ، حيث يربض خلف هذه السلسة العديد من وحدات الاسطول البيزنطى ، تمكنت من حمايتها ومنع

السفن العثمانية الدخول في الخليج خلال الأيام الأولى من الحصـــار[٢٥]، كانت هذه الطريقة تستخدم كثيرا في حماية المدن البحرية فـــي العصـــر الوسيط ، فقد تحدث المقريزي عن السلسلة التى كانت تحمى مدينة دمياط الواقعة على دلتا النيل ، لتعرضها للحملات الصـــليبية خـــلال العصـــر الوسيط.[٢٦]

إستطاع السلطان محمد الفاتح ابتكار حيلة بارعة قام فيها بالتغلـــب علـــى السلسلة البحرية والسفن المرابضة خلفها دون أي اشتباكات أو خســـائر ، وكانت هذه الخطة هى الأولى من نوعها في التاريخ العســـكري ، ولقـــد أجمعت المصادر على نسبة هذه الخطة الرائعة إلـــي الـــذكاء العســـكري لمحمد الفاتح . إستطاعت هذه الخطة نقل السفن من مرساها وإنزالها خلف السلسلة عن طريق البر ، حيث كانت المسافة التـــي ينبغـــى أن تقطعهـــا السفن نحو ثلاثة أميال فوق أرض وعرة ومرتفعة .

يتحدث بربارو عن الطريقة التى سحبت بها السفن عن طريق البر، حيث قام الجيش العثمانى بتسوية الطريق وتمهيده ووضعوا به عددا ضخماً من البكرات ، التى جرى تشحيمها جيدا بالدهون والشحوم ، حتى يمكنهـــا أن تقوم بسحب السفن الي الميناء بسرعة وسلاسة ، وعندما رأى الأتراك أن الخطة قد جرى تنفيذها بشكل جيد ، أقدموا على سحب العديد من السفن ، التي كانت تحتوى على خمسة عشر مقعدا إلي عشرين أو اثنين وعشرين مقعدا للمجدفين[٢٧] ، لقد استطاعوا نقل ما يقرب من اثنتين وسبعين سفينة في ليلة واحدة ، حتى أن البيزنطيين قد فوجئوا في الصـــباح بالأســـطول العثمانى أمام الأسوار الشمالية فانهارت المعنويات تماماً ، وكان ذلك من العوامل التى أكدت سرعة النصر.[٢٨]

أما عن الجيش العثمانى الذي اشترك في الفتح فتتحدث المصـــادر عـــن تعداده الذي بلغ طبقاً لمعظم الروايات وأصحها ما بين مـــائتين ومـــائتين وثمانين ألفا [٢٩] ، كان من بينهم كل فئات الجيش العثمانى من انكشـــارية وعذب ومجاهدين متطوعين (الغزاة) استطاع السلطان محمد الـــــتأليف بين فئاتهم في تناغم وتناسق ، ساعد على حسم الحصار في مدة قصيرة .

لقد كانت فرق المشاة بالجيش العثمانى ، بالإضافة إلي الأقواس والســـهام والأسلحة البيضاء مسلحة بالبنادق ، فقد كان ذلك السلاح الجديد فعالاً كما تحدث بربارو في يومياته ، خاصة في إسقاط المقاومين من على أســـوار المدينة أثناء الإجتياح ، مما مكن الجند العثمانيين من السيطرة على النقاط الهامة المحصنة في هذه الأسوار والحيلولة دون تمكن المقاومة البيزنطية من إيقاع الكثير من الخسائر في الجيش العثمانى .

بالإضافة إلي فرق المشاة والخيالة (السباهية) ، زود الجـــيش العثمـــانى المحاصر للقسطنطينية لأول مرة بفرقة خاصة بالمدفعية (طوبجى)[٣٠] ، هكذا أعطيت المدفعية لأول مرة في التاريخ تلك الأهمية الاســـتراتيجية ، ولقد أتاحت الفرقة الجديدة داخل الجيش العثمانى الإعتماد المكثف علـــى المدفعية كسلاح حاسم في المعركة وتوظيفه بشكل فعال يتآلف مع بـــاقى فرق الجيش والاسطول ، لقد كانت هذه الفرقة نواة لجيش عثمانى أصبح الأفضل تكتيكياً وميدانياً في استخدام سلاح المدفعية في القـــرن الســـادس عشر على مستوى العالم .

لقد اشتملت فرقة المدفعية (الطوبجية) على أربع عشرة بطارية ، فـــي كل واحدة منها أربعة مدافع[٣١] ، اشتمل ذلك على المدفع العملاق الذي تم نصبه مع ثلاثة مدافع أخـــرى أمـــام بـــاب القـــديس رومـــانوس saint Romanos (وهى من أضعف نقاط سور المدينة) . لقد تحدث باربارو

عن أماكن نصب بطاريات المدافع (٣٢)، لكنه تحدث أيضاً عن تغير يطرأ على بعض أماكن تلك المدافع تبعاً لتغير خطط الهجوم علـــى المدينـــة ، بحيث تستطيع التمويه أو استغلال انشغال المقاومة في ناحية من الأسوار لرأب صدع حدث فيها ، فيتم الهجوم من ناحية أخرى بواسطة المدفعيـــة إلي جانب المشاة . وهذا إن دل فإنما يدل على وعى كامل باســـتراتيجية الجيش في الحصار والهجوم ، فضلا عن تآلف وحدات الجيش تآلفاً تامـــاً جعلها تتحرك كأعضاء شتى في جسد واحد.(٣٣)

لقد تمكن الجيش العثمانى بناءً على خطط الهجوم المسبقة ، من مباغتـــة المقاومة البيزنطية في المدينة بوسائل شتى ، كان أسلوب المباغتة الـــذي اتبعه الجيش فعال في كثير من الأحيان ،، على سبيل المثال تلك المناورة البحرية التي قام بها الأسطول للدخول الي خليج القرن الذهبى كانت مـــن أهم تلك المفاجآت ، أما الجيش فقد تحدثت العديد من المصادر عن اتباعه طرق عدة في الهجوم ، أدت الي إرباك العدو من وقع مفاجأتها ، وكـــان من بين تلك الطرق الأبراج القوية ، التي استطاع من خلالهـــا الجـــيش العثمانى الوصول إلي أعلى أبراج أسوار المدينة ، لقد اتبعت هذه الطريقة من قبل في حروب العصور الوسطى ، لكنها لم تكـــن تتميـــز بعنصـــر المفاجأة على هذا النحو الذي نراه في حصار القسطنطينية . يقول باربارو : (في ليلة الثامن عشر من مايو ، قام الأتراك ببناء برج قوى للغايـــة ، دعونى أخبركم أنه إذا ما رغب كافة المسيحيين في القسطنطينية في إقامة أي برج على هذا المستوى ، فإنهم لن يستطيعوا إقامته في شهر واحـــد ، لكن الأتراك فعلوها في ليلة واحدة . كان هذا البرج الجدير بالملاحظة يقع على مسافة عشر خطوات عن الأسوار الرئيسية للمدينة ، وتجمع أعلـــى الأسوار عدد كبير من الرجال المسلحين ، الذين ذهلوا جميعا مـــن ذلـــك البرج ، وعلى الرغم من أننى ذكرت أنه تم الإنتهاء منه في ليلة واحدة ،

فإن الحقيقة أن تشييده تم في أقل من أربع ساعات . لقد انتهوا منه بسرعة بحيث أن أولئك الرجال الذين كانوا على الأسوار لحراستها ، لم يـــدركوا أنه قد تم بناؤه سوى في الصباح ، عندما شاهدوه بعد اكتمال بنائه . حيث أصابهم الرعب والفزع).(٣٤)

لم تكن تلك الأبراج التى لها فضل كبير في استيلاء العثمانيين على المدينة هى آخر المفاجآت للجند البيزنطيين ، لقد قام الجيش العثمانى ببناء جسر قوى من البراميل الخشبية المصفوفة جنباً إلي جنب ، له سياج من الأوتاد الخشبية الداعمة القوية ، لكن لم يقرر استخدام هذا الجسر إلا عند القيـــام بالهجوم الرئيسي والنهائي ، ليكون له عامل المباغتة والحسم ، لقد كـــان على هذا الجسر أن يمتد بعرض خليج القرن الذهبي أثناء الإجتياح العام ، حتى يكون الهجوم أكثر فاعلية ، وحتى تنتشر المقاومة حول المدينة ولا تتركز عند الجانب الضعيف من الأسوار، أو الجزء المصاب جراء قذائف المدافع(٣٥) ، لكن المصادر تشير إلي عدم احتياج الأتراك الي نصب هذا الجسر أثناء الهجوم النهائي ، الذي كان سريعا وخاطفا.

من الأساليب القتالية الفعالة في تلك المعركة ، والتي أدت بالفعـــل الـــي الانهيار المعنوى التام للقوات البيزنطية المقاومة ، هو استخدام الصيحات والهتافات العالية جنباً إلي جنب مع وقع الطبول والصنج النحاسية التـــي تصم الآذان ، مما يوقع الرعب في قلوب العـــدو فضـــلاً عـــن الإيحـــاء بالأعداد الهائلة للمهاجمين . لم تكن هذه الأساليب جديدة بالنسبة للجيوش الاسلامية ، فقد كانت أولاً من وحى العقيدة الاسلامية ، لقد اتبعت جيوش الفتح الاسلامى منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم قول الله تعـــالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) الآية ٤٥ سورة الأنفال ، هكذا كان جند الفتح يكبرون ويهللون الله بصوت يلقى الرعب في قلوب الأعداء ، حتى أنه قد روى أن خالد بن الوليـــد –

رضي الله عنه – كان يقرأ سورة الأنفال كاملة في أثناء قيادته للمعركــة بصوت جهورى ، لاستنزال النصر وتحميس الجنود وإلقاء الفــزع فــي قلوب أعدائه .

لقد تحدثت المصادر التركية عن أصوات التكبير الهائلة التي كانت تصدر عن المقاتلين العثمانيين أثناء الهجوم خاصة عند الهجوم الكبير ، وتحدث دوكاس عن أن الضوضاء العالية التي كانت تصاحب تحركــات الجــيش العثمانى ، كانت تلقى الرعب في قلوب سكان القسطنطينية.[٣٦]

يقول باربارو : (لا أستطيع أن أصف الصيحات التي أطلقها الأتراك عند الأسوار وكمية الصخب والجلبة التي قاموا بها ، كل هذا ساهم في الإيحاء بضخامة عددهم بشكل أكبر من عددهم الحقيقي ، وكانت صيحاتهم قوية لدرجة أنها وصلت بعيدا حتى أناضوليا ، على مســافة ١٢ مــيلا عــن معسكرهم).[٣٧]

على الجانب البيزنطى أدرك الامبراطور قســطنطين الحــادى عشــر Constantine XI (١٤٤٩ – ١٤٥٣م) – آخر أباطرة بيزنطة – ما عزم عليه محمد الفاتح وما يقوم به من إجراءات بغية إســقاط المدينــة ، فبعث إليه يسترضيه ويحاول إثنائه عن موقفه ، فرد عليه السلطان محمد قائلاً : (إذا كان إمبراطوركم يخشى الحرب فليسلم لي القسطنطينية وأقسم أن جيشي لن يتعرض لأحد في نفسه أو ماله ، ومن شاء بقى في المدينة وعاش فيها في أمن وسلام ، ومن شاء رحل عنها وذهب حيث أراد فــي أمن وسلام أيضا).[٣٨]

هكذا بدأ الإمبراطور البيزنطى يستنجد بأوروبا النصرانية ، لكنه لم يجــد معيناً اللهم إلا بعض سفن من البندقية ، والبعض الآخر من بابا رومــا ، الذي انتهز الفرصة ليمعن في إذلال الكنيسة الشرقية ، حيث طلــب مــن

الإمبراطور دخول الكنيسة الشرقية في تبعية كنيسة روما (بمعنى إدماج الكنيستين تحت الرئاسة الكاثوليكية) ، وذلك في مقابل مساعدته ضد محمد الفاتح ، وبالفعل أقيمت الصلاة على الطريقة الكاثوليكية في كنيسة آيا صوفيا الأرثوذكسية ، معلنة إتحاد الكنيستين ، وكان ذلك في ١٢ ديسمبر عام ١٤٥٢م ، لكن هذا العمل لم يلق إلا سخط رجال الدين وعامة الشعب في القسطنطينية ، حتى أن الرجل الأول في البلاط بعد الامبراطور (لوكاس نوتاراس) صرخ قائلاً : (إنه من الأفضل لنا أن نرى في المدينة عمامة الأتراك على أن نرى قبعة اللاتين)[٣٩] وهذا بالطبع إن دل فإنه يدل على مدى البغض المتبادل بين أتباع الكنيستين والعداء التاريخي بينهما . ومع ذلك الإتحاد الشرفي بين الكنيستين لم يوف البابا بوعده للإمبراطور في تقديمه المساعدات اللائقة .

هكذا بدأ حصار الجيش العثمانى للقسطنطينية في يوم السادس من ابريل عام ١٤٥٣م أي قبل أربعة وخمسين يوماً من سقوط المدينة في التاسع والعشرين من مايو ، لقد كانت مدة قصيرة بالفعل لإسقاط أقوى دفاعات في العالم .

في بداية الحصار كان معسكر الجيش على مساحة ميلين ونصف من الأسوار ، ثم في اليوم التالي تحرك السلطان محمد بنصف قواته إلى مسافة ميل واحد من الأسوار ثم في اليوم الذي يليه تحرك جزء كبير من القوات لمسافة ربع ميل ، وانتشر الجند في خط بطول أسوار المدينة التى بلغ طولها ستة أميال.[٤٠]

وفي اليوم الحادى عشر من ابريل ، قام السلطان بنشر المدافع حول الأسوار، موجهاً الكبير منها نحو أضعف أجزاء السور (بوابة القديس رومانوس) ، واصطف من وراء المدافع حملة السهام ، إذ وضعت

المدافع في نقاط متقاربة ، وكان السلطان يقود الجيش من القلب ، الـذي بلغ تعداده حسب بعض المصادر حوالي خمسة عشر ألف جندى .

وفي يوم الثانى عشر من ابريل ، وصل الأسطول العثمانى إلـي ميناء القسطنطينية واستطاع جزء من الأسطول النفاذ خلف السلسلة في الثانى والعشرين من ابريل . هكذا بدا الحصار محكما حول المدينة مـن البـر والبحر ، وبدأت المدافع إطلاق قذائفها على الأسوار، بجانب اشـتباكات الأسطول العثمانى مع قطع الأسطول البيزنطى .

كانت الاشتباكات عنيفة بين الفريقين ، لقد وصلت حماسة الجيش العثمانى الي ذروته فلم يبالي الجنود بالموت ، كانوا يهاجمون كالوحوش الكاسـرة في ظل دوى قذائف المدافع وصوت ارتطامها بأسوار المدينـة ، وظـل الوضع هكذا في البر والبحر حتى يوم ٢٣ من مايو قبل السقوط بسـبعة أيام ، لقد أصبحت حالة المدينة غاية في السوء والانهاك ، وكانت أجزاء كبيرة من السور قد انهارت بالفعل ، لولا الترميمات العاجلة التى قامـت بها المقاومة البيزنطية . هنالك أدرك السلطان محمد أن الهجوم الأخيـر على وشك الحدوث ، فبعث برسالة إلي الإمبراطور قسطنطين يدعوه فيها الي تسليم المدينة قبل أن تهدر الدماء ، فلم يقبل قسطنطين وآثر المـوت على تسليم المدينة.[٤١] عندئذ أمر الفاتح الجيش بالإستعداد للهجوم الشامل في يوم الثلاثاء ٢١ جماد أول سنة ٨٥٧ للهجرة الموافق ٢٩ مايو سـنة ١٤٥٣م .

لقد بدأ الهجوم الشامل على المدينة حسب معظم المصـادر قبـل الفجـر بحوالي ثلاث ساعات [٤٢] ، لقد كان هجوما هائلاً ومن كل ناحيـة بكـل الأسلحة الممكنة ، لقد تحرك الأسطول الذي بدأ يدك الأسـوار الشـمالية بالمدفعية ، وبدأ كذلك الضرب المتواصل للمدافع الضخمة من ناحية بوابة

رومانوس (طوبقابي أو بوابة المدفع) ، توافق كل ذلك مع تحــرك آلاف الجند ناحية الأسوار ، حيث بدأوا في ارتقائها بواسطة السلالم والأبراج ، وبدأت صيحات الجند تعلو بالتكبير والتهليــل علـــى أصـــوات المـــدافع وأصوات الصنج والدفوف والطبول التى تصم الآذان . لقد توقف التاريخ ليسجل إحدى اللحظات الحاسمة القليلة في عمر البشرية .

بدأ الجند في الهجوم جماعات جماعات حتى يصيبوا المقاومة بالإنهاك ، تركز الهجوم في منطقة القديس رمانوس ، لقد بدت بالفعل علـــى وشـــك الإنهيار مع دكات المدفع العملاق المتوالية ، لقد ازدادت الهجمات عنفـــاً وشراسة بتوالى جماعات الجند للهجوم على الأسوار . يقول باربـــارو : (قامت الفرقة الثالثة بالهجوم على أسوار المدينة البائسة ، لم يكن جنوداً يحاربون كالأتراك بل كالأسود الضارية ، وكانت صـــيحاتهم وصـــوت الصنج النحاسية تبدو كشئ ليس له مثيل في هذا العـــالم ، وتـــم ســـماع صراخهم وصيحاتهم على البعد بالقرب من الأناضول . وعبر صـــيحاتهم وصراخهم المدوى الذي انطلق في ميدان المعركة تسببوا في نشر الذعر في كافة أرجاء المدينة وسلبوا منا شجاعتنا بواسطة صيحاتهم وصراخهم والجلبة العالية التي أحدثوها).[٤٣]

لقد استطاعت المدافع دك أجزاء من الأسوار الأمامية ، خاصة الأجـــزاء الضعيفة المرممة حديثاً من قبل المقاومة ، فتقدم الجند تحت ستار الدخان الكثيف ونجحوا في الإستيلاء على الحصون الأمامية ، ودخلها أكثر مـــن سبعين ألف عثمانى بأسلحتهم[٤٤] ، وعند شروق الشمس استطاع الجـــيش تدمير أجزاء بالقرب من بوابة رومانوس تدميراً تاماً ، واســـتمر تـــدفق الجيش العثماني على المدينة من تلك الثغرة من شـــروق الشـــمس حتـــى الظهر ، وبعد الظهر استطاعت فرق من الجيش العثمانى الوصول إلـــي الميدان الكبير الواقع في وسط المدينة ، وعندئذ قاموا في الحـــال بتســـلق

البرج الذي يرتفع عليه علمـــا القـــديس مـــارك والامبراطـــور وقـــاموا بتمزيقهما، وقاموا برفع الراية العثمانية معلنين بذلك سقوط القســـطنطينية نهائياً في يد المسلمين .

بدأ الجيش بعد استيلائه على المدينة بعد الظهر فى جمع الغنائم والأسلاب وإحكام سيطرته على كافة مواقع المدينـــة ، ، لقـــد ســـمحت الشـــريعة الإسلامية بجمع غنائم الحرب خلال ثلاثة أيام ، ونظراً إلـــي أن المدينـــة فتحت عنوة ، فقد كانت الأملاك المنقولة حسب الشريعة غنيمة للجنـــود ، كما كان بالإمكان استرقاق السكان بشكل شرعى (٤٥) ، لكـــن الســـلطان محمد بعد دخوله المدينة بعد ظهر يوم الفتح ، أصدر أوامره للجيش بوقف أعمال السلب وجمع الغنائم (٤٦) وأمن الجميع على أرواحهم ، وتوجه على الفور إلي كنيسة آيا صوفيا Hagia Sophia لإقامة صـــلاة العصـــر ، وصلى الفاتح مع جنده الصلاة في الكنيسة لتحول بعد ذلك الي مسجد.(٤٧)

بعد إتمام الفتح ، أعلن السلطان أنه لا يعارض في إقامة شـــعائر ديانـــة المسيحيين وأعطاهم نصف الكنائس ، وجعـــل نصـــفها الآخـــر جوامـــع للمسلمين ، ثم جمع أئمة الدين لينتخبوا بطريقا لهم واعتمد السلطان هـــذا الانتخاب ، وجعله رئيسا لطائفة الأروام الأرثوذكس ، ومنحه حق الحكـــم في القضايا المدنية والجنائية بكافة أنواعها المختصة بالأرثوذكس وعمم هذا الحق في الولايات ، وفي مقابل هذه المنح فرض عليهم دفع الخـــراج أو الجزية ، مستثنياً من ذلك أئمة الدين فقط (٤٨) ، و قبل أن يغادر الفاتح المدينة راجعاً الي أدرنة بعد حوالي ٢٣ يوما من الفتح ، أعلن أن المدينة المفتوحة أصبحت عاصمة للدولة وأطلق عليها اسم استانبول أي (معقـــل الاسلام).

هكذا سقطت القسطنطينية المدينة الإمبراطورية ، المثل الأعلى لمدن العصور الوسطى ، كان سقوطها يمثل مفترق الطرق بين العصر الوسيط والعصر الحديث ، كان سقوطها موتاً لعصر بأكمله ، بعدما شاخت مقوماته وفشلت استراتيجياته ، لم يكن سقوط المدينة ذو تأثير مباشر على مركز الإمبراطورية العثمانية فحسب ، بل كان له تأثير على العالم بأسره. يقول برنارد لويس Bernard Lewis : (سقطت القطعة الأخيرة من الامبراطورية البيزنطية في موقعها اللائق . اذ أن السلطان وضع ختمه على اتحاد القارتين ، الذي كان قد أسهم في صهر القارتين في بوتقة واحدة . وغدت إمارة المجاهدين إمبراطورية وأميرها إمبراطوراً).(٤٩)

لقد أسهم سقوط القسطنطينية وتحولها لحاضرة إسلامية في أوروبا المسيحية في إعادة البناء الاجتماعي والاقتصادى والسياسي لشرق أوروبا، ولقد انتقلت علامات التغيير إلي بلدان أوروبا بأكملها . لقد حاول الفاتح بعد إتمامه عملية الفتح أن يجعل من المدينة مركزاً للتجارة والعلوم والفنون ، على غرار عواصم الدول الاسلامية التي أسهمت في بناء الحضارة الإنسانية ، مثل بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة ، لذلك كانت سياسة السلطان من أول يوم رامية إلي إعادة إعمار المدينة وحشدها بكل الطوائف والجنسيات المختلفة ، حتى يعاد إعمارها لتكون مركزا عالمياً يجعل من حاضرة دولته مركزاً حيوياً يزيد من ثقل الدولة ويبوئها مركز الصدارة .

لذلك قام الفاتح بنقل أكثر من خمسة آلاف عائلة مسلمة إلي داخل المدينة، بجانب العناصر الأخرى من ألبان وبلغار وصرب وغيرهم ، وأعطى إمتيازات وتسهيلات لتنشيط الحركة التجارية داخل المدينة ، فأصبحت مركزاً تجارياً واقتصادياً هاماً . وازداد عدد سكانها إلي أكثر من خمسة

أضعاف العدد السابق ، الذي تقدره بعض المصادر بخمسين ألفاً ، بل انه وصل في أواخر القرن السادس عشر إلي حوالى ثمانمائة ألف نسـمة ، وبدأ الفاتح في إرساء الدعائم العلمية والعمرانية داخل المدينـة ببنائـه المساجد والمدارس ومعاهد التعليم والمكتبات ودور سكن الطلبة ، وإنشائه أحواضاً لبناء السفن وترسانات لإنتاج الأسلحة . لقد كان الفـاتح بالفعـل مؤسساً للنهضة العلمية والأدبية والعمرانية التي أصبحت استانبول مركزا لها في القرن السادس عشر.(٥٠)

لقد أثرت استراتيجية الفاتح العسكرية والثقافية فـي إحـداث اختلافـات جوهرية بين عصرين ، لذا أطلق بعض المؤرخين على السلطان محمـد الفاتح لقب (رجل العصر الحديث).

كان لسقوط القسطنطينية تأثيراً مباشراً فـي التوجـه الـديني للشـعوب الأوروبية ، إن سيطرة الدين أو الكنيسة في أوروبا كان مبدأ تسير عليـه أوروبا العصور الوسطى ، إن تقاليد الإمبراطورية السابقة كانـت تقـوم على فكرة الكنيسة العالمية ، ومن ثم اعتبروا العـالم المسـيحي بأكملـه (الأرثوذكسي) يمثل دولة واحدة علـى رأسـها زعيمـان همـا البابـا والامبراطور ، ليعبر الأول عن السلطة الدينية ويعبر الثانى عن السـلطة الدنيوية (٥١) ، وبالرغم من ذلك كان للكنيسة نفوذ من الناحية السياسـية والاقتصادية فرجال الكنيسة كانوا يجلسون في المجالس التشـريعية إلـي جانب النبلاء ، فضلاً عن امتلاكهم أوقافاً ضخمة تحكموا من خلالها فـي النواحى الإقتصادية ، لكن بعد سقوط الكنيسة الشرقية – أحد الكنيسـتين الرئيستين في العالم – بسقوط الدولة الراعية ، بدأ عصر جديد بالنسـبة لأوروبا المسيحية ، بدأ عصر حديث يعتمد على أساسات أخـرى غيـر الدين والسلطة الدينية ، أصبحت الشعوب تشعر بالقوميات كأساس يجمعها في كيانات سياسية ، تتألف بناءً على الإنتماءات العرقية ، واللغات القومية

التى بدأت في الظهور بشكلها الحديث ، فلم تعد اللاتينية واليونانية متداولتان في معظم الأقطار، لأنهما لم يستمدا قوتهما على البقاء إلا عن طريق الكنيستين ، لذلك تشكلت بالفعل اللغات القومية الحديثة في أقطار أوروبا بشكل سريع وملحوظ .

لقد كانت الكنيسة في العصر الوسيط بالإضافة إلي مؤسساتها ورجالها تفرض احتكاراً وقيوداً على حرية الفكر والبحث العلمي ، مما أدى إلي غرق أوروبا في ظلمات الجهل طوال العصر الوسيط ، وعندما بدأ التحرر من القيود الدينية للكنيسة بدأ العلم يعرف طريقه إلي شعوب أوروبا ، وبدأ عصر النهضة الايطالية Renaissance الذي نقل أوروبا نقلة نوعية في العلم والمعرفة ، حتى أن بعض المؤرخين ينسبون وصول عصر النهضة الإيطالية إلي ذروته إلي سقوط القسطنطينية ، الذي أدى إلي هجرة مظاهر الحضارة اليونانية من الشرق إلي ايطاليا، وتأثيرها المباشر على الحركة العلمية والثقافية والفنية فيها .

مع سقوط القسطنطينية سقطت المدينة القديمة بأسوارها ومتاريسها التي فصلتها عن العالم المحيط ، لقد أصبحت مدينة العصر الحديث لا تعتمد في دفاعاتها على الأسوار الشاهقة والأبواب المصفحة والإنعزال التام ، بل أصبحت المدن أكثر تحرراً من قيود وأغلال العصور الوسطى ، فبدأت الصناعة في النمو والازدهار ، وأصبحت المدن معبراً للتجارة ورؤوس الأموال والإستثمارات في كافة المجالات ، فتحررت أوروبا من عصر الإقطاع والسيادة الإرستقراطية للأمراء ورجال الدين ، وبدأ عصر سيادة العلم والتجارة الحرة .

إن سقوط القسطنطينية أدى إلي تطور مهول في الإستراتيجيات العسكرية، لقد أصبح سلاح المدفعية سلاحاً فعالاً في الحروب ، وبدأ العمل على

تطويره والإعتماد عليه ، بل إنه انتقل من سلاح مساعد إلي سلاح حسم في المعارك ، حتى انه اعتمد عليه بصفة أساسية فيما بعد في السفن الحربية ، وكان على المدن الإنتقال من عصر التحصينات القديمة (المعتمدة على الأسوار) إلي عصر جديد يعتمد فيه على الأسلحة النارية . إن دول العصور الوسطى التي لم تتعلم من درس سقوط القسطنطينية ، ولم تواكب العالم في تطوير استراتيجياتها العسكرية ، كان عليها أن تفشل في الحفاظ على كياناتها السياسية بعد أول اختبار حقيقي ، هكذا لم تستطع الدولة المملوكية ذات الطراز القديم الصمود كثيرا أمام الجيش العثمانى . وهكذا بدأت خريطة العالم السياسية في التشكل من جديد مع مطلع العصر الحديث .

كان لفتح للقسطنطينية أصداء واسعة في العالمين الاسلامي والمسيحي ، فلقد تلقى مسلمو العالم النبأ بالفرحة العارمة ، حتى أن سلاطين المسلمين في الهند وآسيا وفي مصر أرسلوا الرسل يهنئون الفاتح على هذا النصر المبين ، الذي يعد مفخرة لكافة المسلمين . يقول ابن اياس : (فلما بلغ ذلك ووصل وفد الفاتح ، دقت البشائر في القلعة ، ونودى في القاهرة بالزينة ، ثم أن السلطان عين برسباي أمير أخور ثانى رسولا الي ابن عثمان يهنئه بهذا الفتح) (٥٢)

وعلى العكس من ذلك ، كان صدى فتح القسطنطينية هائلاً على الجانب المسيحي الأوروبي ، لقد أدى الفتح إلي ازدياد الحقد الصليبي تجاه المسلمين في العالم ، وخاصة في أماكن الصراع التقليدية بين المسلمين والنصارى مثل الأندلس ، حيث عانى أهلها من نير الإضطهاد الكاثوليكي لمملكتى قشتالة وأراجون (إسبانيا لاحقا) ، ولقد دعى بابا روما إلي حرب صليبية جديدة ، توحد فيها الجهود المسيحية لضرب المسلمين في كل مكان ، وتطهير أوروبا من المسلمين نهائياً ، سواءً في الشرق أو في

الغرب ، بالإضافة إلي ضرب مصالح المسلمين الإقتصادية ، لإنهاء دورهم الإقتصادى والسياسي عالماً . لكن محمد الفاتح لم يتوقف عند فتح القسطنطينية ، بل كان ذلك الفتح نقطة انطلاق كبيرة نحو عالمية الدولة ، وحسم صراعاتها الاقليمية والإتجاه نحو توسعات أخرى ، خاصة في أوروبا بعد ترسيخ أقدامها في البلقان وآسيا الصغرى .

استراتيجية التوسع بعد فتح القسطنطينية :

بعد القضاء على أهم قطعة أوروبية مسيحية داخل الأراضي العثمانية (بيزنطة) ، اتجهت أنظار الدولة العثمانية إلي اتجاهين رئيسيين ، أولهما الإتجاه نحو الهيمنة الفعلية على المناطق الساحلية ، سواءً في منطقة المضايق أو البحر الأسود أو سواحل بحر إيجه والأدرياتيك ، وذلك بالطبع لإنهاء الدور التي تلعبه الدول البحرية مثل جنوة والبندقية من الناحية التجارية ، مما يؤدى إلي الضعف الفعلى لهما من الناحية الاقتصادية ، وما يتبع ذلك من ضعف في الإمكانيات العسكرية ، فضلاً عن رغبة الدولة في الإستئثار بذلك الدور التجارى الهام في هذه المنطقة الحيوية ، مما يعزز الإقتصاد والدور الإقليمي .

أما الإتجاه الثانى للدولة فكان ناحية الأناضول ، لقد بقيت إحدى أهم الامارات التركمانية التى نازعت الدولة العثمانية كثيراً ، وأصبحت مركزا للمؤامرات والدسائس التى تحاك للدولة ، وهى إمارة (قرمان) ، إلي جانب تواجد إمبراطورية طرابيزون Trebizon اليونانية على الساحل الجنوبي للبحر الأسود ، وهى بقايا قديمة من النفوذ البيزنطى المندثر ، بالإضافة إلي التحرشات التى تتلقاها الدولة بين الحين والآخر من بعض الدول التركمانية في إيران وأذربيجان وأرمينية ، مثل دولة الآق قيونلو (الشاة البيضاء) .

لقد استطاع الفاتح بالفعل القضاء نهائياً على إمارة قرمان التركمانية ، وضمها إلي سلطانه عام ١٤٧١م ، وذلك بعد القضاء على آخر تواجد مسيحي في الأناضول وهى إمبراطورية طرابيزون اليونانية ، حيث قضى عليها عام ١٤٦١م . لم يكن أمام الفاتح في الأناضول بعد ذلك إلا أوزون حسن ومملكته التى امتدت في أذربيجان وأرمينية[٥٣] ، لقد تطلع إلي مد نفوذه إلي بعض أجزاء الأناضول ، فأخذ يتحرش بأراضى الدولة العثمانية ويغير عليها وينهب بعض مدنها ، لكن السلطان الفاتح خرج بنفسه على رأس جيش ضخم في مارس عام ١٤٧٣م ، والتقى بحسن الطويل في معركة فاصلة هى (ترجان) عند أعالى الفرات ومزق جيشه تمزيقاً ، ولاذ أوزون حسن بالفرار.[٥٤] لم تكن سياسة الفاتح رامية إلي القضاء التام على الممالك الاسلامية ، لذلك لم يتعقب الجيش المهزوم ولم يقض على دولته رغم الحاح قواده العسكريين ، فضلاً عن عدم اهتمام الدولة العثمانية في هذه الآونة بالإتجاه شرقاً ، لأن مصالحا الكبرى كانت في الناحية الغربية ، حيث أوروبا النصرانية ومتابعة الجهاد الذي هو الهم الأكبر للعثمانيين . بعد القضاء على نفوذ أوزون حسن ، إستطاع السلطان توحيد أراضى آسيا الصغرى ، وبسط سيادته على جميع سواحل البحر الأسود الجنوبية .

بقى بعد ذلك السواحل الشمالية للبحر الأسود ، لقد توجهت أنظار الفاتح نحو ذلك البحر لأهميته الإستراتيجية ، فكان يأمل أن يجعله بحيرة عثمانية ، والذي سيؤدي بالفعل إلي القضاء النهائي على النفوذ الجنوى في المنطقة . لقد كانت جنوة تسيطر على أجزاء من السواحل الشمالية للبحر الأسود ، حيث أقامت مستعمرات اعتمدت عليها كركيزة أساسية لأساطيلها التجارية ، التي استأثرت بنصيب كبير من تجارة البحر الأسود وشرقي أوروبا ، حيث طرق التجارة الرئيسية بين أوروبا ووسط آسيا، كانت أهم

مناطق البحر الأسود الشمالية هى شبه جزيرة القرم ، التى سيطر عليها خانات التتار المسلمين ، وبالفعل استطاع السلطان محمد القضاء تماما على النفوذ الجنوى في البحر الأسود بعد استيلائه على القرم ، فضلاً عن انتزاعه محلة جلطة وبعض الحزر الأخرى الصغيرة من حوزة جمهورية جنوة ، هكذا استطاع إنهاء تجارةِ جنوة الحرة في البحر الأسود ، وهكذا خرجت جنوة من عداد الدول العظمى(٥٥) ، وأصبحت بعد ذلك منذ القرن السادس عشر مستعمرة إسبانية .

كانت البندقية أقوى الدول البحرية آنذاك(٥٦) ، ولقد شغلت مكانة كبيرة في العصور الوسطى عن طريق لعبها دور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب ، وذلك بواسطة أسطولها الضخم الذي وصل الي حوالي ثلاثة آلاف سفينة يعمل عليها ٢٥ ألف بحار. لقد تضاربت المصالح البندقية مع المصالح العثمانية منذ التوسع العثمانى واسع النطاق في شرق أوروبا ، لكن الدولة العثمانية لم تستطع قبل محمد الفاتح الوقوف أمام النفوذ البندقي، الذي اعتمد أساساً على القوة البحرية الضخمة ، التي سيطرت على معظم سواحل بحر إيجه وجزره ، فضلا عن الطرق التجارية شرقي المتوسط والتى اعتمدت على كثير من المراكز البحرية والموانئ في البلقان و شمال شرق المتوسط بوجه عام ، لكن الدولة منذ عهد الفاتح بدأت تدخل مجال الصراعات البحرية للحفاظ على مصالحها في المنطقة، ومنذ فتح القسطنطينية بدأت ثقة الدولة باسطولها ومكانتها البحرية تتزايد، فبدأت تصارع من أجل منافسة القوى البحرية العظمى ، هكذا استطاعت القضاء على النفوذ البحري لجنوة ، وكان الدور على النفوذ البندقي في البلقان وجزر بحر ايجه .

لكن الحق أن القوة البحرية للدولة العثمانية في تلك الفترة التأسيسية لم تمتلك الخبرة الكافية ، التي تؤهلها للدخول في مواجهات بحرية كبرى ،

لذلك لم يكن للأسطول العثمانى ذلك الأثر الاستراتيجي الكبير في البحر المتوسط في عصر الفاتح ، لكنه تنامى حتى صار جلياً في القرن السادس عشر .

أما البندقية ، فلقد أدى فتح القسطنطينية إلي إغلاق الطريق الرئيسي أمامها للتجارة بين أوروبا وآسيا عبر البحر المتوسط والبحرالأسود . وبذا أصيبت مصالحها نظراً لعلاقاتها الإقتصادية مع إمارات آسيا الصغرى ، والتى قوامها التجارة البحرية التى تتفوق فيها البندقية . ومن هنا تولد صراع حول بلاد المورة وشواطئ جنوب آسيا الصغرى ، واستمرت الصدامات العثمانية – البندقية التى حقق فيها العثمانيون انتصارات عديدة، أدت إلي طرد الإيطاليين من مستعمراتهم ومراكزهم التجارية على شواطئ بحر ايجه والبحر الأسود ، وفشلت البندقية بعد حرب امتدت من ١٤٦٣ – ١٤٧٩م في منع التوسع العثمانى داخل البلقان وآسيا الصغرى نحو موانئ وجزر بحر ايجه والأدرياتيك ، وهو التوسع الذي وصل معه النفوذ العثمانى إلي شرق المتوسط ، لكن القوة البحرية العثمانية لم تصل بعد إلي مستوى يؤهلها لخوض حرب بحرية كبرى مع البندقية كما سبق القول ، لذا فشل الأسطول العثماني في فتح جزيرة رودس عام ١٤٨٠م ، للسيطرة على شرق المتوسط ، وكان ذلك مؤشراً على حدود العمليات البحرية العثمانية ، خاصة مع الدول البحرية الكبرى خلال عصر الفاتح.(٥٧)

لقد استطاع العثمانيون تجريد البندقية من معظم ممتلكاتها خلال حرب الستة عشر عاماً ، فقد اجتاحوا ساحل دلماشيا التابع للبندقية ، ونجحوا في إخضاع البانيا نهائيا بما في ذلك شواطئ الأدرياتيك وإيجه ، وعندئذ فكر السلطان في احتلال البندقية ذاتها بعد أن سلبها معظم أملاكها في المورة وبحر إيجه ، لكن البندقية أسرعت الي عقد معاهدة مع السلطان عام

١٤٧٩م ، تخلت بموجبها البندقية عن ممتلكاتها التي سلبها العثمانيون ، إلي جانب دفع عشرة آلاف دوقة ذهبية كل سنة كضريبة للإتجار في الأراضي العثمانية(٥٨) ، هكذا انتهت قوة البندقية كدولة بحرية عظمى ، وبدأ العثمانيون الإحلال مكانها منذ بدايات القرن السادس عشر ، خاصة بعد تقويض دورها التاريخي في الوساطة التجارية منذ تحول طريق التجارة العالمية إلي رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨م .

لقد استأنف السلطان الفاتح مشروعه في إقرار الحكم العثمانى نهائياً في شرق أوروبا وإنهاء كل مقاومة تعوقه ، في سبيل صهر تلك البقاع وإدماجها تماما داخل الإطار العثمانى .

لقد كانت السيادة العثمانية على معظم بلاد البلقان سيادة متزعزعة ومتنازعة ، فكان أمراء البلقان يقرون بتبعيتهم للدولة العثمانية تارة ، وتارة أخرى يعلنون استقلالهم أو تبعيتهم لدول مجاورة مثل المجر ، وكان ذلك بالطبع يشكل خطورة كبيرة للنفوذ العثمانى ، بالإضافة إلي استحالة إقرار النظم العثمانية في تلك الأقاليم بغير تبعية لا تقبل المنازعة، لذلك بدأت حملات الدولة بعد فتح القسطنطينية في إخضاع هذه البلدان ، والقضاء على المقاومة فيها وضمان ولائها .

كانت قوات التحالف الصليبي التى أعدها البابا من المجر والمانيا وبولندا وجنوة والبندقية بقيادة هونيداي ، تشكل خطراً كبيراً إذا تقدمت نحو الأراضي العثمانية ، فبادر السلطان بلقائهم على رأس جيش عام ١٤٥٦م، وحاصر بلجراد أحصن مدن شرق أوروبا ، والتى بسقوطها يستطيع السيطرة على الصرب والمجر نهائياً ، لكن السلطان لم يتمكن من فتحها بعد حصار دام أكثر من ٣٩ يوما ، قاتل فيها السلطان بنفسه حتى جرح ، لقد استخدم الجيش العثمانى في ذلك الحصار كل الوسائل الحديثة التى

ابتكرها في الحرب ، لقد تم صنع مدافع حصار مخصوصة ، تـم نقلهـا عبر الأسطول النهري ذو المراكب الرفيعة ، لكن من الملاحظ أن الجيش لم يستطع استخدام مدافع الحصار العملاقة ، التى استخدمت في حصـار القسطنطينية ، لبعد المسافة ولعدم مقدرة السفن النهرية حمل تلك الأوزان الثقيلة ، لقد نصب الجيش أكثر من ثلاثمائة مدفع ، وحاصر المدينة بأكثر من مائة ألف جندى من البر ، بالإضافة إلي الأسطول النهـرى ، لكـن الظروف لم تكن مواتية على ما يبدو لهذا الفتح المبكر للمدينة ، فقد ارتد الجيش العثمانى إلي أدرنة مع حلول فصل الشتاء (٥٩) ، لكـن السـلطان استطاع عام ١٤٥٩م انهاء امارة الصرب ، وادخالها نهائيا تحت الحكـم العثمانى المباشر ، وضمت إلي ولاية سمندره في البلقان .

توجه السلطان بعد ذلك لإعادة فتح البوسنة بنفسه ، حيث الحقـت تمامـا بولايات البلقان عام ١٤٦٣م ، وبعدها تم ضم أجزاء كبيرة من الهرسك . ويذكر أن السلطان الفاتح قد بزل مجهوداً كبيراً في سبيل دخول الاسـلام إلي تلك المناطق ، فدخل الآلاف من البوسنة والهرسك وألبانيا في الاسلام ، خاصة في القرن السادس عشر بعد استقرار الحكم العثمانى فـي هـذه المناطق ، ولقد لعبوا بالفعل دوراً هاما بعد ذلك في السياسة العثمانية وفي الخدمة العسكرية والمدنية ، وقدموا عدداً كبيراً من الـوزراء أهمهـم آل كوبريلي ، ولقد لعب الألبان – الأرناؤوط وهم الألبان المسلمون – دورا كبيرا في حروب الدولة العثمانية ضد اليونان ، وقد استغلتهم الدولة فـي ذلك المجال كثيرا نتيجة لشدة بأسهم وحبهم للقتال والثأر.(٦٠)

أما شبه جزيرة المورة الواقعة جنوبى البلقان ، فقد اندلعت فيها صراعات داخلية على الحكم ، ويذكر أن المورة كانت هدفاً رئيسياً للعثمانيين منـذ دخولهم البلقان ، و لكن لحصانة موقعها وتحصيناتها التى بلغت أكثر من مائتى قلعة ، لم تستطع الدولة إخضاعها إخضاعاً تاماً ، وظلت المـورة

ساحة مواجهة مباشرة بين الدولة العثمانية والبندقية ، لذلك قام الفاتح بنفسه على رأس حملة عسكرية إلي المورة ، فيما بين عامى ١٤٥٨-١٤٥٩م ، إستطاع خلالها فتح معظم مدن المورة وتدمير حصونها المنيعة، هكذا ضمت إلي الدولة نهائيا عام ١٤٥٩م .

أما اليونان فقد كانت ذات موقع هام داخل البلقان ، لذلك عمل السلاطين العثمانيون قبل الفاتح لمحاولة السيطرة عليها ، فكانت بين مد وجزر بالنسبة للسيطرة العثمانية ، وفي عهد الفاتح لاقت اليونان اضطرابات داخلية ونزاعات ، كادت أن تؤدى الي وقوعها تحت طائلة البندقية ، المنافس القوى للعثمانيين في البلقان ، فتدخل الفاتح سريعا وضمها إلي ممتلكات الدولة نهائيا عام ١٤٥٦م ، بواسطة حملة عسكرية بقيادة عمر بن طرخان ، لكن السلطان دخل بنفسه أثينا في طريق عودته من المورة عام ١٤٥٩م.[٦١]

لقد أراد العثمانيون منذ فتوحاتهم الأولى في شرق أوروبا وضع حداً طبيعياً مبدئياً لممتلكاتهم الأوروبية ، حتى يستطيعوا العمل على إقرار الحكم العثمانى في تلك المناطق ، والعمل على استقرارها سياسيا واجتماعيا ودمجها في النسيج العثمانى ، فضلاً عن ضمان عدم معاودة القوى الأوروبية الهجوم على ممتلكات الدولة أو الاقتطاع منها ، وكان الحد الطبيعى في الشمال هو نهر الدانوب ، وكانت الخطوة الرئيسية لتحقيق ذلك هى استئصال النفوذ المجرى تماما ، هذا الي جانب عبور النهر وتأمينه من الناحية الشمالية .

فبعد ضم أجزاء من مولدافيا Moldova على البحر الأسود ، كان على محمد الفاتح تأمين باقى مولدافيا بالإضافة إلي والاشيا Wallachia (الأفلاق والبغدان أو رومانيا الحالية) ، خاصة بعد تحالف أمير والاشيا دراكولا V.Drakul [٦٢] مع المجر عام ١٤٦١م ، ومهاجمته للعثمانيين

عبر الدانوب ، لكن السلطان محمد توغل في والاشيا وأزاح دراكولا عن السلطة وعين بدلا منه أخاه رادول Radul [٦٣] ، واستطاع السلطان بعد ذلك إخضاع كامل مولدافيا أو البغدان ، بعد محاربة أميرها المتحالف مع المجر وبولندا ، وهزيمته عام ١٤٧٦م ، و لقد خضعت نهائيا إلي النفوذ العثماني في عهد بايزيد الثاني عام ١٤٨٤م .

إستطاع محمد الفاتح إقرار الحكم العثماني داخل الأراضي المفتوحة في البلقان وآسيا الصغرى ، لكن تأمين هذه المناطق خاصة في بحر إيجه والأدرياتيك وجنوبي البلقان كان يستلزم حتما القيام بعمليات عسكرية أخرى ، كان أولها غاية في الأهمية وهو فتح جزيرة رودس ، التي تشرف على بحر ايجه ، فلقد تحصن بها فرسان القديس يوحنا البقية الباقية من الحملات الصليبية على المشرق في العصور الوسطى ، لذلك كانت تمتاز بمناعتها ، فلم يستطع المماليك خلال رحلاتهم في تعقب آثار الحملات الصليبية أن يفتحوها بعد ثلاث محاولات كبيرة ، لقد كانوا خطراً كبيراً يهدد البحرية العثمانية خاصة والإسلامية عامة في شرقي المتوسط وبحر ايجه .

وكان الهدف الثاني بعد رودس هو فتح ايطاليا . لقد أطلق على الفاتح منذ فتح القسطنطينية لقب قيصر الروم أي إمبراطور روما الشرقية ، لذلك كان من أهداف الفاتح توحيد تاجي الإمبراطوريتين الرومانيتين تحت سلطة مسلمة ، فكان عليه فتح إيطاليا وروما.[٦٤]

كان يصبوا الي تحقيق مراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونبوئته في فتح روميه بعد أن حقق نبوئته بفتح القسطنطينية ، ولم تتوقف أحلام الفاتح في أوروبا عند هذا الحد ، لقد وضع نصب عينيه إستعادة مجد الإسلام في أوروبا ، ففي ذلك الوقت كانت حضارة الأندلس في سبيلها إلي الزوال من ناحية الغرب ، ومن يدري لعله وضع خطة لإنقاذ الدولة العربية الوحيدة

الباقية في أوروبا ، غرناط Granada ،والوصول إليها من ناحية الشرق.

كانت إيطاليا مقسمة يومئذ إلي جمهوريات وممالك منفصلة عن بعضها البعض ، ففي الشمال تقع البندقية Venice ، وفي الشمال الغربي جنوة Genoa، وفي الجنوب مملكة نابولى Naples ، وتضم صقلية Sicilia ، الواقعة تحت نفوذ مملكة أراجون الإسبانية ، بالإضافة إلي جمهوريات صغيرة ليست ذات أهمية مثل فلورانسا Florence أو(تسكانا) ، ودوقية ميلان Milan أو(لمبارديا) ، أما وسط ايطاليا فكانت روما Rome التابعة للبابوية.

لقد كان هدف الفاتح الأول هو إسقاط مركز ايطاليا (روما) التابع للبابا ، لكنه بالطبع لن يستطيع الوصول إلي روما إلا عن طريق الجنوب ، أى مملكة نابولى وصقلية .

لقد انقسم الأسطول العثمانى إلي نصفين ، أولهما ذهب بقيادة الوزير الأعظم كديك أحمد باشا إلي إيطاليا ، والنصف الآخر تحرك بقيادة مسيح باشا لحصار رودس . كما سبق القول كان الأسطول العثمانى أصبح على درجة كبيرة من الثقة ، حتى أن السلطان أراد بواسطته تنفيذ عملين عسكريين عملاقين في نفس الوقت ، لكنه مازال بعد لم يؤهل على المستوى التكتيكي والإستراتيجى وعلى مستوى الضخامة والتجهيزات ، بأن ينتشر على هذا النحو ويقوم بأعمال كبرى في أكثر من مكان ، لقد وصل الأسطول إلي هذا المستوى الرفيع في القرن السادس عشر ، بفضل مجاهدى البحر المسلمين ذو الخبرة والكفاءة البحرية الكبيرة . لذلك فشلت حملة رودس فلم تستطع إقتحام الجزيرة .

أما حملة إيطاليا استطاعت عام ١٤٨٠م اجتياز بوغاز أوترانتو Otranto، وأنزال ثمانية عشر ألفا من المشاة وألف من الخيالة وعدداً كبيراً من المدافع في إيطاليا ، والجدير بالذكر أن البندقية لم تتدخل

بأساطيلها مطلقاً ، بسبب الصلح القائم بينها وبين السلطان . إستسلمت قلعة أوترانتو بعد مقاومة شديدة استمرت أربعة عشر يوما ، قسم بعد ذلك كديك باشا جيشه إلي فرقتين ، للسيطرة على جنوبي ايطاليا (نابولي) التى لم يقم ملكها بأى هجوم على القوات العثمانية ، أبلغ كديك باشا الملك بأن يسلم إيالة يوليا وهدده بأنه إذا لم يفعل ذلك ، فإن البادشاه سيأتى في الربيع إلي إيطاليا ومعه مائة ألف من المشاة وثمانية عشر ألفا من الخيالة ومدافع بحجم لم يسبق مشاهدته ، وكان السلطان محمد بالفعل قد شرع في إعداد حملة ضخمة ، كانت على الأغلب موجهه إلي إيطاليا لإتمام السيطرة عليها ، لكن السلطان توفى فجأة بين جنوده بعد مغص مفاجئ عام ١٤٨١م ، وهو لم يناهز بعد الخمسين من العمر.[٦٥]

تتحدث المصادر عن موته عن طريق سم دس له ، بواسطة عميل بندقي إدعى الإسلام وأصبح أحد أطباء السلطان ، لقد حاولت البندقية اغتيال الفاتح حوالي خمسة عشر مرة ولم تنجح إلا في المرة الأخيرة ، وبهذا توقفت حملة إيطاليا الي أجل غير مسمى ، حيث أنقذ موت الفاتح أوروبا بأسرها من خطر السقوط النهائي في أيدي المسلمين .

وهكذا تنفست أوروبا الصعداء بموت الفاتح ، وابتهج البابا ودقت أجراس الكنائس وجرت مراسم الشكر ثلاثة أيام متواصلة ، وسارت المواكب العامة تجوب الشوارع وأطلقت المدافع ، وأصبح مرت الفاتح عيداً لكل أوروبا . على العكس من ذلك غرقت البلدان الإسلامية في حزن شديد ، وبكاه المسلمون في كل مكان ، فطالما زفت إليهم أخبار انتصارات الإسلام على يديه . رحمه الله رحمة واسعة بقدر ما قدم للإسلام والمسلمين . لقد مات بعد أن أكمل رسالته ، ووضع ركائز الدولة لأربعة قرون مقبلة لقد كان بحق مؤسس الإمبراطورية العثمانية في ثوبها العالمى ، بل لقد وضع أسساً للعصر الحديث برمته .

هوامش الفصل الثاني

١- محمد حرب ، العثمانيون في التاريخ والحضارة ، المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركى بالقاهرة ، سلسلة دراسات عثمانية رقم ١ ، عام ١٩٩٤م ص ٤٧

٢- مسند الامام أحمد (٤ / ٣٣٥) ص ٨٥

٣- **آق شمس الدين :** هو محمد بن حمزة الدمشقى الرومى ، إرتحل مع والده إلي الروم ، طلب فنون العلوم وتبحر فيها وأصبح عالماً من علماء الحضارة الإسلامية في العصر العثمانى ، يتصل نسبه بالخليفة الراشد أبى بكر الصديق – رضي الله عنه – ولد في دمشق عام ٧٩٢ ه / ١٣٨٩م ، حفظ القرآن الكريم في السابعة من عمره ، ودرس في أماسيا ثم في حلب ثم في أنقرة ، توفى عام ١٤٥٩م انظر: على الصلابي ، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، ص ١٤٣

٤- يكفى أن نذكر عن الشيخ آق شمس الدين أنه قام بتعريف الميكروب في كتابه (مادة الحياة) قبل لويس باستير Louis Pasteur بأربعة قرون ، حيث قال: (من الخطأ تصور أن الأمراض تظهر على الأشخاص تلقائياً ، فالأمراض تنتقل من شخص إلي آخر بطريق العدوى . هذه العدوى دقيقة إلي درجة عدم القدرة على رؤيتها بالعين المجردة . لكن هذا يحدث بواسطة بذور حية) انظر : المرجع السابق ، محمد حرب ، العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص ٢٦٩ ، ٢٧٠

٥- بيتر شوجر ، أوروبا العثمانية ، ترجمة د. عاصم الدسوقي ، دار الثقافة الجديدة ، الطبعة الأولى عام ١٩٩٨م ، ص ٨٤

٦- المرجع السابق ، محمد حرب ، العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص ٢٦٦

٧- المرجع السابق ، ص ٢٦٨

٨- قام زائر من البندقية بوصف السلطان محمد الفاتح بعد فتحه للقسطنطينية قائلا: (شاب في السادس والعشرين من العمر ، حسن البشرة ، عظيم الجثة ، فوق المتوسط في الطول ، قوى الذراعين ، يثير مظهره الهيبة أكثر من الإحترام ، قليل الضحك متتبع المعرفة، موهوب بالأفكار الملكية الحرة ، مصمم في أهدافه ، يسمع كل يوم تواريخ الرومان وغيرهم ، ومدونات الباباوات والأباطرة وملوك فرنسا ، يتكلم ثلاث لغات : التركية واليونانية والسلافية ، يبحث بكل دقة عن المعلومات عن إيطاليا وكرسي البابا والإمبراطور وكم ممالك في أوروبا وعنده خريطة لها ، لا يعجب ولا يبتهج بأى شئ كإعجابه وابتهاجه بدراسة أوضاع العالم وعلم الحرب ، باحث وفطن للأمور ، يلتهب رغبة في الحكم . هذا هو الرجل الذي علينا معشر المسيحيين أن نواجهه . إنه شديد المراقبة والحذر ، قادر على تحمل المشقة والعطش والجوع ... يقول أن الزمن تغير الآن ، إذ يسير من الشرق الي الغرب . كما سار الغربيون فيما سلف الي الشرق (يقصد الحروب الصليبية) ويقول أن إمبراطورية العالم يجب أن تكون واحدة ، دين واحد ودولة واحدة ، ولتحقيق هذه الوحدة ليس هناك في العالم مكان أليق بالقسطنطينية) انظر : برنارد لويس ، استانبول وحضارة الخلافة الاسلامية ، ترجمة : د. سيد رضوان على، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية عام ١٩٨٢م ، ص ٤٨، ٤٩

٩- نيقولا باربارو ، الفتح الاسلامي للقسطنطينية (يوميات الحصار العثمانى ١٤٥٣م) ، دراسة وترجمة وتعليق د. حاتم عبد الرحمن الطحاوى ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية ، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م ، ص١٦٦

١٠- لم يثبت مطلقاً في أي مصدر معاصر أو متأخر أن السلطان محمد الفاتح قد شرب الخمر ، فضلاً عن إجماع معظم تلك المصادر على صلاح شخصه ومروئته ، من تلك المصادر شذرات الذهب حيث يقول ابن العماد : (هو أعظم سلاطين آل عثمان ، وهو الملك الفاضل النبيل العظيم الجليل أعظم الملوك جهاداً وأقواهم إقداماً واجتهاداً وأثبتهم جأشاً وفواداً وأكثرهم توكلاً على الله واعتماداً ، وهو الذي أسس ملك بنى عثمان وقنن لهم قوانين صارت كالأطواق في أجياد الزمان ، وله مناقب جميلة ومزايا وفضائل جليلة وآثار باقية في صفحات الليالي والأيام ، ومآثر لا يمحوها تعاقب السنين والأعوام وغزوات كسر بها أصلاب الصلبان والأصنام ، من أعظمها أنه فتح القسطنطينية الكبرى) انظر : ابن العماد ، شذرات الذهب ، دار الكتب العلمية – بيروت (ج ٤ / ص ٣٤٤)

١١- أحمد آق كوندز ، الدولة العثمانية المجهولة ، وقف البحوث العثمانية عام ٢٠٠٨م ص ١٦١

١٢- سيد رضوان على ، السلطان محمد الفاتح (بطل الفتح السلامي في أوروبا الشرقية) ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى عام ١٩٨٢م ، ص ٨٩

١٣- انظر : المرجع السابق ، أحمد كوندز ، الدولة العثمانية المجهولة ، ص ١٢٩ – ١٣٥.

14- Thomas w. Arnold, The Caliphate, London 1965, P.135

١٥- كانت مناعة أسوار القسطنطينية تأتي في المرتبة الأولى عالميا ، فقد كان ارتفاع الشرفات ١٧م ، وما بين الشرفات ١٥م ، ويبلغ السمك في الأعلى ٤م ، وفي القاعدة أضعاف ذلك ، وكان عرض الخندق الموجود أمام الأسوار حوالي ١٨.٥م وعمقه ٩م مملوئة بالماء ، كان للأسوار المكونة من طوابق عديدة ٣٠برجا مكسياً بالرصاص ، وكان المعروف أن المدينة لا يمكن إسقاطها إلا بحصار محكم يتمكن من تجويعها ست سنوات . انظر : يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، الجزء الأول ، ترجمة : عدنان محمود سليمان ، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل - استانبول ١٩٨٨م ، ص ١٣٢، ١٣٣

١٦- كانت أولى المحاولات لفتح القسطنطينية على يد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان (رضي الله عنه) عام ٣٢للهجرة / ٦٥٣م ، وكان الجيش بقيادة معاوية بن أبي سفيان ، والاسطول بقيادة بشر بن أرطأة ، وكانت المحاولة الثانية عام ٤٤للهجرة / ٦٦٤م ، حيث قام الخليفة معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه) باستئناف غزو إفريقية من جهة الغرب ، ومحاولة فتح القسطنطينية من جهة الشرق بواسطة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وكانت المحاولة الثالثة على يد معاوية أيضا ، حيث حشد قواته عام ٤٩للهجرة/٦٦٩م بقيادة يزيد بن معاوية وسفيان بن عوف وجماعة من أكابر الصحابة ، منهم عبد الله بن العباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وأبو أيوب الأنصاري وكان الأسطول بقيادة بشر بن أرطأة . كانت المحاولة الرابعة هي أعظم المحاولات

وأقربها إلي النجاح ، حيث علم الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك (٦٩ ه / ٧١٥م – ٩٩ ه / ٧١٨م) من الفقهاء أن فاتح القسطنطينية إسمه على اسم نبي ، فحشد أكبر قوة عسكرية في البر والبحر وزودها بكمية هائلة من المؤن والزخائر والعدد وآلات الحصار لحرب الشتاء والصيف ، وانتدب سليمان أخاه مسلمة بن عبد الملك لقيادة الحملة ، وأمره ألا يبرح القسطنطينية حتى يفتحها أو يأتيه أمره ، فسار مسلمة عام ٩٨ للهجرة وافتتح عدة مدن حتى وصل إلي القسطنطينية بأكبر عدد حصار ، حيث يقول المؤرخون أنه وصل إلي مائة وثمانين ألفاً من البر ، ووصل عدد سفن الأسطول في حصار البحر إلي ألف وثمانمائة سفينة ، وهى أكبر قوة بحرية في تاريخ السلام ، واستمر حصار المدينة من البر والبحر حوالي سنة ، حتى عمت المجاعة والقحط قوات الجيش ، فأمر الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١ ه) برفع الحصار والعودة ، وكان هذا الإخفاق حاسماً في تارخ الاسلام ، فلم تأت بعد ذلك محاولة جادة لفتح القسطنطينية حتى قيام الدولة العثمانية . انظر : محمد عبد الله عنان ، مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، هيئة الكتاب ، مكتبة الأسرة عام ١٩٩٧م ص ٤٠ : ٥٠ ، انظر : ابن العماد ، شذرات الذهب ، (ج١ / ص ١٥٩) ، انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ، (ج ٨ / ص ١٢٧) ، انظر : ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، (ج ٣ / ٢٥ ، ج ٥ / ٢٤٨) .

١٧- تم بناء هذه القلعة في زمن قياسي ، يبلغ ارتفاعها عن سطح البحر حوالي ٨٢م ، تشتمل على ثلاثة أبراج ، مساحة القلعة حوال ٣٠٢٥٠م مربع . انظر : أوزتونا ؛ تاريخ الدولة العثمانية ج١ ، ص ١٣١

١٨- يستطيع هذا المدفع العظيم إطلاق قذائف تزن ١٢٠٠ رطل ، عيار فوهته ٧٠٠مم ، وطوله يصل إلي ثمانية أمتار ، ولقد أمر الفاتح بإعداد تجربة لإطلاق هذا المدفع ، فأحدثت قذيفته فجوة في الأرض عمقها ستة أقدام ، وسمع دوى انفجاره من على بعد عشرة أميال ، وسقطت القذيفة على مسافة ميل من المدفع ، ونتيجة لما كان يمكن أن تحدثه عملية إطلاق المدفع من رعب وهلع للسكان في أدرنة ، ،فإن السلطان أمر المنادين بأن يخبروا الناس بأنه سيحدث إنفجار هائل ، ربما يؤدي إلي إجهاض النساء الحوامل ، أو فقد البعض للنطق خوفاً وهلعاً ، ولقد سوى الطريق من أدرنة إلي القسطنطينية لتسهيل جر المدفع بواسطة ستين ثوراً من الأمام وأربعمائة رجل من الجانبين انظر : Doukas, Decline and fall of Byzantine to Ottoman, Translated by Hary J. Magoulias , P. 20

١٩- المرجع السابق ، نيقولا باربارو ، الفتح الاسلامي للقسطنطينية ، ص ١٥٦ ، ١٥٧

٢٠- وفيق بركات ، فن الحرب البحرية في التاريخ السلامي ، منشورات جامعة حلب (معهد التراث العلمي العربى) ، ١٩٩٥م ص ٥٥

٢١- كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة : نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، دار العلم للملايين – بيروت ، الطبعة الخامسة ، ص ٤٦٨

٢٢- إشتركت في الحرب العالمية الأولى من جميع الدول المشتركة ٣٠٠٠ سفينة ، وفي الحرب العالمية الثانية حوالي ٤٠٠٠ سفينة . انظر : المرجع السابق ، وفيق بركات ، فن الحرب البحرية الخ ، ص ٦٨ ، انظر : الأسطول الإسلامى في حصار القسطنطينية :

عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادى ، تاريخ البحرية الســلامية في المغرب والأندلس ، الاسكندرية عام ١٩٨٥م .

٢٣- المرجع السابق ، نيقولا باربارو ، الفتح الاسلامى للقســطنطينية ، ص١٢٠

24- Doukas , op . cit , P. 82 : 86

25- J. Shaw, History of the Ottoman empire and modern turkey, Cambridge 1976, Vol.1, P. 56 – 57

٢٦- المقريزي ، المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، الجزء الأول ، مكتبة الثقافة الدينية ، الطبعة الثانية ١٩٨٥م .

٢٧- المرجع السابق ، نيقولا بربارو ، الفتح الســلامي للقســطنطينية ، ص ١٣١

٢٨- لقد ذكرت المصادر هذه الحيلة في عجب حتى أن دوكاس المؤرخ البيزنطى المعاصر كتب قائلا : (ما رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشئ الخارق ، محمد الثانى يحول الأرض إلي بحار ، وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج ، لقد فاق محمد الثانى بهذا العمل الإسكندر الأكبر) انظر : Doukas, op . cit. P. 82 : 86

٢٩- ايرينا بيتروسيان ، الإنكشاريون في الإمبراطورية العثمانية ، مركز جمعية الماجد للثقافة والتراث – دبي ، السلسلة المشتركة للبحــوث والمصادر في تاريخ الجزيرة العربية وبلدان الخليج رقم ٣ ، عــام ٢٠٠٦ م ، ص ٩٨ عن تعداد الجيش العثمانى أثناء الحصار انظر : المراجع السابقة ، Doukas , shaw, وبربارو .

٣٠- المرجع السابق ، بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص ٤٦٧

31- Doukas, op. cit, P. 213

٣٢- المرجع السابق ، باربـــارو ، الفـــتح الأســـلامي للقســـطنطينية ، ص ١١٨

٣٣- يذكرنا ذلك الوصف بقول الله تعالى : (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) سورة الصف آية (٤)

٣٤- تم تشييد ذلك البرج بالطريقة التالية : في البداية تم صنع إطار من الدعامات الخشبية المتينة ، وتمت تغطيتها وتطويقهـــا بـــالجلود . وكانت مليئة من الداخل بالرمال حتى المنتصف ، كذلك أحاطت بها الرمال من الخارج حتى منتصفها ، كي لا تستطيع قذائف المـــدافع أو البنادق أو حتى السهام القصيرة القوية إصابتها بأضرار ، كذلك قاموا بوضع حواجز خشبية تمت تغطيتها بالجلود . انظر : المرجع السابق ، باربارو ، ص ١٥٣ ، ١٥٤

٣٥- المرجع السابق ، باربارو ، ص ١٥٥ ، ١٥٦

٣٦- هذا يذكر بقوله تعالى : (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتـــاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلـــون وتأســـرون فريقا * وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لـــم تطئوهـــا وكان الله على كل شئ قديرا) سور الأحزاب الآيات ٢٦ ، ٢٧

٣٧- المرجع السابق ، باربارو ، ص ١٢٣

٣٨- سالم الرشيدي ، محمد الفاتح ، دار البشير للثقافة والعلوم – طنطا ، الطبعة الأولى عام ٢٠٠٠م ، ص ٤٨

39- George Ostregorsky, Historyof the Byzantine state, Translated from German by Toan Hussey, Aeutgeras university press 1997, P. 568

٤٠- المرجع السابق ، باربارو ، ص ١١٣ ، ١١٨

٤١- محمد فريد المحامى ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، دار النفائس ، الطبعة الأولى ١٩٨١م ، ص ١٦٤

٤٢- ألقى السلطان محمد الفاتح خطبة في الجيش بعد إعلانه عن موعد الهجوم قائلا : (إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعجزة من معجزاته ، وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التمجيد والتقدير ، فأبلغوا أبناءنا العساكر فرداً فرداً ، إن الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدراً وشرفاً ، ويجب على كل جندى أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه ، فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافى هذه التعاليم ، وليتجنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى ، ويدعوا القسس والصغار والعجزة الذين لا يقاتلون) انظر : المرجع السابق ، سالم الرشيدي ، محمد الفاتح ، ص ٧٩

٤٣- المرجع السابق ، باربارو ، ص ١٧٠

٤٤- سبق ضابط شاب صغير الرتبة حديث السن اسمه (أولو بادلى) مع ثلاثين جنديا في الوصول إلي أعلى الأسوار ، وركز راية الجيش فوق أسوار طوبقابي (بوابة المدفع أو بوابة القديس رومانوس) واستشهد في نفس اللحظة بواسطة مئات السهام والحجارة التي أطلقت عليه ، واستشهد معه ثمانية عشر جنديا ، لكن البقية (اثنى عشر جنديا) حافظوا على الراية فلم تقع من أيديهم ولم تسقط بعد ذلك أبداً ، ترجل السلطان محمد عندما شاهد الراية العثمانية ترفرف فوق طوبقابي عن حصانه ، وخر على الأرض ساجداً حامداً الله على تحقيقه نبوءة رسول الله) انظر : المرجع السابق ، أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٣٩

٤٥- خليل اينالجيك ، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء الي الانحدار ، ترجمة محمد الأرناؤوط ، دار المدار الاسلامي ، الطبعة الأولى عام ٢٠٠٢م ، ص ٤٢

٤٦- المرجع السابق ، بروكلمان ، ص ٤٣١

٤٧- يروى أنه عندما دخل الفاتح قصر الامبراطور ردد قول الشاعر الفارسي :العنكبوت تنسج خيوطها في قصر القياصرة والبوم يسمع صداه على قباب الأكاسرة

٤٨- المرجع السابق ، محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية الخ ، ص ١٦٥

٤٩- المرجع السابق ، برنارد لويس ، استانبول وحضارة الخلافة الاسلامية، ص ٤٩

٥٠- جاء الفاتح لينظم الحركة التعليمية في أعلى المستويات ، لتخرج العلماء والأساتذة والقضاة والمهندسين والأطباء ، فأنشأ بجانب جامعه الكبير (جامع الفاتح) عام ١٤٧٠م كلية التعليم العالي ، والتي عرفت بمدارس الصحن الثمان ، كانت تتكون من ثمانية أبنية والحقت بها ثمان مدارس أخرى كانت تسمى بمدارس (تتمة) وهى بمثابة المعاهد الإعدادية قبل التخصص والمتخرجون منها يلتحقون إن شاءوا بمدارس الصحن للتخصص ، أو يعينون قضاة في المدن الصغيرة غير استانبول وأدرنة وبروسة ، وكانت كل وحدة من وحدات مدارس الصحن تشتمل على حجرات وقاعات لإلقاء الدروس ، وحجرات للأساتذة و١٢٠ حجرة مخصصة لسكن الطلبة ، يسكن في كل منها طالب واحد ، ويصرف له ١٢ آقجة كمرتب شهري لمصرفات الجيب ، وبجوار المدارس مطعماً خيرياً ومستشفى كامل المعدات . انظر : سيد رضوان على ، السلطان محمد الفاتح ، ص ٧٦ ، ٧٧

٥١- سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوروبا في العصور الوسطى ، الجزء الثانى ، مكتبة النهضة المصرية ، عام ١٩٥٩م ، ص ٢٨٦

٥٢- المرجع السابق ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، (ج٢ / ص ٣١٦)

٥٣- أوزون حسن : أو حسن الطويل ، هو أمير أمراء اتحاد قبائل الآق قيونلو أو الشاة البيضاء التركمانية ، التى استقرت منذ القرن الرابع عشر الميلادي حول ديار بكر وكانت تدين بالاسلام ، توسعت المملكة على عهد أوزون حسن ، فشملت ديار بكر وأرمينية والعراق وأجزاء من فارس وخراسان ، حاول أوزون حسن التوسع في الأناضول على حساب الدولة العثمانية ، لكنه اصطدم بقوة محمد الفاتح ، فوجه وجهه بعد ذلك شطر الدولة التيمورية في خراسان وما وراء النهر .

٥٤- المرجع السابق ، سيد رضوان على ، السلطان محمد الفاتح ، ص ٥٣

٥٥- المرجع السابق ، أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٤٣

٥٦- انظر : شارل ديل ، البندقية جمهورية أرستقراطية ، تعريب : أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر ، القاهرة ١٩٤٨م

٥٧- نادية محمود مصطفى ومجموعة باحثين ، العصر المملوكى من تصفية الوجود الصليبي إلي بداية الهجمة الأوروبية الثانية ، المعهد العالمى للفكر الاسلامي (مشروع العلاقات الدولية في السلام رقم (١٠)) ، القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٦م ، ص ١١٠

٥٨- أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني ، دار الشروق ، ص ٧٢

٥٩- المرجع السابق ، أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٥٠

٦٠- المرجع السابق ، أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثمانى ، ص ٧١

٦١- يذكر أن السلطان محمد الفاتح قد زار أثينا مدينة الحكمـاء بنفسـه حتى يشاهد آثارها وفنونها ، فقد كان محبا للفنون ، لذا زار الآثـار اليونانية خاصة معبد الأكروبول ولم يمس روائع الفن فيها بسوء ، بخلاف البنادقة الذين دخلوا أثينا ، فدمروا بمدافعهم كثيراً من الآثار اليونانية القديمة ، وفي القرن التاسع عشر سرق السفير الانجليزي لورد الجن Eigin التماثيل الباقية الرائعة التى كانت تزين جدرانه، وهى الآن في قاعة خاصة بالمتحف البريطانى بلنـدن . انظـر : المرجع السابق ، سيد رضوان على ، السلطان محمد الفـاتح ، ص ٤٦ ودليل آخر على تسامح السلطان الفاتح وحبه ورعايته للفنون ، أنه لم يمس الفسيفساء البيزنطية (الموزايك) الموجودة في كنيسة آيا صوفيا ، بالرغم من تحويلها الي مسجد ، واكتفى بتغطيتها بطبقـة رقيقة من الجص . ولقد أزالها كمال أتاتورك بعد تحويل الدولة إلي جمهورية عام ١٩٢٤م فظهرت الفسيفساء الأصلية ، ويذكر أنه قد تم تحويل الجامع إلي متحف وظل هكذا حتى الآن .

٦٢- دراكولا :هو أمير رومانى سمى بالشيطان ، يعتبر بطلا وطنيا في رومانيا لقيامه بالوقوف أمام التوسع العثماني فيما بين عامي ١٤٥٦ – ١٤٦٢م ، فلقد هزم عدة جيوش عثمانية نظامية ، ولقد نسـجت حول شخصيته الكثير من الأساطير لشدة قسوته ووحشيته وكثـرة سفكه للدماء ، حتى قيل عنه أنه مصاصا للدماء ، إنهزم على يـد العثمانيين عام ١٤٦٢م ، وعزل عن إمارته وقتل بعد ذلـك عـام ١٤٧٤م على يد أحد عبيده .

٦٣- المرجع السابق ، أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٧٤

٦٤- المرجع السابق ، ١٧٥ ، ١٧٦

الفصـــل الثـالـــث

المرحلـة الثالثـة (١٤٨١ – ١٥٢٠م)

نحـو دولة إسلاميـة عالميـة ٢

- **بايزيد الثاني (١٤٨١ – ١٥١٢م)**
- سقوط غرناطة وبداية التوجه العثماني إلي غرب المتوسط .
- جذور الصراع العثماني الصفوي .
- **سليم الأول (١٥١٢ – ١٥٢٠م)**
- التوجه العثماني شطر المشرق العربي وأسبابه :

أولاً : الخطر البرتغالي

ثانياً : الخطر الإسباني

ثالثاً : الخطر الصفوي

- **فتح مصر والقضاء على المماليك .**

الفصل الثالث

المرحلة الثالثة (١٤٨١ – ١٥٢٠م)

نحو دولة اسلامية عالمية ٢

تمهيد :

لقد بدأت الدولة العثمانية مرحلة جديدة بعد موت الفاتح ، كانت مرحلة الفاتح أساسية بالنسبة لثقل الدولة عالمياً ، وحسم صراعاتها في أوروبا ، نستطيع أن نقول أن استراتيجية الدولة في عهد الفاتح إتجهت بالكامل ناحية القارة الأوروبية ، لكن ما لبثت الدولة أن اتجهت اتجاهات جديدة ، أشارت إلي الدور الإقليمي والعالمى الجديد الذي ستلعبه في هذه المرحلة وفي التى تليها . لقد غطت هذه المرحلة فترة حكم كل من السلطان بايزيد الثانى بن محمد الفاتح (١٤٨١ – ١٥١٢م) ، ومن بعده ابنه السلطان سليم الأول (١٥١٢ – ١٥٢٠م) ، لقد بدأ العالم في ظل هذه المرحلة يظهر بثوب العصر الحديث ، بدأت تغيرات تطرأعلى الساحة العالمية ، نتج عنها الكثير على الصعيد السياسي والإقتصادي ، لقد بدأت الكيانات السياسية الحديثة تظهر في أوروبا ، وعلى هذا الأساس بدأت قوى العصر الوسيط في الأفول ، لم تعد قوى العالم التقليدية هى المتحكم الرئيسي في الإقتصاد والتجارة وهو السبب الأول في السيطرة والهيمنة ، بل انتقل هذا الدور لدول العصر الحديث التي خرجت بكل ثقتها من ظلام العصر الوسيط في أوروبا ، لتشكل بعد ذلك أساساً لنهضة علمية وثقافية ، دفعت أوروبا إلى خارج حدودها السياسية ، لتنطلق إلي ما يسمى بالإستعمار الحديث .

لم تعد السلطنة المملوكية في مصر والشام والحجاز هى المسيطر الأول على طرق التجارة الرئيسية من الشرق إلي الغرب ، كذلك لم تعد الدول البحرية العظمى مثل البندقية وجنوة هى الوسيط التجارى بين الشرق

وأوروبا ، لقد أسهمت التغيرات السياسية الجديدة في العالم في حدوث انقلابات كبيرة على صعيد توازن القوى العالمى .

لقد استطاعت الممالك المسيحية في شبه جزيرة أيبيريا انهاء الدور الاسلامى في غرب أوروبا نهائياً ، بالقضاء على دولة بنى الأحمر في غرناطة عام ١٤٩٢م ، بعد أن توحدت مملكتى قشتالة Castile وأراجون Aragon الاسبانيتين تحت قيادة الملكين الكاثوليكيين فردناندFerdinand وايزابيلا Isabella[١] ، هذا بالطبع بعد أن استطاعت البرتغال التخلص من الحكم الاسلامي نهائياً ، ولقد أدى ذلك إلي انتقال ميزان القوى الأوروبية إلي الغرب ، وبالتالي القوة الروحية ، فأصبح ملك اسبانيا هو راعى الكاثوليكية الأول ، هكذا انتقل مركز الحملات الصليبية الموجهه ضد المسلمين الي غرب أوروبا ، وبالتالي انتقل الجزء الأكبر من الصراع الأزلى بين المسلمين والنصارى إلي الحوض الغربي للبحر المتوسط ، وكان من نتاج هذا الصراع ظهور ما يسمى بحركة الكشوف الجغرافية ، التى أدت إلي إسقاط الدور المملوكى ، ومن ثم دور الجمهوريات الإيطالية البحرية كوسيط تجارى بين الشرق والغرب ، وهذا ما أحدث الخلل في ميزان القوى ، فقد بدأ الانهيار السريع يسري في أوصال الدولة المملوكية ، التى اعتمدت بشكل رئيسي في تدعيم قوتها على نفوذها التجارى ، وبدأت كذلك القوى البحرية التقليدية في البحر المتوسط الإنهيار شيئاً فشيئاً ، تاركة الساحة خالية لكل من اسبانيا والبرتغال ، ولم تظهر قوى أخرى في العالم الاسلامي والبحر المتوسط قادرة على الوقوف أمام هذه القوى الجديدة الفتية غير الدولة العثمانية ، التي كانت تسير في ذلك الوقت بسرعة كبيرة نحو العالمية ، وتقلدها الصدارة سواء على المستوى الاقليمي أو المستوى الاسلامى ، ومن ثم المستوى العالمى والمتوسطى .

لقد شكلت هذه المرحلة بالفعل أحداثاً حاسمة على مستوى العــالم ، أمــا بالنسبة للدولة العثمانية ، فقد كانت بالفعل على مستوى الأحداث العالميــة فلم تقف منها موقف المتفرج ، وأدرك قادتها سريعاً التغيرات الحادثــة ، وضرورة التحرك باستراتيجيات جديــدة لمواكبــة الأحــداث العالميــة واحتوائها ، لقد بدأ الخطر يتهدد معظم الدول الاســلامية مــن الشــرق والغرب ، بسبب تحرك العالم المسيحي في حملات صليبية جديدة بقيــادة إسبانيا والبرتغال لاستهداف العالم الاسلامي ، إلي جانب تأســيس دولــة شيعية جديدة على أطراف العالم العربي من الناحيــة الشــرقية ، بــدأت تخطط بالتعاون مع البرتغال للتسلل إلي العالم العربي ، بل والسيطرة على الأراضي المقدسة ، لذلك لم يكن الإتجاه ناحية أوروبا في هذه المرحلــة يعنى الكثير بالنسبة للدولة العثمانية ، بقدر ما كان المشــرق الإســلامي يحتاج إلي تدخلها ، لقد توجهت الدولة العثمانية في هذه المرحلة بكل ثقلها الي العالم العربي والشرق الأدنى ، لتكون مشاركاً رئيسياً علــى مســرح الأحداث ، ومن هنا بدأت الدولة تنال مركز الصدارة والهيمنة على العالم الإسلامي ، واستطاعت بمقدرة ملء الفراغ السياسي الناتج عن ضــعف بلدان العالم الإسلامي شرقاً وغرباً ، مما سيؤدى بها في المرحلة القادمــة للوصول إلي أوج قوتها وسيطرتها.

بايزيد الثاني (١٤٨١ – ١٥١٢م) :
لم يلبث السلطان الفاتح أن مات فبدأ الصراع بين ولديه بايزيد وجم على السلطة ، وكان ذلك الصراع سبباً من أسباب توقف فتوحات الدولة على الصعيد الأوروبي لفترة من الوقت ، وفي خضم هذا الصراع أعترف بجم سلطاناً في بروسة ، في الوقت الذي أصبح فيه بايزيد سلطانا على الدولة في استانبول ، لذلك اقترح جم تقسيم الإمبراطورية بينه وبين أخيه شطراً آسيوياً والآخر أوروبياً ، لكن بايزيد لم يستمع له وانقض عليه في آسيا وهزمه ، فاضطر جم إلي اللجوء للسلطان المملوكى قايتباي[٢] في مصر.
لقد بدأت العلاقات تتوتر بين العثمانيين والمماليك منذ أن وافق السلطان قايتيباي على إيواء الأمير جم ، لكن الحق أن هذه الحادثة لم تقلب العلاقات فوراً بين البلدين ، لقد بدأت التوترات بين العثمانيين والمماليك منذ فترة حكم السلطان الفاتح بسبب اشتراكهما في حدود واحدة جنوبي الأناضول ، ومحاولة كل دولة بسط نفوذها على بعض الإمارات الصغيرة في هذه المنطقة ، لكن تلك الخلافات لم تؤد الي صدام مباشر بين القوتين.
لقد ازداد الأمر تعقيدا بالنسبة للعثمانيين بعد التجاء الأمير جم إلي فرسان القديس يوحنا في رودس ، الذين حافظوا عليه كورقة ضغط في يد الصليبيين أمام الدولة العثمانية ، لذلك انتقل الأمير جم بعد ذلك إلي فرنسا ثم ايطاليا وظل هناك حتى توفى على الأرجح بالسم عام ١٤٩٥م . ولهذا السبب كانت سياسة السلطان بايزيد تتسم بالحذر تجاه أوروبا في بداية حكمه ، فلم يستطع إكمال ما بدأه أبوه مباشرة بعد توليه السلطة .
لكننا لا نستطيع أن نلقى كل التبعية على الأمير جم ، فقد كان السلطان بايزيد بطبعه يميل إلي السلام ، ولم يكن يمتلك طموح أبيه وهمته وإصراره على التوسع والفتح ، لذلك أطلق عليه لقب (الصوفي)[٣]لاهتماماته الأخرى المتعددة خارج نطاق الحرب والفتح ، لكنه رغم ذلك لم يكن مستكيناً قابعاً بل ظل محافظاً على سياسات الدولة التى بدأها أسلافه ، ولكن بطريقة معتدلة وازن فيها بين الحرب والسلم ، لقد وجد بايزيد أن الفتوحات التى أنجزت خلال عهد أبيه تحتاج كثيرا من الوقت لاحتوائها ، هكذا انتهج سياسة السلطان مراد الثانى ، التى تعتبر أفضل السياسات نفعاً في مثل هذه الظروف[٤] ، حيث عدم التوسع في الفتوحات بغية الإستقرارو البناء الداخلى للولايات وترتيب أمورها ،

بالرغم من ذلك فقد أملت عليه الظروف الدخول في حروب على الجبهة الأوروبية ، بالإضافة إلي الجبهة المملوكية التي بدأت في الاحتقان بالفعل.

على الصعيد الأوروبي ، أملت السياسة الخارجية على السلطان بايزيد القيام بنشاط حربي في أوروبا ، خاصة بعد تخلص أوروبا من ورقة الضغط (الأمير جم) ، الذي مات عام ١٤٩٥م ، وبعد أن انتهت الحرب مع الدولة المملوكية بعقد الصلح بين البلدين ، بدأت الجبهة الأوروبية في الإحتقان ، لقد استغل ملك بولندا استيفان الكبيرStephan وضع الدولة العثمانية وانشغالها بفتنة جم ثم بالحرب مع المماليك ، وبدأ في عبور الدانوب وغزو والاشيا وبلغاريا ومولدافيا ، واستطاع الوصول بقواته الي البحر الأسود ، لقد استطاع استيفان الكبير من قبل الحيلولة دون السيطرة العثمانية المباشرة على سواحل البحر الأسود الغربية في عهد الفاتح ، ولقد منع ذلك الدولة من تأسيس مواصلات برية حول ذلك البحر وتحويله الي بحيرة عثمانية ، لقد استطاع استيفان مد نفوذه بالفعل إلي مولدافيا وأجزاء من والاشيا الموالية للحكم العثماني ، هكذا أصبحت سياسة الدولة تقتضي رد هذه الأجزاء ، وإقامة منطقة حكم مباشر للدولة في الأفلاق والبغدان ، للحد من تدخلات دول شمال الدانوب ، سواءً المجر أو بولندا . لقد استطاع بايزيد بالفعل مد منطقة نفوذ مباشر إلي الأجزاء الساحلية من البغدان ، ورد استيفان الكبير إلي شمال الدانوب ، لقد تحول بذلك البحر الأسود الي بحيرة عثمانية تخضع للحكم العثماني المباشر.[٥]

ومن ناحية أخرى ، كانت المجر حليفة بولندا تقوم بحملات أخرى من ناحية البلقان بغية اخضاع الصرب ومد نفوذها جنوبى الدانوب ، لكن السلطان بايزيد بدء بارسال الحملات من الصرب والبوسنة بحذاء ساحل دلماشيا ، وعبر الدانوب إلي الأراضي المجرية ، وقد أدت هذه الغزوات

إلي الفتح النهائي للهرسك عام ١٤٨١م ، فيما عدا كرينا الساحلية التـــي ظلت في يد البنادقة.(٦)

لقد كانت التحركات التي قام بها السلطان بايزيد غربي البلقان على جانب كبير من الأهمية ، ويمكن اعتبارها نوعا من عمليات تطهير البلاد مـــن العناصر المضادة ، في أعقاب المعارك الكبيرة التى انتصر فيها السلطان محمد الثانى ، أو نوعا من حماية حدود جنوب خط الـــدانوب – ســـافا ، الذي كان يمثل حدوداً طبيعية ملائمة في تلك الأيام ، كما كفلـــت تأمينـــاً نسبياً للمتلكات العثمانية في أوروبا.(٧)

لقد شهد الغرب الأوروبي في تلك الفترة تطورات هامة ، خرجت به من إطار حدوده إلي الصراعات السياسية الحادثة على الساحة الدولية ، لقـــد سبقت الإشارة الي أن مطلع العصر الحديث بدأت فيه الصراعات القومية تحل محل الصراعات الدينية ، فقد بدأت الدول الأوروبية خاصة الغربية منها تتجه نحو القومية وتصارع من أجلها حتى أدى ذلك الصراع إلـــي تصادم القوميات بعضها ببعض في حروب طويلة منـــذ أواخـــر القـــرن الخامس عشر وحتى منتصف القرن السادس عشر ، وهى ما عرفت باسم (الحروب الايطالية) Italian Wars ، لأن النزاع حول إيطاليا المقســـمة إلي دويلات وإمارات كان من أهم أسبابها ، فكانت كل من فرنسا وإسبانيا تحركهما الأطماع للسيطرة على إيطاليا ، وقد ترك هذا الصـــراع آثـــاره على الدول المتجاورة ، حيث أن سيطرة إحدى الدولتين على إيطاليا كان كفيلا بأن يعطيها مركز قوة يهدد الآخرين ، وكان على هـــذه الـــدول أن تتحالف لموازنة قوة هذه الدولة ، وهكذا ظهرت قاعدة توازن القوى في التاريخ الأوروبي الحديث ، لذلك نجد أن بعض دويلات أوروبا تنضم إلي إسبانيا أو فرنسا ضد البعض الآخر، ثم ما تلبث أن تغير هذا التحالف إذا ظهر خطر يهدد مصالحها ، ولقد اختتمت هذه الحـــروب عـــام ١٥٥٩م

بمعاهدة كاتو كامبرسيس (Cateau – Cambresis) وهى أول تسوية عامة شهدتها أوروبا في العصر الحديث.(٨)

ولقد ظهر العداء مستحكماً بعد ذلك بين كل من إسبانيا التي سيطرت على إيطاليا والأراضي المنخفضة باسم (الامبراطورية الرومانية المقدسة) Holy Roman Empire ، وبين فرنسا التى وقفت حاجزاً بين جناحى الإمبراطورية كدولة قومية معادية ، وهذا بالطبع قد أدى فيما بعد إلي التقريب بين فرنسا و الدولة العثمانية العدو اللدود لإسبانيا .

لقد امتلك السلطان الفاتح نظراً ثاقبا فيما يخص إيطاليا ، لقد أدرك منذ وقت مبكر أهمية ايطاليا الإستراتيجية وموقعها الحيوي ، الذي يمكن من يمتلكها من السيطرة على معظم أوروبا ، خاصة الجزء الغربي منها ، فضلاً عن التحكم في طرق الملاحة الرابطة بين حوضي البحر المتوسط، لكن النزاع بين دول أوروبا على امتلاك إيطاليا بعد موت الفاتح ، قد أطاح بآمال الدولة العثمانية في امتلاكها ، فلم يفكر السلاطين اللاحقون جدياً في السيطرة على إيطاليا ، بعدما وقعت ضمن حدود الإمبراطورية الإسبانية في القرن السادس عشر .

لكن الدولة العثمانية بالرغم من ذلك لم تقف موقف المتفرج من الصراع الأوروبي الدائر حول إيطاليا ، فقد كان لها موقفاً معادياً للدور البندقي ، بسبب تضارب المصالح المستمره بين البلدين خاصة في البلقان وبحر إيجه ، لقد حافظ السلطان بايزيد الثانى في السنوات الأولى لحكمه على العلاقات السلمية مع البندقية ، بالرغم من احتلالها قبرص ، بيد أن العلاقات بين البندقية وفرنسا مالبثت أن أوقعت الشك في نفسه.(٩)

فبعد وفاة الأمير جم عام ١٤٩٥م ، بادر السلطان بايزيد بإعلان الحرب على البندقية وفي خضم هذه الحرب تدخلت الدولة سياسيا في الصراع

القائم حول الدويلات الايطالية ، فقد دعمت الدولة العثمانية ميلانو ونابولى ضد تحالف فرنسا والبندقية ، وقد وعد بايزيد نابولى بإرسال مساعدة عسكرية مؤلفة من خمسة وعشرين ألف جندى ، إلا أنه طالب في المقابل بأوترانتو.(١٠)

وبالفعل استطاعت الدولة العثمانية السيطرة على أوترانتو ، واستمر الصراع العسكري قائما بين الدولة العثمانية والبندقية حتى عام ١٥٠٢م ، كان النصر فيها حليفاً للعثمانيين ، فقد استولى العثمانيون على ليبانتو ومودون في بلاد اليونان عام ١٥٠٠م. ولقد شكلت المواقع التى استولى عليه العثمانيون في الصراع مع البندقية مركزاً هاما استطاعوا من خلاله الإشتراك في الصراع الحادث في البحر المتوسط ، ليس فقط في شرقه بل في ناحيته الغربية أيضا ، لقد بدأت الدولة العثمانية بالفعل في الظهور كدولة بحرية كبرى .(١١) لقد أظهرت حرب البندقية أن الاسطول العثمانى قادر على المواجهه المباشرة لأقوى أساطيل العالم في ذلك الوقت (اسطول البندقية) ، لقد بدأت البحرية العثمانية في اكتساب خبرات واسعة بسرعة كبيرة ، خاصة بعد أن عمل السلطان بايزيد على تقوية الاسطول، وزيادة أعداده وأحجام سفنه ومستوى تجهيزاته . لقد تمكن العثمانيون في غضون هذه الحرب من بناء أكبر سفينتين حربيتين عرفتا في ذلك الوقت بحمولة ١٨٠٠ طن.(١٢)

ومنذ ذلك الوقت نستطيع القول أن صراعات الدولة العثمانية لم تقتصر على شرقي البحر المتوسط ، لقد انتقل الصراع بنسبة كبيرة إلي غربه ، خاصة بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م ، حيث بدأ الأسبان في الوصل إلي شمال افريقيا بحملات حربية واسعة النطاق ، فلم يكن النفوذ السياسي فقط هو الذي يحرك الأسبان الي تلك البقاع ، بل إن نوازع الحرب الصليبية القائمة في تلك المناطق ضد المسلمين منذ قرون ، كان لها

عاملاً قوياً في تحريك هذه الحملات ، خاصة بعد هـروب الكثيـر مـن المسلمين إلي شمال إفريقيا بعد سقوط آخر قلاعهم الأوروبية (غرناطة) ، فضلا عن بداية ما يسمى بحركة الجهاد البحري في شمال إفريقيا .

سقوط غرناطة وبداية التوجه العثمانى إلي غرب المتوسط :

من أجل فهم محاور الصراعات في منطقـة الحـوض الغربـي للبحـر المتوسط ، لابد لنا أولاً أن نتطرق إلي جذور هذه الصـراعات ، التـى امتدت منذ العصور الوسطى ، حيث لم يهدأ الصراع الكبير بين الإسـلام والمسيحية في هذه المناطق منذ دخول المسلمون الأوائل بـلاد المغـرب والأندلس في القرن السابع الميلادى ، فقد شكلت هذه الصراعات ، التـى كانت بين مد وجذر ، أساساً عميقاً لصراعات العصر الحديث .

لقد توحد المغرب العربي والأندلس لآخر مرة في العصر الإسلامي فـي ظل دولة الموحدين(١٣) ، التي تعتبر من أعظم الدول في تاريخ الاسلام ، لقد بلغت بتاريخ المغرب ذروته خلال العصور الوسطى ، وتمكنت مـن تحقيق وحدته وحكمه لفترة طويلة من طرابلس إلي المحيط ، ومن ساحل المتوسط إلي مشارف إفريقيا المدارية هذا بالإضـافة الـي ملكهـم فـي الأندلس.(١٤)

ولكن ما لبثت هذه الدولة أن بدأت في الإنهيار بعد هزيمتها القاسية علـى يد الصليبيين في الأندلس في موقعة العقاب عام ١٢١٢م ، والتى تعتبـر بداية لنهاية المسلمين في الأندلس ، وبداية التشتت والتشرذم والتناحر في بلدان المغرب العربي .

ففي الأندلس أدت الهزيمة إلي تشجيع ملوك النصارى على المضى قـدماً في الإستيلاء على الحصون الإسلامية دون مقاومة تقريبا ، فأخذت كبار العواصم في السقوط ، وانهار خط الوادى الكبير ، وفيما بين عامي ٦٣٣ – ٦٤١ هـــ / ١٢٣٦ – ١٢٤٣م سـقطت قرطبـة Córdoba

وإشبيلية Sevilla وجيان Géant ومرسية Murcia) وبلنسية València وجزر البليار Balearic Islands ، ويكفى أن نذكر أن قرطبة عاصمة الأندلس الزاهرة ، سقطت عام ٦٣٣ ه / ١٢٣٦م في يد فرناندو الثالث Ferdinand III ملك قشتالة الملقب بالقديس دون أن يدافع عنها أحد .

وبعد سقوط هذه القواعد وضياع خط الوادى الكبير ، تجمع بقايا المسلمين في الأندلس تحت لواء محمد بن نصر بن الأحمر ، الذي اعتصم بجبال غرناطة واتخذها مقراً لمملكة صغيرة في الجنوب الغربي لشبه جزيرة أيبيريا ، وبدأ تاريخ هذه المملكة عام ٦٣٠ ه / ١٢٣٣م ، واستطاعت الحفاظ على الركن الجنوبي من الأندلس (ثمن شبه الجزيرة تقريبا) حتى عام ٨٩٧ ه / ١٤٩٢م ، عندما سقطت في يد فرناندو وايزابيلا وانتهت بذلك دولة الاسلام في الأندلس .

لكن الأمر لم ينته عند هذا الحد ، فقد خلف ذلك الصراع قضية سميت بالقضية الموريسكية morisques ، إستمرت مشاكلها تعصف بمسلمى الأندلس والشمال الافريقي حتى طرد المسلمين نهائيا من الأندلس في مستهل القرن السابع عشر . إن اتفاقية تسليم غرناطة كانت تتعهد بمنح المسلمين حرية ممارسة شعائرهم وشريعتهم ولغتهم وعاداتهم ، ولكن بعد تسليم غرناطة ، لم تراع أية معاهدات ولم تحترم أية مواثيق ، فقد بدأت سلسلة من عمليات التنصير الجماعى الإجبارية ، فضلاً عن حرق المكتبات العربية (لقد أحرقوا أكثر من خمسمائة ألف كتاب مخطوط في الميدان الكبير بمدينة غرناطة) ، هكذا بدأت ثورات الموريسكيين والصراع الاسلامي – المسيحي بعد سقوط غرناطة ، وكانت أولها ثورة البيازين بين عامى ١٤٩٩ – ١٥٠١م ، حيث قرر الملكان تنصير كل مسلمى غرناطة.[١٥]

يقول لوبون Gustave Le Bon : (عاهد فردناند ملك إسبانيا العــرب على منحهم حرية الدين واللغة ، ولكن لم تكد تحل سنة ١٤٩٩م حتى حل بالعرب دور الاضطهاد والتعذيب الذي دام قرونا ، والذي لــم ينتــه إلا بطرد العرب من اسبانيا).[١٦]

في السنوات اللاحقة شددت الكنيسة والسلطات المدنية والعسكرية القشتالية الضغوط على الأندلسيين ، فأصدر الملك فرناندو عام ١٥٠٨م مرســوماً آخر يحظر على الأندلسيين استخدام اللغة العربيــة وارتــداء الملابــس التقليدية ، ومحاربة أية عادات أو طقوس إســلامية أو عربيــة ، ولكــن الأندلسيين تجاهلوا المرسوم ، ولم تجد السلطات فائدة من متابعة تطبيقه ، لأن ذلك كان صعباً بسبب عناد الأندلسيين من جهة ، وخوفا من أن يؤدي ذلك إلي اندلاع الإضطرابات مرة أخرى من جهة ثانية ، لاسيما في تلك المرحلة التى احتاج فيها فرناندو إلي تكريس كل جهوده لعزل الفرنسيين ، وتثبيت ممالكه الأرجونية في البحر المتوسط ، وفي هــذه الفتــرة نقــل القشتاليون الحرب مع العرب إلي شواطئ المغرب ، وكان ذلك امتــدادا للفكرة الأساسية ، التى تطورت مع تقدم قوات الممالك الشمالية في شــبه جزيرة أيبيريا نحو الجنوب الأندلسي ، وتطور انتقال الحرب مع المسلمين إلي المغرب كمتابعة للحملات الصليبية في المغــرب ، وبعــد استســلام غرناطة هاجم جنود ايزابيلا وفرناندو مدينة مليلــة عــام ١٤٩٧م ، ثــم وهران سنة ١٥٠٩م على الشواطئ المغربية ، وانتهــى الهجــوم علــى وهران بمذبحة هائلة ، قتل فيها أربعة آلاف مسلم من أهل المدينة ، ولــم ينج الأطفال من القتل والنساء من الاغتصاب . وحين دخــل الكردينــال زمنيز إلي المدينة سجد بين أكوام القتلى معلنا أن الإنتصار ما هــو فــي الحقيقة إلا انتصار الكنيسة ، وأكمل الكردينال حملته الصليبية تلك بإقامة محكمة تفتيش Inquisition في وهران عام ١٥١٥م.[١٧]

لقد أدى كل ذلك إلى توالى استغاثات الأندلسيين بالحكام المسلمين لتقديم العون والنصرة ، ولقد بدأت هذه الاستغاثات قبل سقوط غرناطة بسنوات، فكانت أولاً موجهه إلي أهل عدوة المغرب الذين ارتبطوا بالأندلس منذ فجر التاريخ الإسلامي بروابط سياسية واجتماعية واقتصادية ، وكانوا أقرب المسلمين إليهم ، لكن المغرب بعد سقوط الدولة الموحدية لم يزد إلا ضعفا وفرقة ، فقد انقسمت السلطة في المغرب إلي ثلاثة أقسام ، بنو مرين في فاس ، وبنو حفص في تونس ، ثم بنو زيان في تلمسان ، لذلك لم تستطع بقايا هذه الكيانات السياسية أن تقدم شيئا .

يقول المؤرخ الأندلسي المجهول صاحب كتاب نبذة العصر : (إن إخواننا المسلمين من أهل عدوة المغرب لجئنا اليهم فلم يأتنا أحد منهم ، ولا عرج على نصرتنا وإغاثتنا ، وعدونا قد بنى علينا وسكن ، وهو يزداد قوة ونحن نزداد ضعفا ، والمدد يأتيه من بلاده ونحن لا مدد لنا).[١٨]

وكان استنجادهم أيضا بالسلطة المملوكية في مصر ، فهي أولاً مقر الخلافة العباسية أي إمامة المسلمين ، فضلاً عن أن المماليك كانوا من المفترض القوة الاسلامية الكبرى وحماة الحرمين الشريفين ، ذلك بالطبع قبل تفوق النفوذ العثمانى في عهد محمد الفاتح وخلفاؤه . إن السلطنة المملوكية تكونت أساساً بسبب فكرة جهادية وصراع حربي ، ضد المغول من جهة ، والصليبيين من جهة أخرى ، فكان دورهم الكبير في الذب عن بلدان المسلمين وقهرهم للتتار وطردهم ، وإحياء الخلافة العباسية وإمامة الدين ، وإنهاء التواجد الصليبي في المشرق العربى ، خاصة الشام بعد فترة الحملات الصليبية . إلا أن الدولة المملوكية الثانية (الجركسية) لم تكن تماثل سابقتها التي قامت على أساس جهادى ، فهى لم تكن دولة إسلامية حربية تحارب من أجل الصالح العام للمسلمين ، بل كانت دولة

ذات بعد إستراتيجي محدد ، كان يقتصر في المقام الأول علـــى تـــأمين مصلحة الدولة الإقليمية والإقتصادية ، هكذا لم تكن باســـتطاعتها تقـــديم المساعدة خارج إقليمها ، فهى لم تمتلك النفوذ الذي يؤهلها لذلك ، خاصة وأن الشواطئ المملوكية والمصالح التجارية المصرية في شرق المتوسط كانت مستهدفة من قبل قوى صليبية متعددة ، على رأسها ممالك اسبانيا .

ومما يثبت عجز القوة المملوكية على تأمين حـــدودها وفقـــدانها الهيبـــة والنفوذ خارج تلك الحدود ، الغارات المستمرة للقوى الصليبية المتواجـــدة في قبرص ومملكة أراجون ، على الشواطئ المملوكيـــة ، وإضـــرارها بالمصالح التجارية المملوكية في البحر المتوسط ، دون عمل أي حســـاب للرد المملوكي ، فقد أغار القبارصة والقطلان على الإســـكندرية عـــامي ١٤١٠ ، ١٤١١م ، ثم أعوام ١٤١٥ ، ١٤١٦م ، ثـــم علـــى الشـــواطئ الشامية عام ١٤١٧م ، وبعد استيلاء المماليك على قبرص اتخذ القراصنة جزيرة رودس قاعدة لهم ، فبدأوا في تعقب السفن المملوكية والاســـلامية بوجه عام في شرقي البحر المتوسط ، ولم يستطع السلطان جقمق (١٤٣٨ – ١٤٥٣م) الإستيلاء على رودس بعد ثلاثة حملات فاشلة ، ولقد ذكـــر ابن اياس في أحداث سنوات مختلفة عبث الفـــرنج والصـــليبيين الـــدائم بالشواطئ المملوكية ، ولقد أراد ملك أراجون ألفونسو الخامس Alfonso (١٤١٦ – ١٤٥٨م) ، الذي عرف بتشدده وكراهيته للمسلمين ، التعاون مع ملك الحبشة الصليبي ، بغية الهجوم على مصر من الشمال والجنوب والإطباق عليها، ولقد استمرت أعمال القرصنة والإعتـــداءات الصـــليبية على المصالح والموانئ المملوكية حتى سقوط الدولة عام ١٥١٧م.[١٩]

كان أول استنجاد أندلسي بالمماليك ، في عهد السلطان جقمق فـــي عـــام ١٤٤٠م ، والإستنجاد الثاني كان في عهد خشقدم عام ١٤٦٤م ، لقد كان وضع مصر الداخلي حرجا في تلك الفترة ، خاصة في العقدان اللذان سبقا

مجئ قايتباي إلي السلطة ، فهى من أسوأ فترات عدم الإستقرار الداخلى لدولة المماليك الثانية ، ومن ناحية ثانية إزداد اتجاه مصر نحو الشرق منذ عام ١٤٦١م ، نتيجة تزايد مشكلاتها مع الإمارات التركمانية في شمال الشام ، أي في المنطقة المتاخمة للدولة العثمانية ، حيث تطور الوضع بعد ذلك في عهد بايزيد الثاني على نحو أدى إلي أول صدام مباشر بين العثمانيين والمماليك في عهد قايتباي ، والذي شهد الإستنجاد الثالث عام ١٤٨٧م خلال المرحلة السابقة مباشرة على سقوط غرناطة ، ولقد استجاب قايتباي بطريق غير مباشر لنداء الإستنجاد ، حيث مارس ضغطاً دبلوماسياً بإرسال سفارة إلي ملكى إسبانيا وبابا روما عام ١٤٨٩م ، يهددهم باضطهاد مسيحي الشرق والقبض على قسس كنيسة القيامة وإغلاقها ، ولم يكن بمقدور قايتباي القيام بأكثر من المساعى الدبلوماسية ، والجدير بالذكر أن قايتباي لم ينفذ تهديداته ، فضلا عن أن ملكى إسبانيا لم يلتفتا لتلك التهديدات.(٢٠)

لم يكن توجيه تلك الإستغاثات قاصراً على مسلمى شمال إفريقيا ، فبعد فتح القسطنطينية وأجزاء كبيرة من القارة الأوروبية على يد السلطان محمد الفاتح ، بدأت أنظار المسلمين في الأندلس تتجه إليه كحاكم مسلم مجاهد تخاف أوروبا سطوته ، لذلك أرسل أهل غرناطة في منتصف عام ١٤٧٧م سفارات الي استانبول ، ملفتين نظر الفاتح إلي حالة المسلمين بالأندلس ، طالبين تدخله لانقاذهم.(٢١)

ولا شك أن الدولة العثمانية آنذاك ، كانت بعيدة كل البعد عن حلقة الصراع بين المسلمين والصليبيين في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، مع ذلك وجدنا أن السلطان الفاتح كان يعمل جاهداً منذ ذلك الوقت ، على الوصول إلي نقطة ارتكاز تمكنه من الولوج إلي منطقة الصراع في غرب المتوسط ، وقد تمكن من ذلك بالفعل منذ عام ١٤٨٠م ، عندما بدأ بإرسال

حملات للسيطرة على إيطاليا ، لكنه مات قبل إكمال مخططه ، ودخلت الدولة من بعده في حلقات أخرى من الصراع ، أبعدت الدولة مؤقتا عن ساحة غربى المتوسط .

بعد موت السلطان الفاتح ، أعاد أهل غرناطة الكرة فاستنجدوا بالسلطان بايزيد الثانى، ومع أن الدولة في عهد بايزيد كانت بمنأى عن هذا الصراع حيث شغلتها الصراعات القائمة في الشرق ، خاصة بعد ظهور الخطر الشيعى شرقي الأناضول ، إلا أن السلطان بايزيد قرر إرسال أسطول لمساندة أهالي الأندلس ، وبهذا تحققت الحملة الأولى لكمال رايس عام ١٤٨٧م ، وللمرة الأولى وطئت أقدام العثمانيين غربي البحر المتوسط ، ومنذ ذلك الوقت بدأت المواجهات المباشرة بين الدولة العثمانية وإسبانيا ، التي ظلت قائمة أعواماً طوال في مياه المتوسط وعلى ضفافه دون صلح أو هدنة . لقد استطاع أسطول كمال رايس قصف السواحل الإيطالية والإسبانية ، واستطاع الإستيلاء على ميناء مالقة Málaga الأندلسي ، الذي استولى عليه الأسبان قبل أشهر ، وأحرقه أثناء انسحابه ، لكنه لم يكن لديه القوة الكافية للتدخل لإنقاذ غرناطة المحاصرة ، ولم يحل دون سقوطها ، لكنه استطاع بواسطة أسطوله نقل الكثير من عرب اسبانيا ، الذين انتشروا بطول الساحل بعيد سقوط المدينة إلي سواحل المغرب العربي ، ولم تنقطع بعد ذلك الحملات العثمانية الي غرب المتوسط لإنقاذ المهاجرين الأندلسيين ونقلهم إلي المغرب .[٢٢]

لقد أدت هذه الحملات المستمرة إلي بداية استغاثة مسلمى شمال افريقيا بالأتراك العثمانيين ، حيث بدأت حملات التنصير والإبادة الإسبانية تصل إليهم ، هكذا بدأ العثمانيون في الإستقرار في هذه المناطق بمساعدة أهلها من المسلمين ، للدفاع عنهم وصد الهجمات الصليبية العنيفة الآتية من الغرب .

لقد أشار توينبي Toynbee إلي أن العثمانيين لو كانوا قد استطاعوا دعم قوتهم البحرية ومد نفوذهم غربي المتوسط قبل ثلاثين عاما من تحققه عام ١٥٠٣م ، لكان بمقدورهم إنقاذ غرناطة بل ووقف حركة الكشوف الإسبانية ، لكن لم تظهر هذه القوة العثمانية المتفوقة في المنطقة ، إلا بعد أن كان الأسبان قد وضعوا أقدامهم بالفعل في عدة مواقع في شمال افريقيا خلال القرن السادس عشر، بعد أن كانوا قد أسقطوا غرناطة عام ١٤٩٢م.(٢٣)

جذور الصراع العثماني الصفوي :

لقد دأبت الدول الإسلامية الأولى على التصدى للحركات التشيعية التي اتسمت بالهرطقة الدينية ومحاولة شق وحدة الصف الإسلامي ، لكن ما لبثت إحدى هذه الدعوات المهرطقة أن شاعت في المغرب العربي في القرن الثالث الهجري ، مع ضعف قبضة الخلافة العباسية على أقاليمها في المغرب ، واستطاعت بالفعل هذه الدعوة تكوين أول دولة تنتسب إلي الإسلام على أساس شيعى رافضى (وهى الدولة العبيدية المسماة بالفاطمية) ، وما لبثت هذه الدولة أن تحولت إلي خلافة تنازع دولة الخلافة الأصلية (السنية) في زعامتها الروحية وتصبح العدو اللدود لها ، وامتدت سياسياً في القرن الرابع الهجري لتشمل مصر والشام والحجاز ، حتى استطاع السلطان الناصر صلاح الدين بن أيوب ، القضاء على الحكم الشيعي نهائياً وإسقاط دولته في القرن السادس الهجري .

ولقد بدأ الخطر الشيعي في الظهور مرة أخرى ، لكن في بلاد المشرق هذه المرة ، من شرقي الأناضول وإيران التي انتمت للمذهب السنى منذ الفتح العربي الاسلامي . لكن مع انتماء معظم ايران الي المذهب الحنفى السنى ، كانت مرتعاً خصباً للإنحرافات الفكرية الدينية ، لامتزاج الدين الإسلامى الحنيف في تلك البقاع مع الموروث الفكري والعقائدى لأهل البلد الأصليين .

فأصبحت إيران تموج بالطرق المبتدعة والطوائف المنحرفة ، فضلا عن غلاة الشيعة وتسرب عدد ليس بالقليل من هذه البدع إلي ما وراء النهر ، حيث تعيش القبائل التركمانية حديثة العهد بالاسلام ، فلم يكد يبدأ القرن الرابع الهجري حتى ظهر في فرغانة وبخارى من أطلقوا على أنفسهم الباب أو بابا ، وتزعموا الفرق الضالة التي تستهدف التحلل من شروط العقيدة وقيود العبادات ، وهكذا تأثرت بعض العناصر التركية حديثة العهد بالإسلام آنذاك ، ووقعت تحت تأثير البدع الايرانية ، فكانت هذه البدع من مميزات التراث الذي حملته معها عند هجرتها الي الأناضول.(٢٤)

لكن التشيع لم يظهر في القبائل التركمانية إلا مؤخراً مع الدعوة الصفوية (السلالة الملكية التى تعتمد على المذهب الامامى) . لقد كانت الصفوية في بداية أمرها طريقة صوفية في بلدة أردبيل بأذربيجان عند بداية القرن الثامن الهجري ، دخل مؤسسها صفى الدين أردبيل (ت.٧٣٥ ه/١٣٣٥م) في التصوف على يد الشيخ تاج الدين ابراهيم زاهدى (ت. ٧٠٠ ه/١٣٠١م) ، وهو مرشد من جيلان زوج ابنته للشيخ ، وبعد وفاة عمه وشيخه ، غدا الشيخ صفى الدين رأساً للطريقة التى عرفت باسمه فيما بعد(٢٥) ، لكن هذه الطريقة الصوفية مالبثت أن تحولت في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي إلي مذهب شيعى رافضي بطريقة غير مفهومة وغير مبررة يقول كولين ترنر Colin Turner في ذلك :

مع استخلاف الشيخ الجنيد (ت. ٨٦٤ ه/ ١٤٦٠م) ، دخلت الطريقة في تحول هائل ليس من السهل تفسيره ، كان التغير في الميل الديني درامياً ، تراجع التصوف المتأمل أمام غلو هرطقي بشكل صارخ . يفصح(ابن دوزبهان خونجى) الكاتب السنى في بلاط السلطان يعقوب بن أوزون حسن (آق قيونلو) ، عن أن أتباع الطريقة دعوا صراحة الشيخ جنيد إلها وابنه ابن الله ، حيث كان الناس يشدون إليه الرحال ليسجدوا على قدميه

ويعبدوه إلها متناسين واجبات الشريعة ، لا يمكن شرح تحول الصفويين من طريقة سنية صوفية إلي فرقة تتبنى الغلو في على ، بصفته مجرد تعديل بسيط في التوجه الديني . لقد كان هذا التبدل الدرامي المفاجئ مصحوبا بتغير جذري في ميول الطريقة الصفوية حولها إلي حركة مسلحة ، استطاعت في أقل من نصف قرن أن تنصب إسماعيل حفيد الجنيد على العرش في تبريز . باختصار فإن التحول الديني يجب أن يفهم في ضوء التحول السياسي . ونستنتج من هذا التحول الديني لم يكن أكثر من ستار للطموح السياسي عند الشيخ جنيد . ورغم أن التاريخ ملئ بأمثلة عن استغلال الدين سياسياً ، لكن حالة الشيخ الجنيد تتفرد في أنها كانت الأولى في سلسلة الخطوات التي أدت إلي قيام الدولة الصفوية ، ومنها إلي تبنى مذهب الإمامة ديناً للدولة . ومن الممكن جداً أنه لو لم يقم الشيخ الجنيد بهذه النقلة الهائلة ، لكانت الطريقة ظلت سنية صوفية ، ولظل التشيع بعيداً عن مجرى التاريخ الإيرانى.(٢٦)

أما عن الخلفية السياسية ، التي ظهرت في ظلها الدولة الصفوية الشيعية ، كانت غير مستقرة تماما وأرضاً خصبة للإستغلال السياسي واسع النطاق، الذي أحرزته الدولة الصفوية .

كانت إيران منذ الغزوة المغولية الكاسحة أرض تنافس وتصارع بين جماعة من أمراء القبائل المتنافسين ، يرجع بعضهم إلي أصل تركى وينتسب بعضهم الآخر الي المغول . ولقد وفق أوزون حسن التركمانى ، رأس قبائل آق قيونلو إلي التغلب على منافسيه جهان شاه ، رأس قبائل قره قيونلو ، ليبسط سلطانه بعد ذلك عام ١٤٦٩م ، على أذربيجان وأرمينيه وإيران حتى خراسان – حيث كانت السلطة مازالت بيد التيموريين – وعلى الجزيرة الفراتية . (٢٧)

والجدير بالذكر أن من ضمن العوامل التى ساعدت الصفويين على اقامة دولتهم هو ادعاء الانتساب الي آل البيت كما فعل العبيديون (الفاطميون) ، وهذا بالطبع من شأنه أن يزيد دعوتهم قدرا وأتباعا ونفوذا . لقد لفقت المصادر التى دونت في عهد إسماعيل الصفوي مؤسس الدولة والتى كتبت بعده نسباً للبيت الصفوي يتصل بالامام موسى الكاظم الإمام السابع للشيعة الجعفرية ، أى إلي الحسين رضى الله عنه، وذلك لكى يصير له ولأسرته وخلفائه من بعده الحق أو الشرعية في اعتلاء العرش وتوارثه .

لكن الحقيقة أن الشيخ صفى الدين الأردبيلي كان تركيا ، وبالتالي كان أحفاده الذين أقاموا الدولة الصفوية أتراكاً ، ولا صحة لما زعموه من نسبهم إلي آل البيت (العرب أصلا) ، كما أنهم لم يكونوا من الفرس أو الجنس الفارسي الذي يعتز بفارسيته وبلغته في حين أننا نرى ملوك الصفويين كانوا يتكلمون التركية ، بل إن بعضهم نظم الشعر بالتركية ، كما كانت التركية لغة بلاطهم وديوانهم ، وما فعلوه بإيران وبالفرس لا يقبل فارسي أن يفعله بوطنه ومواطنيه .[٢٨]

لم يكن إدعاء النسب فقط هو الذي أوصل الصفويين إلي السلطة السياسية، لقد كانت هناك عوامل أخرى اتحدت جميعهاً مع الظروف السياسية القائمة آنذاك في إيران وشرقي الأناضول ، مكنت الصفويين من الوصول إلي السلطة . لقد جمع الشيخ جنيد بين السلطة الروحية والسلطة الفعلية بعد زواجه بأخت أوزون حسن ، حيث أصبح الصفويين من نسله أمراء للبلاد.

تبلورت الطريقة الصفوية كحركة سياسية ذات ميول دينية مغالية تحت قيادة حيدر بن الجنيد ، لقد أعلن أتباعه كما يلاحظ (خونجى) ألوهية حيدر. عرف أتباع حيدر بالقزلباش (الرؤوس الحمراء) ، وذلك بسبب

القلنصوة الحمراء ذات الاثنى عشر طية التي أمرهم حيدر بارتدائها نسبة إلي الامامة الاثنــى عشــرية . نصــب حيــدر علــى أردبيــل عــام ٨٧٤ هـــ/١٤٧٠م على يد خاله أوزون حسن ، الذي كان قد هزم جهان شاه وسلالة قره قيونلو واستولى على أرضهم . وقد أدت عودة الطريقــة الصفوية الي أردبيل الي تدفق أتباع الطريقة من الأناضول وشمال سورية إليها ، وتوثقت علاقة حيدر بسلالة آق قيونلو بزواجه مــن ابنــة أوزون حسن ، التى انجبت له اسماعيل .[٢٩]

وبدأ حيدر منذ ذلك الوقت تحقيق أغراضه السياسية بمساعدة مــن خالــه أوزون حسن ، و كان من مقوماتها الدعاية للحركة بين القبائل التركمانية شرقي الأناضول ، والتى لاقت إقبالاً كبير فتشكلت تلك القبائــل الجــزء الأكبر من القوات الصفوية . وعندما قتل الجنيد عام ١٤٨٧م حل محلــه ابنه اسماعيل (١٤٨٧ – ١٥٢٤م) كشيخ وكساعى إلي السلطة أيضــاً ، وبدأ يجمع حوله التركمان ويرسل بعضم الي أردبيل حيث يتم تشــييعهم لاستخدامهم في الأغراض السياسية.[٣٠] حاول السلطان يعقوب بن أوزون حسن الحد بقدر الامكان من النفوذ الصــفوي وكــبح جماحــه ، الا أن اسماعيل الصفوي استطاع أن يفر الي ايران مصطحبا معه سبع قبائل من القزلباش ، مكنته من القضاء على الأسر الحاكمة الصغيرة التــى قامــت على أنقاض التيموريين وبعض أجزاء دولــة الآق قيونلــو ، واســتطاع السيطرة على البلاد خلال عقد واحد حيث دخل تبريز وأعلن نفسه شــاها عام ١٥٠٢م .[٣١]

كان تأسيس الشاه إسماعيل للمذهب الشيعى (كمذهب رسمي للدولة) عملاً سياسياً إلي حد ما ، تم التخطيط له ليميــز إمبراطوريتــه – بمحاربيهــا التركمان وصفوتها الحاكمة – عن غيرها مثل جيرانها الأتراك الســنيين الأوزبك إلي الشمال الشرقي (في خراسان) والعثمانيين إلــي الغــرب .

فظهور قوة الصفويين كان يمثل بالنسبة للعثمانيين توترا يشكل خطرا أشد حدة مما كان عليه الوضع في عهد أوزون حسن . ووجدت قبائل الحدود من التركمان الذين حاول العثمانيون اخضاعهم لسيطرتهم ، في الشاه إسماعيل حاميا وزعيما موهوبا تهوى إليه نفوسهم أكثر مما تميل الي السلطان العثمانى رمز المذهب السنى . وفي عهد بايزيد الثانى ، لاقت الحكومة العثمانية مشاكل عديدة من النفوذ الصفوى المتزايد في الأناضول. وفي عام ١٥٠٢م أبعد السلطان من لهم ميول إلي الشاه اسماعيل من أراضي الأناضول الي المورة المفتوحة حديثا .[٣٢]

لقد أراد اسماعيل الصفوى إمتلاك السيادة الدينية التى تؤهله هو وخلفه لامتلاك السيادة الفعلية في إيران ، ومن الطبيعى أنه لن يستطيع بلوغ هذه السيادة على أهل ايران السنة الذين كان معظمهم يدين بالولاء للخلافة السنية سواء العباسية في ظل المماليك أو بعد ذلك عندما انتقلت إلي استانبول ، ولهذا فان مجابهة هذه المشاعر الدينية كان يستلزم تغيير المذهب الشائع في إيران من التسنن إلي التشيع والغلو في المذهب لإثارة العداء بين المذهبين ، ودفع الناس إلي الحرب بوازع الحفاظ على المذهب.

ومن هنا بدأ الشاه إسماعيل في فرض مذهبه بالقتل والتعذيب والمذابح العامة في أهل إيران السنة ، حيث بدأ بمدينة أردبيل وبدأ بحاكمها السنى الذي رفض أن يشهد شهادة التشيع (أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمد رسول الله ، وأن على ولى الله) ورفض سب الصحابة الكبار فأضرم فيه النار هو ومن تبعه في الرفض [٣٣] ، وتلت أربيل مدينة تبريز – العاصمة السابقة للآق قيونلو والحالية للصفويين – وفي أول يوم قتل نحو أربعة وعشرين ألفاً ممن رفضوا التشيع ، حيث جرت مراسم فرض المذهب الشيعى في المدينة ، وتوالت المذابح العامة في المدن الإيرانية ،

وتلتها المذابح في مدن العراق عندما استطاع الصفوى الإستيلاء عليها ، فقتل من الأكراد فقط في أول يوم ثمانية آلاف . وبهذه الطريقة استطاع إسماعيل أن يشق طريقه بسرعة ، وأن يغير مذهب إيران في وقت قصير إلي المذهب الشيعي الإثنى عشري ، ويجعل منها جزيرة شيعية في وسط بحر من أهل السنة ، ويترك أثراً عميقاً رهيباً في الوحدة الإسلامية والحياة السياسية في الشرق الأوسط ، بل وفي العالم كله منذ مطلع القرن العاشرالهجري (الخامس عشر الميلادي).[٣٤]

وظل هذا الإنشقاق في وحدة الصف الاسلامي يتزايد مع الأيام ، حيث لم يكتف إسماعيل بهذا ، بل أعلن عداوة الدولة العثمانية راعية السنة ، وتوالت محاولاته لنشر المذهب الشيعى في أراضي الدولة العثمانية وفي الأراضي العربية المجاورة ، وتحالف لتحقيق أغراضه مع كل القوى الصليبية المعادية للعثمانيين ، الذين كانوا يحاولون في تلك الفترة الدفاع عن المسلمين في كل مكان ، ولقد أثرت بالفعل تلك العداوة في توجهات الدولة العثمانية الجهادية ، فلم تستطع في ظل تلك العداوة التركيز في الجهاد على الجبهة الأوروبية كما كانت من قبل ، وسنرى بعد ذلك أثر الحروب العثمانية الصفوية في الحد من القوة العثمانية ، التى انطلقت لمحاربة الصليبيين في كل مكان ، لأنه أصبحت هناك جبهة أخرى من الناحية الشرقية تستنزف الرجال والعتاد والجهد والمال ، ومع الأسف تدعى هذه الجبهة أنها دولة إسلامية .

على غرار تيمورلنك وأوزون حسن ، أعلن الشاه إسماعيل بدوره عن رغبته بجعل الأناضول جزءً من إمبراطويته الإيرانية ، دأب على ارسال أتباعه الي شرق الأناضول ليقوموا بإثارة الفتن والقلاقل ، ويحوزوا على ولاء القبائل التركمانية هناك. لم يبد السلطان بايزيد الثانى رد فعل حاسم لما يحدث شرقي الأناضول ، وهذا هو الخطر الذي أدركه الأمير سليم مبكراً وحاول الوصول إلي السلطة من أجله .

كان سليم رابع أبناء بايزيد الثاني والياً على طرابيزون ، وعندما بدأ الإحساس بالخطر الشيعى سار في حملات متتابعة أشهرها حملة عام ١٥٠٨م ، استولى فيها على أجزاء كبيرة من شرقي الأناضول ، التي كانت تابعة للآق قيونلو وإمارة ذى القادر التي استولى عليها الصفوي ، وتقابل مع الجيش الصفوى في عدة معارك كان يصطحب فيها إبنه الصغير الأمير سليمان ، واستطاع من خلال تلك المعارك إرهاب الشاه اسماعيل واحباط بعض مخططاته ، هكذا كان إدراك سليم للخطر الشيعى، وإثباته فعلياً قدرته على اتخاذ التدابير، وحيازته على لواء فى مكان بعيد هو طرابيزون ، فتح طريق العرش أمامه ، لأن سياسة والده بايزيد لم تكن على مستوى الحدث ، حيث أمر بناء على شكاية الشاه له بإرجاع أجزاء من شرقى الأناضول للصفويين.[٣٥] وقد أدى هذا التصرف إلي استياء الجيش فضلا عن الشعب بالإضافة الي الأمير سليم الذي أراد الإستيلاء النهائي على العرش لوضع حد للخطر الشيعى ، وقد سانده الجيش في ذلك خاصة مع وضع السلطان بايزيد الثانى ، الذي تقدم في السن ، وأصبح مرضه عقبة في سبيل السيطرة على الموقف كما ينبغى . هكذا نجح الأمير سليم ، الذي كان يدعو منذ البداية إلي موقف صارم ضد الشاه اسماعيل ، في كسب تأييد الإنكشارية ، وأرغم والده على التنازل عن العرش في ابريل عام ١٥١٢م.

سليم الأول (١٥١٢ – ١٥٢٠م) :

إرتقى السلطان سليم الأول العرش بعد تنحية أبيه عام ١٥١٢م ، ورغم أن فترة حكمه لم تطل ، إلا أن فترة حكمه كانت من أهم الفترات في التاريخ العثمانى بأكمله . من المعتقد أن السلطان سليم قد تولى عرش السلطنة في وقت من أشد الأوقات التى مرت بها الدولة . لقد واجهت الدولة منذ بدايات القرن السادس عشر الكثير من التحديات العالمية والإقليمية كان عليها استيعابها بشكل كامل ، حتى تحقق أهدافها واستراجياتها القائمة على الجهاد وتكوين دولة اسلامية عالمية ، إلا أن الدولة في هذه المرحلة الهامة لم تكن في نفس وضعها السابق في عهد السلطان الفاتح ، الذي وجه كل نشاط الدولة ومواردها وجهودها نحو أوروبا ، ورأينا كيف أن الدولة في عهد الفاتح لم يكن لها نشاطات حربية كبيرة من الناحية الشرقية، سواءً تجاه الدول الإسلامية في آسيا أو الدول العربية في الجنوب والغرب ، مع أن الدولة قد واجهت بعض التهديدات من قبل بعض الدول التركمانية مثل آق قيونلو .

لكن الوضع منذ بدايات القرن السادس عشر قد اختلف اختلافا جذرياً ، أدى الي التوجه الكامل للدولة في عهد سليم الأول شطر الشرق والجنوب، بسبب ظهور الكثير من الأخطار التى بدأت تحيق بالدولة العثمانية من جهة ، وبالدول الاسلامية السنية خاصة الدول العربية من جهة أخرى . لقد بدأت الدولة العثمانية في عهد سليم الأول تشعر بمسئوليتها الخطيرة تجاه العالم الاسلامي ، فهى أكبر دولة إسلامية ومركزاً جديداً للخلافة السنية . لقد وصل العالم الاسلامي إلي حالة متردية من الضعف شكلت خطراً كبيراً عليه ، فمن الناحية الغربية الهجمات الإسبانية البرتغالية، ومن الشرق التهديد البرتغالي الصفوى . هكذا بدأت الدولة تتجه إلي استراتيجية جديدة ووجهة جديدة ، أوقفت توسعاتها الأوروبية فترة من الزمن .

ارتقى سليم العرش وهو في الأربعين من عمره ، ولم يكن حديث عهد بالحكم ، فقد كانت له سمعة كبيرة منذ توليه إمارة طرابيزون ، فضلاً عن هيبته في ميدان القتال التى اكتسبها من حملاته شرقي الأناضول ، هكذا أطلق عليه لقب (ياووز) أي المهول أو الرهيب ، لقد تعود أن يضرب بيد من حديد على أعدائه ، لكنه مع ذلك كان حكيماً ، يدرك أبعاد السياسة في

عصره وأطماع الدول المجاورة . كان واسع الثقافة ، وينظم الشعر بالفارسية[٣٦] ، أصبحت الدولة في عهده القصير إمبراطورية مترامية الأطراف في أوروبا وآسيا وإفريقيا ، وأصبحت مركزاً لخلافة المسلمين ، هكذا جمع سليم في يديه السلطة الزمنية والسلطة الروحية ، التى أعطت للدولة الهيمنة على مسلمى العالم .

التوجه العثمانى شطر المشرق العربي وأسبابه :

أولا : الخطر البرتغالي :

لقد استطاعت البرتغال التخلص من الحكم الإسلامي نهائيا في القرن الثالث عشر ، وأصبحت أولى الممالك النصرانية في شبه جزيرة أيبيريا تطلعا إلي ما يسمى بالحرب الصليبية الثانية ضد المسلمين ، والتى كانت هذه المرة في سبيلها لتحقيق أهدافاً شتى لم يكن الدين الباعث الوحيد لها .

لقد بدأت البرتغال قبل إسبانيا بالفعل ذلك المخطط منذ بدايات القرن الخامس عشر ، مع ازدياد قوتها الإقتصادية إلي جانب قوتها البحرية التي ستصبح سمة الدول العظمى في ذلك العصر . كان يحرك البرتغال في بداية الأمر التعصب الصليبي الذي تنامى ووصل ذروته مع قتال المسلمين في الأندلس ، فضلاً عن الفتوحات المتواصلة في شرق القارة الأوروبية على يد القوة الجديدة في العالم الاسلامي وهم الأتراك العثمانيون ، هذا إلي الجانب القوة الإقتصادية الكبيرة التي تمتع بها المسلمون ، نتيجة للعبهم دور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب .

لكن السبب العملى الذي دفع البرتغال دفعاً إلي مغامرة الكشوف الجغرافية ، كان الحلم القديم الذي راود أوروبا ، وهو الوصول إلي تجارة آسيا بطريقة مباشرة ، دون وساطة تجارية تؤدى في الغالب إلي تضاعف أثمان السلع المصدرة ، هذا فضلاً عن إسهامهم بشكل مباشر في إثراء أعدائهم المسلمين الذين يصدرون إليهم تلك البضائع لذلك كان على

أوروبا الوصول إلي طريق آخر يؤدى إلـي إنهـاء الـدور الإسـلامي وإضعافه اقتصادياً ، فضلاً عن الوصول إلي السلع المصدرة بأثمان زهيدة دون مكوس أو ضريبة .

كانت التجارة العالمية تسلك عدة طرق برية وبحرية بين الشرق والغرب. تسير من مصادرها الأصلية في الشرق حيث المنافـذ التجاريـة علـى المحيطين الهندى والهادى حتى تصل إلي أسواق الإستهلاك غرباً ، حيث الشرق الأوسط وأوروبا ، ولقد كان الحجم الأكبر من تلك التجارة يسـير عبر ثلاث طرق رئيسية هى :

(طريق الخليج العربي – بلاد الشام) حيث تأتى السلع الشرقية عبر السفن إلي هذا الطريق بحراً حتى تصل إلي الخليج العربي ، ثم البصـرة عنـد رأس الخليج حيث تحملها القوافل براً حتى تصـل إلـي مـوانئ البحـر المتوسط الشرقية ، فتحملها سفن جنوة والبندقية إلي أوروبـا . الطريـق الثانى (البحر الأحمر – مصر) ، ويبدأ هذا الطريق من مركـز تجمـع السلع الآتية من الشرق في عدن جنوب البحر الأحمر، ثم تنقل السلع بعد ذلك بواسطة البحر حتى تصل إلي ميناء السويس ، ثم بواسطة القوافـل البرية إلي القاهرة ، فتصل بعد ذلك إلي موانئ مصـر الشـمالية مثـل الإسكندرية أو دمياط ، ومن هناك تنقلها سفن جنوة والبندقية إلي أوروبا . أما الطريق الثالث فهو طريق بري محفوف بالمخاطر ، يبدأ مـن جبـال الهند الداخلية ويسير إلي الشمال في طرق وعرة حتى يصل إلـي نهـر جيحون ، فيتصل بالطريق القادم من الصين ، ثم يصـل إلـي بخـارى وعندئذ يتفرع إلي فرعين ، أولهما يتجه إلي بحر قزوين ثم نهر الفولجـا الروسي ، والثانى يتجه نحو البحر الأسود حيث يصل إلي طرابيزون ثم القسطنطينية.[٣٧]

ولقد سيطرت دولة المماليك في العصر الوسيط على طريقين من الـــثلاث طرق سابقة الذكر ، أما الطريق الثالث الذي يمر عبر البحر الأسود ، فقد بدأت الدولة العثمانية السيطرة عليه منذ القرن الخامس عشر ، خاصة بعد فتح القسطنطينية حيث استطاع العثمانيون السيطرة على مراكـــز البحـــر الأسود التجارية ، وإنهاء دور جمهورية جنوة نهائياً والإحلال محلهـــا ، هكذا أصبحت التجارة العالمية في يد المسلمين ، هذا فضلاً عن أن جـــزءً كبيراً من المصادر الأصلية لتلك التجارة كان أيضا في يد المسلمين حيث مسلمي المغول في الهند ، والممالك الإسلامية في شرقي آسيا وجنوبهـــا حيث ملقا والجزر الأندونيسية ، التى انتشر فيها الاســـلام منـــذ قـــرون بواسطة التجار المسلمين ، هكذا أصبح الاقتصاد العالمى فـــي النصـــف الثانى من القرن الخامس عشر إسلاميا .

ولقد حرص العالم الاسلامي ألا يترك للأوروبيين فرصة النفاذ إلي داخل ذلك العالم بحجة التجارة ، فيقوموا بالسيطرة عليه كما حدث من قبل فـــي الحملات الصليبية ، لذلك حرصوا كل الحرص علـــى أن يكـــون ذلـــك الطريق التجاري إسلاميا بشكل خالص حتى يصل إلـــي مـــوانئ البحـــر المتوسط ومنه الي أوروبا .

لقد كان العالم الإسلامي يخشى أن يدمر أمنه وعقيدتـــه ونظمـــه بســـبب التجارة الأوروبية التى تنفذ الي حدوده ، بواسطة الأوروبيين أنفســـهم ، وازداد هذا الخوف في نفوس المسلمين بسبب إمكانية اتصال الأوروبيين بمملكة أثيوبيا المسيحية وتطويق العالم الاسلامي . أما المدن البحرية التى لعبت في العصور الوسطى دور الوساطة البحرية ، ونقل البضائع علـــى سفنها من الموانئ الاسلامية إلي الأسواق المسيحية في أوروبا ، فقد أثرت ثراءً كبيراً بسبب هذه الوساطة ، وعلى هذا فقد تنافست المدن الإيطاليـــة التجارية مثل البندقية وجنوة فيما بينها ، ونهضت هذه المدن بشكل كبيـــر

في القرن الثالث عشر و الرابع عشر لتساهم بفاعلية في تجـارة البحـر المتوسط .[٣٨]

هكذا كان العامل الديني مهما في حركة الكشوف الجغرافية ، لكنـه لـم يصل إلي أهمية العامل الإقتصادى ، الذي سيشكل فيمـا بعـد الركيـزة الكبرى في التعامل بين الدول وخاصة الأوروبية ، التـي سـتتجه بكـل طاقتها إلي الصناعة والتجارة ، لتشكل الركيزة التي انطلقت بهذه الـدول نحو ظاهرة الإستعمار الحديث والمعاصر . باختصـار لقـد أصـبحت الكشوف الجغرافية هى الأساس الذي انطلقت منه الدول الغربية لاستعمار العالم واستنزاف كل موارده بلا هواده .

لقد جاءت الحملات الإستكشافية الناجحة ذات الآثار بعيدة المدى ، بفضل شخصية تاريخية هامة هى شخصية الأمير هنرى الملاح Henry the navigator ، الذي توفى عام ١٤٦١م ، ولقد تمتع الأمير هنرى بسـعة المعرفة والإطلاع على معارف عصره الجغرافية ، كما ألم بفنون الملاحة وأصولها عن طريق دراسة الكتب التى غنمها من المكتبات العربية فـي البرتغال وقشتالة ، وجمع حوله طائفة من البحارة المهرة المدربين . ولقد أنشأ الأمير هنري معهداً بحرياً في مدينة ساجر بالبرتغال عام ١٤١٩م ، كما أنشأ بها دار صناعة ، ووضع مشـروعاً عامـاً لحركـة الكشـف الجغرافي، أوقف حياته وجهده على تحقيقه . أراد من وراء هذا المشروع الوصول إلي هدفين ، أولهما : تعقب المسلمين في الشمال الافريقي ونقل الحروب الصليبية إلي بلادهم ، والثانى : الوصول إلي ذهب السودان عن طربق البحر الأحمر، وتحويل التجارة عن طريق القوافل إلـي الطريـق البحري وإلي موانئ المحـيط الأطلسـي ، بـدلاً مـن مـوانئ البحـر المتوسط.[٣٩]

ولقد بدأ الامير هنري في تحقيق مخططه بالإستيلاء على ميناء سبتة عام ٨١٨ للهجرة /١٤١٥م ، والتي لم تعد إلي حظيرة الوطن الأم حتى الآن ، ولم تستطع الدولة المرينية بالمغرب أن تواجه هذا الخطر الداهم فقد كانت في طور الاحتضار .

ولم تتوقف عمليات الغزو لثغور المغرب العربي ، بل ازدادت في أعقاب فتح العثمانيين للقسطنطينية عام ٨٥٧ هـ/١٤٥٣م ، حيث دعا البابا إلـــي حرب صليبية جديدة ضد القوى الإسلامية التي تهدد العـــالم المســيحي ، وكان من الذين استجابوا لهذا النداء الفونس الخامس Alfonso V ملــك البرتغال ، وكان هذا الملك البرتغالي قد أخذ يعد العدة منذ وصوله الـــي عرش البرتغال عام ١٤٣٨م لمتابعة عمليات الغزو لثغور المغــرب ، و مما استقر عليه هذا الملك ومستشاريه ، أن توجه الجهود أولاً للإســتيلاء على ميناء (القصر الصغير) الواقع بين سبتة وطنجة توطئـــة للاســتيلاء على طنجة ، ولقد نجحت فعلا حملته عام ١٤٥٨م في مهاجمـــة القصـــر الصغير والاستيلاء عليه.(٤٠)

بيد أن الاستيلاء على طنجة ظل الحلم الذي يتطلع اليه التاج البرتغـــالي ، ولقد بذلت البرتغال الكثير من المحاولات حتى استولت على العرائش ، ثم استطاعت الإستيلاء على طنجة في أغسطس عام ١٤٧١م ، وقد سقط هذا الميناء الذي استعصى من قبل عليهم في أيديهم دون مقاومة تـــذكر ، فقد كانت الخلافات الداخلية تفتت الجهود وتصرفها عن التفرغ للعـــدوان الخارجي ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح ملك البرتغال يلقب بملـــك البرتغـــال والأقاليم البرتغالية فيما وراء البحار .(٤١) ولقد استطاع البرتغاليون بعـــد ذلك الإستيلاء على معظم ثغور المغرب الأقصى المطلة علـــى المحـــيط الأطلسي ، في رحلتهم نحو غرب إفريقيا ، ثم الإلتفاف حول رأس الرجاء الصالح .(٤٢)

لقد استطاع المستكشف البرتغالي فاسكو داجامـــا V.Dagama الــدوران حول رأس الرجاء الصالح (٤٣) ، والوصول الي كاليكوت الهنديـــة، فـــي رحلته الأولى التى قام بها عام ١٤٩٧م ، ثم عاد إلي لشبونة عام ١٤٩٩م ومعه ما يزيد عن ستين طناً من التوابل الشرقية ، وبعض الأسرى الهنود والأفارقة المسلمين ، واستقبل هذا القائد في بلاده استقبال الفاتحين العظام. وقد وصل فاسكو داجاما إلي الساحل الإفريقي الشرقي قبل التوجـــه إلـــي الهند عبر المحيط الهندى ، فكانت أولى المدن الاسلامية التجارية التى مر بها على الساحل الإفريقي مدينة سوفالا Safala .

والمعروف أن الساحل الشرقي لإفريقيا كان عامراً بالمدن الإسلامية التى اتخذها المسلمون قاعدة لهم أثناء رحلاتهم التجارية من وإلي الهند ، ولقد وصف الرحالة البرتغالي بارابوسا Barabosa مدن الســاحل الشــرقي لإفريقيا وحضارتها قائلا : (منذ بداية القرن الرابع عشر كانــت قــلاع الاسلام تمتد بطول الساحل الشرقي للقارة على شكل خيط من اللآلــئ ، وكان هذا الساحل يعج بالتجارة ورجال البحر والقوافل التى تتــاجر فــي العاج والتوابل والصمغ والرقيق والذهب) ، وكانت الإمارات الإســلامية في شرق إفريقيا عند وصول داجاما في نهاية القــرن الخــامس عشــر (مالندى ، كلوة ، بات ، ممباسا) بالإضافة إلي بعض المراكز التجاريـــة الصغرى في زنجبار وبمبا وكليجي وجزيرة موزمبيق وسوفولا وجــزر القمر وغيرها ، وتبين لداجاما من محاولاته المتكررة للرسو في مــوانئ شرق إفريقيا ، أن إمارات هذا الساحل الإسلامي يدين معظمهــا بــالولاء للحكام العرب في جنوب شبه الجزيرة ، أو لحكام مصر من المماليك في ذلك الوقت.(٤٤)

بعد كشف الطريق البحري المؤدي إلي الهند من قبل البرتغاليين ، بــدأت نواياهم الحقيقية في الظهور ، إذ لم يكتفوا بالحصول على السلع الشرقية دون وساطة تجارية، بل أرادوا تحقيق مخططهم الصليبي العدواني ، لقد أرادوا حرمان المسلمين نهائياً من تجارتهم الشــرقية ، وتــدمير طــرق التجارة التقليدية تماماً ، وتحويل التجارة إلي الطريق البحري من وإلــي لشبونة .

ولقد قال القائد البرتغالي البوكيرك Afonso de Albuquerque فــي خطابه الذي ألقاه على جنوده بعد وصوله ملقا ما نصه : (إن إبعاد العرب عن تجارة الأقاوية هي الوسيلة التى يرجو بها البرتغاليون إضعاف قــوة الاسلام) ، وفي نفس الخطبة قال : (الخدمة الجليلة التــى ســنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد وبإطفائنا شعلة شيعة محمد بحيث لا يرفــع لها هنا بعد ذلك لهيب ، وذلك لأنى على يقين أننا لو انتزعنا تجارة ملقــا هذه من أيديهم لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثراً بعد عين ، ولامتنعت عن البندقية كل تجارة التوابل مالم يذهب تجارها إلي البرتغال لشرائها من هناك)[٤٥]

هكذا بدأ فاسكو داجاما أثناء رحلته الثانيــة إلــي الهنــد عــام ١٥٠٢م ، باستهداف الملاحة الإسلامية والسفن التجارية في المحيط الهندى وخلــيج عدن ، وقام بتكليف أحد قادته بالإقامة الدائمة علــى رأس خمــس ســفن حربية عند مدخل البحر الأحمر لمهاجمة السفن الاسلامية ، ولمنع السفن المختلفة من المتاجرة أثناء إبحارها في مياه المحيط الهندى إلا بتصــريح خاص من البرتغاليين ، ولقد قام عام ١٥٠٣م كما ذكرت بعض المصادر بمهاجمة سبع سفن إسلامية واستولى عليها ، بل إنه قام بقتل بعض ركابها وأسر البعض الآخر .[٤٦]

ولقد ذكر ابن اياس في حوادث عام ٩١١ ه / ١٥٠٥م ، العبــث الــدائم للبرتغاليين في البحار الشرقية وتهديدهم الملاحة الدولية فيه حيث قال : (وفيه حضر مبشر الحاج وأخبر أن الفرنج كثر عبثهم ببحر الهند ، وأن حسين باشا العسكر المتوجه إلي هناك يشرع في بناء أبراج على ســاحل جدة وصور ، وقد جهز المراكب للخروج إلي عدن، لكن تزايد الضــرر من الفرنج فيما بعد وترادفت مراكب الفرنج ببحر الحجاز ، فقد بلغوا فوق عشرين مركبا ، وصاروا يعبثون على مراكب تجار الهنــد ، ويقطعــون عليهم الطريق في الأماكن المخيفة ويأخذون ما معهم من البضائع ، حتى عز وجود الشاشات ، والأرز من مصر وغيرها من البلاد)[٤٧]

ولم يكتف البرتغاليون بذلك بل خططوا للهجوم على المراكز الإسلامية في المحيط الهندى وخليج عدن والبحر الأحمر، ليتخذوها منطلقاً للزحف على البلدان الإسلامية من الجنوب وتطويقها ، خاصة وأن إسبانيا قــد بــدأت بالفعل احتلال مراكز مماثلة في الشمال الإفريقي ، وهكــذا يقــع العــالم العربي الإسلامي بين شقي الرحا .

ولقد حاول البرتغاليون أيضاً احتكار التجارة الشرقية والســيطرة علــى مراكزها الأصلية ، بل وإلي إقامة أول حكومة استعمارية أوروبيــة فــي بلاد الشرق ، ولقد استطاعوا بالفعل انتزاع المشيخات الإسلامية القائمــة على ساحل إفريقيا الشرقي من سوفالا جنوباً إلي مقديشــيو Muqdisho شمالاً (عاصمة الصومال الحالية) .[٤٨]

وكان استيلاؤهم على جزيرة سقطرى Socotra سنة ١٥٠٦م ، الواقعــة في مواجهة القرن الافريقي والتى تشرف على مدخل خليج عدن المؤدي إلي البحر الأحمر ، عاملاً حاسماً في تحكم البرتغــاليين فــي الطريــق البحرى المباشر بين مصر والهند ، وقد أعقب ذلك استيلاء البرتغــاليين

على ملقا Malacca سنة ١٥١١م في أقصى شبه جزيرة الملايو Malay Peninsula في الطرف الجنوبي الشرقي من آسيا ، حيث تتجمع منتجات منطقة الشرق الأقصى والهند الصينية.[٤٩]

ولقد أدرك البرتغاليون أهمية الإستيلاء على الخليج العربي والبحر الأحمر لإغلاق المنافذ التجارية ووقف الملاحة العربيـــة ، ولقـــد حـــاول القائـــد البرتغالي (البوكيرك) إحتلال عدن ، لكنه فشل فشلاً ذريعاً لبسالة سكانها ، مما دفعه للتوجه الي مدخل الخليج العربي لاحتلاله ، فوصل إلي جزيرة (مصيرة) ثم أبحر الي (رأس الحد) ، وقام البرتغاليون بالعـــدوان علـــى الموانئ العربية التي مروا بها وأشعلوا النار بالسفن الراســية ، ودخـــل البرتغاليون (قريات) بعد قتال عنيف وقاموا بمجزرة رهيبة ، ثـــم قـــاموا بالهجوم على مسقط (عاصمة عمان الحالية) ، وأشعلوا النار في المنـــازل والمساجد والسفن ، ثم اتجه الأسطول البرتغـــالي إلـــي هرمـــز ، وبعـــد مفاوضات أعلن ملك هرمز ولاءه للبرتغاليين . وهكذا قـــام البرتغـــاليون بفرض سيادتهم بطريقة تعسفية وأمروا بمنع أية ســـفينة مـــن ممارســـة الملاحة في الخليج العربي ، قبل حصولها على تصريح مـــن الســـلطات البرتغالية ، والجدير بالذكر أن البرتغاليون قد اتخذوا هرمز كقاعدة انطاق أخرى إلي البحرين والإحساء وغيرها من المناطق التـــى كانـــت تابعـــة لمملكة هرمز العربية.[٥٠]

كان بالطبع أول المتضررين من تحويل التجارة إلي طريق رأس الرجاء الصالح وتدمير خطوط التجارة التقليدية ، هم المماليك في مصر ، الـــذين وجب عليهم حماية البحار الشرقية وطرق التجارة الإسلامية مـــن ذلـــك الغزو ، وتأمين البحر الأحمر وكذلك حماية الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز . لكن سلطنة الماليك في ذلك الوقت كانت تشهد بـــوادر ضـــعف ملحوظ ، لأسباب عديدة لا يتسع المجال لشرحها ، أهمها الإضـــطرابات

السياسية الداخلية ، والنزاع المستمر بين المماليك ، وتدهور الإقتصاد المملوكى ، الذي كان يعتمد بصفة رئيسية على عوائد مرور طرق التجارة الدولية .

لكن السلطان المملوكى قونصوه الغورى (١٥٠١ - ١٥١٦م) حاول ضرب البرتغاليين في البحار الشرقية وابعادهم عن المراكز التجارية التى احتلوها في المحيط الهندى والخليج العربي بطرق عدة ، أهمها : تحريض السلطان الغورى للحكام المسلمين بالهند للعمل على طرد البرتغاليين وعدم التعاون معهم ، فضلاً عن محاولاته مع البندقية لتأليف القوى الأوروبية ضد البرتغال ، وحثها على عدم التعامل معها ، ولقد لجأ السلطان الغورى إلي اتجاه أخير بعد فشل كل محاولاته ، وهو استخدام القوة العسكرية ، ولقد تحدث ابن اياس عن هذه الحملات في أحداث سنوات متفاوتة ، وكان أولها بقيادة الأمير حسين الكردي في خمسين غرابا (نوع من السفن)، حيث جعل إليه بندر جدة وسائر البنادر السواحلية، وأمره بمحاربة البرتغاليين ، واستطاع بالفعل منع الأسطول البرتغالي من السيطرة على عدن .[٥١]

لكن قوة المماليك في ذلك الوقت وخاصة القوة البحرية ، كانت غير مؤهلة تماماً للحروب البعيدة ، لقد كانت القوة البحرية البرتغالية قوة فتية ، استطاعت قطع مسافات بعيدة واتخاذ مراكز لأساطيلها في عدة جزر ومدن ساحلية ، لذلك لم يستطع الأسطول المملوكى مجابهة الأسطول البرتغالي بعيداً في المحيط الهندى ، حيث منى بهزيمة كبيرة في موقعة ديو Diu البحرية الفاصلة عام ٩١٥ هـ / ١٥٠٩م ، ولقد حاول السلطان المملوكى إعادة الكرة ، فبدأ ببناء أسطول في مدينة السويس تفقده بنفسه . ولقد حاول العثمانيون مساندة المماليك في هذه الحرب ، ومساعدتهم بشتى الوسائل الممكنة ، لكن يبدو أن سلطنة المماليك كانت في طور الإحتضار،

مما جعلها هشة من الداخل لا تستطيع مقاومة أي تهديد . يقول ابن اياس في حوادث عام ٩١٦ ه / ١٥١٠م :

(وفيه حضر يونس العادل وكان السلطان أرسله إلي بلاد ابن عثمان يشترى له خشبا وحديداً وباروداً ، فلما بلغ ابن عثمان ذلك رد المال الذي كان مع يونس العادلي وقال له أنا أجهز من عندى زردخانه للسلطان).[٥٢]

لقد حاول المماليك بعد عام ١٥١٠م صد البرتغاليين عن الدخول في البحر الأحمر فقط ، حيث الأماكن المقدسة الحجازية والموانئ العربية الهامة ، وحيث تحددت خطة البرتغاليين حينئذ في القضاء على القوة المملوكية في البحر الأحمر وإغلاقه في وجه السفن العربية ، كما أنهم تحالفوا مع الحبشة لإعلان الحرب المشتركة على القوى الإسلامية في ذلك الحين .

ولقد ركز البرتغاليون هجومهم على جدة التى أصبحت قاعدة المماليك للدفاع عن البحر الأحمر بعد فشلهم في الإستيلاء على عدن عام ١٥١٦م[٥٣] ، لغلق البحر الأحمر أمام الهجوم البرتغالي المستمر ، لقد كادت البرتغال بالفعل أن تصل الي هدفها ، بعد نجاحهم في الدخول عدة مرات بسفنهم داخل البحر الأحمر ، وتخريبهم عدة موانئ عربية هامة به، لكن العثمانيين استطاعوا الوصول في الوقت المناسب بعد فتحهم لمصر عام ١٥١٧م ، حيث قاموا على الفور بإرسال حملات متتابعة الي الخليج العربي والبحر الأحمر وشرق افريقيا ، استمرت لفترة طويلة في عهد السلطان سليمان القانونى ، استطاعت تأمين البلدان الاسلامية الواقعة في تلك المناطق ، واستطاعت الحد من النفوذ البرتغالي في المحيط الهندي والخليج العربي وخليج عدن ، فضلاً عن غلق البحر الأحمر نهائياً أمام

أي سفن أجنبية غير اسلامية حفاظاً على الأماكن المقدسة من العبث ، وفي نفس الوقت عملوا على إرجاع طرق التجارة إلي سابق عهدها ، بعقد المعاهدات التجارية مع عدة دول ، فضلاً عن تجديدهم المعاهدات التي أبرمها المماليك مع الدول التجارية ، مثل البندقية وجنوة مع تقديم كافة التسهيلات ، والتى أدت في النهاية إلي إنعاش التجارة في مصر والشام وبلدان المتوسط الواقعة تحت حكمهم .

ثانيا : **الخطر الاسباني** :

أما عن اسبانيا فقد كانت قبل منتصف القرن الخامس عشر عبارة عن ممالك منفصلة، تارة تتحد لدرء الخطر الإسلامي في شبه الجزيرة ، وتارة أخرى تختلف وتتناحر حتى تم توحيد المملكتين الأكبر في شبه الجزيرة ، وهما قشتالة وأراجون عام ١٤٦٩م بزواج الملكين فرناندو وايزابيلا ، وأعقب ذلك توسع اسبانيا في اليابس الأيبيري واستكمالها حركة الإسترداد المسيحي ، فكان هذا التطور في مساحة وقوة اسبانيا حافزاً للعرش البرتغالي للإتساع فيما وراء البحار ، وهكذا بدأ التنافس بين الدولتين في مجال الكشوف الجغرافية وفي المجال الإستعماري فيما وراء البحار . لكن قد تم الاتفاق بينهما فيما بعد على تنظيم القوى وتوحيدها للقضاء على الاسلام نهائيا في الأندلس وشمال افريقيا ، وأيضا القضاء على قوة المسلمين الاقتصادية ، عن طريق الكشوف الجغرافية وتغيير وجه الخريطة العالمية من الناحية التجارية .

وفي عام ١٤٩٤م عقدت الدولتان إتفاقيتهما الشهيرة (توردسلاس) ، لتقسيم أقاليم ما وراء البحار غير المكتشفة بينهما ، وهو التقسيم الذي جعل المستعمرات الشرقية المكتشفة من نصيب البرتغال ، والمستعمرات الغربية المكتشفة من نصيب اسبانيا . هذا بينما في بلدان الشمال الافريقي (طبقا للاتفاقية المكملة عام ١٥٠٩م) اتخذ التوسع البرتغالي والأسباني

وجهة جعلت المستعمرات الاسبانية تقع في الشـرق بـالجزائر وتـونس وطرابلس ، والمستعمرات البرتغالية تقع في الغرب بالمغرب.(٥٤)

وعلى أثر هذا بدأت اسبانيا العمل على الإتجاه نحو الشمال الإفريقي فـي المناطق الواقعة شرقي حجر باديس ، وكان الإسبان قد وضـعوا أيـديهم على جزر الكناريا Canarias الواقعة قبالة الساحل المغربي في وقـت مبكر عام ١٤٧٦م ، وأدت هذه الجزر خدمة جليلة للاسبان ، فاستخدموها كمحطات بحرية لسفنهم وهي تعبر الأطلنطي خلال الخمسين سنة الأولى من اكتشاف واستعمار الأمريكتين .

ولقد ازدادت الرغبة في استعمار الشمال الافريقي من قبل الأسبان ، بعد قضائهم على النفوذ الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية ، وبداية رحلتهم في تنصير المسلمين في القواعد الإسلامية التي سـقطت فـي أيـديهم ، ومحاولتهم القضاء على المورسكيين ، فقد كـان المورسـكيون دائمـي الإستغاثة بإخوانهم في المغرب ، عندما حل بهم طور التعذيب على أيـد الإسبان ، بعد أن أمنوهم على دينهم وأعراضهم وأموالهم ، وكان الفارين منهم يذهبون إلي المغرب ، لينذروا بقية حياتهم للجهـاد ضـد الأسـبان والإنتقام منهم .

وكانت بداية هذه الهجمات على ميناء المرسى الكبير غربي وهران ، وقد اتم احتلال هذا الميناء من قبل الإسبان ، الذين عملوا على تثبيت أقدامهم فيه ليكون نقطة انطلاق لاحتلال المراكز الأخرى في الشمال الافريقي ، ولعل اختيارهم لهذا الميناء كبداية لعملياتهم الإستعمارية علـى الثغـور المغربية في الشمال الإفريقي يرجع إلي موقعه الهام وصلاحيته لرسـو السفن ، بالإضافة إلي أنه كان مأوى للتجار المسلمين الذين يغيرون على السفن والسواحل الإسبانية . وفي عام ١٥٠٨م أرسل فرناندو حملة نجحت

في الإستيلاء على حجر باديس لموقعهـا الإسـتراتيجي علـى سـواحل المغرب ، وتابع الإسبان نشاطهم في هذه الهجمـات ، فأرسـلوا حملـة ضخمة عام ١٥٠٩م لمهاجمة وهران ذاتها ، واستطاعوا بالفعل السيطرة عليها ، وباشروا قتل وذبح الأهالي ، حتى وصل عدد القتلى الي أكثر من ثمانية آلاف قتيل من الأبرياء ، وأصبحت وهران مركزاً للنشاط الإسباني في الشمال الافريقي ، بينما كانت مليلة مركـزاً للملاحظـة والمراقبـة فحسب. ولم يكتف الإسبان بالإستيلاء على وهران ، ففي عـام ١٥١١م تحرك أسطول نحو بجاية فهاجموا المدينة ودخلوها عنوة ، وأخذوا فـي تخريب المدينة والإستيلاء على النفائس . وواصل الإسبان غزوهم فـي الجزائر فاستولوا على شرشال وبونة وعنابـة ، وغيرهـا مـن المـدن الساحلية دون أن يحرك سلاطين بني زيان ساكناً لوقف هذا الخطر، مما يدل على مقدار ما وصلوا اليه من ضعف.(٥٥)

واضطر الجزائريون الخضوع مؤقتا للقوة ، فكونوا وفداً برئاسة الشـيخ سالم التومي لعقد هدنة وصلح مع المفوض العسكري الإسباني بالجزائر ، وقد اضطرت عدة موانئ أخرى على سواحل المغرب الأوسط مثل دلس وتنس ومستغانم لأن تعترف بسلطان الأسبان ، فأصبحوا بذلك يبسـطون نفوذهم على الموانئ الهامة في كل المغرب الأوسط ، كما أنهم اسـتولوا على طرابلس عام ١٥١٥م ، واتخذوها قاعدة لعملياتهم الحربية في البحر المتوسط ، وظلوا يحكمونها قرابة عشرين عاما حتى تنازلوا عنها لفرسان القديس يوحنا ، فحكموها حتى انتزعها منهم العثمانيون عام ١٥٥١م .(٥٦)

وهكذا بدأ المسلمون المجاهدون في الشمال الإفريقي يشعرون بذلك الخطر الذي يلتهم أراضيهم ، والذي يحظى بمباركة الباب والـدول الأوروبيـة للإستيلاء على أوطانهم ، بل ومحاولة تنصيرهم ، ومنذ ذلك الحين بـدأ الجهاد في هذه المنطقة يتخذ طابعا آخر فريداً من نوعه ، ولا ينتمي لأية

كيانات سياسية قائمة على أرض المغرب العربي والتي تواطأ معظمها مع المحتل الأجنبي .

لقد أدى كل ذلك إلي ظهور تلك القوة الإسلامية الجديدة في جهادها ، والتي اتبعت أسلوب الكر والفر في البحر ، بسبب عدم مقدرتها على الدخول في حرب نظامية ضد القوى المسيحية من اسبان وبرتغاليين وفرسان القديس يوحنا وغيرهم .

وقد حاول الكثير من المؤرخين الأوروبيين النيل من طبيعة الحركة الجهادية في البحر المتوسط ، وأصروا وصف قادتها بالقراصنة ، بل إنهم نعتوا الحركة الجهادية بجملتها بأنها حركة قرصنة واسعة النطاق تهدف إلي السلب والنهب والتخريب لا إلي الجهاد . والجدير بالذكر أن مفهوم القرصنة قد تطور عبر العصور ، والذي أدى الي وجود نوعين متمايزين : أولهما : القرصنة القائمة على السلب والنهب ، والثانية: القرصنة التى تعتبر نوعا من الحروب البحرية الدفاعية ، وهدفها ضرب اقتصاديات العدو .[٥٧]

لم تكن القرصنة حدثا جديداً في البحر المتوسط ، فمنذ قرون عديدة كان المسلمون والمسيحيون يقومون بأعمال القرصنة المتبادلة في البحر ، ولقد تزايد عدد القراصنة المسيحيين بشكل ملحوظ في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، إلا أن حركة القرصنة المسيحية قد خفت وطأتها بعد ذلك بسبب تناقص وتدنى قدرتها على مواجهة التطور الحاصل في البحرية الإسلامية ، واتجه عملها نحو المحيط الأطلسي بعد اكتشاف العالم الجديد ، لكن القرصنة الإسلامية ازدادت واتسع نطاقها في شكل دفاع وهجوم في آن واحد في الشمال الافريقي ، وحتى في المحيط الأطلسي خاصة بعد إبعاد مسلمى اسبانيا ، لذلك فإن القرصنة كانت بالنسبة للمسلمين نوعاً من الجهاد مسرحه البحر .[٥٨]

شهد هذا الجهاد تطوراً مع نهاية القرن الخامس عشر ، إثر فتح العثمانيين للقسطنطينية عام ١٤٥٣م ، حيث ازداد نشاط البحرية العثمانية في البحر المتوسط[٥٩] ، وانتقل من شرقه إلي غربه بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م ، وتزايد بعد ذلك وقويت شوكته بشكل ملحوظ ، بعد انضمام المغاربة والأندلسيين إلي ميدانه، حيث اتخذ طابع الجهاد الديني .

لم تكن الحركة الجهادية البحرية ذات تنظيم أو أثر كبير قبل ظهور الأخوان عروج وخير الدين بربار وسا[٦٠] ، لقد كان نشاط الأخوان بربار وسا في بادئ الأمر يقتصر على شرق البحر المتوسط ، لمهاجمة سفن القديس يوحنا المتمركزة في جزيرة رودس ، إلي جانب أخذ السفن المسيحية المحملة بالبضائع كغنائم ، ولقد أدت ضراوة الصراع بين القوى المسيحية وبين المسلمين في الأندلس وشمال افريقيا ، والذي اشتد في مطلع القرن السادس عشر إلي أن ينقل الأخوان بربار وسا نشاطهما إلي الحوض الغربي للبحر المتوسط ، خاصة بعد أن استطاع الإسبان الإستيلاء على العديد من المراكز الهامة في الشمال الافريقي .

لقد أدى إنضواء هؤلاء المجاهدين وتوحيد جهودهم مع الدولة العثمانية ، إلي تكافؤ القوة العثمانية براً وبحراً ، وغرباً مع قوتها في الشرق ، وقد أدى هذا بدوره إلي اشتداد الصراع بين الكتلتين الأقوى حينئذ في البحر المتوسط ، وهما القوة الاسلامية بقيادة العثمانيين شرقا وجنوبا ، والمسيحية بقيادة الإمبراطورية الإسبانية (الامبراطورية الرومانية المقدسة) غرباً وشمالاً . ففى الوقت الذي اصطدم فيه العثمانيون مع الجناح الألمانى للإمبراطورية الإسبانية في البر (في وسط أوروبا) ، كان المجاهدون البحريون بقيادة خير الدين يخوضون كفاحاً مريراً في البحر مع الجناح الغربي للإمبراطورية .

ولقد بدأ نشاط الأخوان برباروسا في الحوض الغربي للبحر المتوسط عام ١٥١٣م ، عندما استطاعا إيجاد مركزاً للمجاهدين في حلق الوادى التونسية ، وما ان استقر الأخوان في حلق الوادي شهوراً معدودة ، إلا وطبقت شهرتهما الآفاق من كثرة ما هاجموا من السفن المسيحية ، ومن ذلك الوقت بدأت شعبيتهما في الإزدياد على الصعيد الإسلامي في الشمال الإفريقي ، الذين بدأوا في الإنضمام إليهما للجهاد ضد الصليبيين ، وبدأ بالفعل التعاون بين الأخوان برباروسا ، وأهالي الثغور المحتلة من قبل الاسبان ، وبدأوا حركة جهاد واسعة ضد الأسبان في الشمال الافريقي بغية طردهم من الأراضي الإسلامية .

ولقد تمكن الأخوان من تأسيس حكومة عسكرية عام ١٥١٦م ، على الساحل الجزائري المواجه لحصن البنيون الإسبانى ، ولقد انضم إلي هذه الحكومة بصفتها حكومة تحرير عدداً كبيراً من القبائل وسكان المدن ، واستطاعوا من خلال ذلك مواجهة الإسبان واسترداد بعض أقاليم المغرب الأوسط ، وإقامة حاميات بها ، وقد أدى نجاح الأخوان في ذلك إلي اضمحلال معظم القيادات الأهلية القديمة أمام هذه السلطة الجديدة .[٦١]

وهكذا استطاع المجاهدون بعد تمركزهم في الجزائر ، تشكيل حكومة قوية في شمال افريقيا شكلت خطراً كبيراً على الحكومات المسيحية ، وخاصة اسبانيا التي اعتبرت الشمال الإفريقي مناطق نفوذ لها ، وعلى أنها لقمة سائغة يمكن ابتلاعها متى شاءت ، ولكن الأحداث تغيرت وطرأ على المنطقة مستجدات جديدة شملت مختلف مناطق الشمال الافريقي ، إختل على أثرها التوازن الإسباني.[٦٢]

ولقد ازداد الأسبان حنقا على ذلك النفوذ الجهادي في شمال افريقيا ، خاصة وأن عروج قد عمل بكل قوته على إنقاذ الكثير من المورسكيين

الذين طلبوا مساعدته في الأندلس ، ولقد ذاع صيته أكثر بعد ما حققه من إنقاذ الآلاف منهم ، ونقلهم إلي بلاد البربر[٦٣] ، ولقد أدت خشية الأسبان على نفوذهم في الجزائر، إلي الإتفاق مع الرياس المحليين بغيـة توجيـه ضربة شديدة تنهى نفوذ المجاهدين ، فضلاً عن تحالف بعض الأعـراب مع الإسبان المقيمين بقلعة البنيون . وعلى جانب آخر كان حكـام بنـى زيان، ومعظم الكيانات السياسية القديمة المهترئة ، يلجؤن إلي الأسـبان لتخليصهم من خطر المجاهدين المتزايد ، والذي في طريقه إلي المسـاس بسلطتهم الحاكمة ، حيث كان بنى زيان على الأخص يـدفعون ضـريبة سنوية باهظة للاسبان ، بالإضافة إلي تأمين الأرزاق لعساكرهم الموجودة في وهران والمرسى الكبير والمناطق المجاورة لهم .

ولقد شكلت تلك الأحلاف أشد الخطر على النفوذ الجهادى وتـأثيره فـي المغرب الأوسط ، حيث استطاع الأسبان وحلفاؤهم الهجوم بالفعل علـى قوات المجاهدين بزعامة عروج برباروسا في تلمسان ، والحاق الهزيمـة به وقتله مع معظم المجاهدين الذين استبسلوا في الدفاع عـن تلمسـان ، وكان ذلك عام ١٥١٨م .[٦٤]

ترددت أصداء كارثة(تلمسان) بقوة لدى مسلمى شمال افريقيا ، خاصـة المغرب الأوسط ، واجتمع المسئولون فيها من الشيوخ والزعماء لمناقشة الموقف بعد استشهاد (عروج) ، وقرروا أن يسندوا الي (خيـر الـدين) واجب (امارة الجهاد) بعد أخيه ، وألحوا عليه في ذلك ، لكنـه اعتـذر ، وأبلغهم أنه يعتزم السفر إلي استانبول على أمل الحصول على أسـطول جديد يساعده على متابعة الجهاد في البحر . فأجابه علماء الجزائر بأن الله يوجب عليه الجهاد في هذه المدينة لحماية المسلمين ، وأن الدين لا يسمح له بتركها نهباً للأسبان وأعوانهم ، فأجاب قائلا :

(لقد بقيت منفرداً دون إخوتي الذين استشهدوا جميعا فوق هذه الأرض ، وقد رأيتم ما فعله بنا صاحب تلمسان من بنى زيان ، واستعانته علينا بغير ملتنا حتى كفانا الله أمره . وصاحب تونس الحفصي الذي لا يرى ضرورة نصرتنا وإعانتنا والذي أسلمنا للعدو بمنع البارود عنا لولا لطف الله ، فالرأى هو أن نصل أيدينا بالقوة الاسلامية – وهو السلطان سليم خان – ونعتمد عليه في حماية هذه المدينة ، ولا يكون ذلك إلا ببيعته والدخول في طاعته ، والدعاء له في الخطب على المنابر ، وضرب السكة باسمه ، لنتفيأ ظل حمايته) .[٦٥]

هكذا قبل المجاهدون اقتراح خير الدين ، واجتمعوا على ارسال رسالة للسلطان العثماني ، تطلب منه أن تكون الجزائر ولاية عثمانية ، ووافق خير الدين على البقاء مؤقتاً في منصب الزعامة حتى يأتي رد السلطان سليم بشأن طلبهم .

ولقد قام الدكتور عبد الجليل التميمي بترجمة وثيقة تركية محفوظة في دار المحفوظات التاريخية باستامبول (طوب قابي سراي) رقمها (٤٦٥٦) ، هذه الوثيقة هي رسالة موجهة من سكان بلدة الجزائر إلي السلطان سليم الأول السلطان العثماني بعد عودته من فتح مصر الي استانبول ، وهي مؤرخة بعام ٩٢٥ للهجرة الموافق ١٥١٩م ، وقد كتبت هذه الرسالة بأمر من خير الدين ، وكان غرضها ربط الجزائر بالدولة العثمانية [٦٦] .

وتعتبر هذه الرسالة شاهداً على أحوال الجزائر السياسية عام ١٥١٩م ، حيث أوضحت هذه الوثيقة الهامة الكثير من الأحداث التي أدت في النهاية إلي جعل خير الدين وأهالي الجزائر يطلبون العون من السلطان العثماني، والإنضواء طواعية تحت سلطة الدولة العثمانية .

ولقد أوضحت الرسالة أيضاً المدى الذي كان يتمتع به خير الـدين مـن شعبية وسمعة طيبة لدى الأهالي ، ولقد أكدت الرسالة على أنـه الرجـل الذي حكم بعدالة ، مطبقا تعاليم الاسلام ، كما أنه أظهر الشجاعة عنـدما (قادنا) إلي الجهاد في سبيل الله بنية حسنة وقلـب صـادق كمـا تقـول الرسالة، ولقد أوضحت أيضاً أن خير الدين كان يهدف القيام بنفسه بزيارة استانبول ، غير أن زعماء المدينة توسلوا إليه أن يبقى بالجزائر خوفا من هجوم الأعداء . ولقد كان اختيار خير الدين لسفيره وهو الفقيه العالم أحمد بن القاضي كان حكيماً ، فقد أراد أن يدلل للسلطان عـن طريـق أحـد شخصيات البلاد العلمية والحربية أن الأهالي متعلقون بشدة بالباب العالي وربط البلاد بالإمبراطورية العثمانية ، وليس رغبة شخصية مـن خيـر الدين.(٦٧)

وفي النهاية نجحت هذه الرسالة في مسعاها ، فقد سارع السـلطان سـليم الأول إلي منح رتبة بكلر بك (أمير الأمراء) إلي خير الدين بربـاروسـا ، وهي رتبة تخول لصاحبها أن يكون نائباً للسلطان في هذه البقاع ، وقائداً أعلى للقوات المسلحة في إقليمه ممثلاً للسلطان ، وكان من مدلولات منح هذه الرتبة الرفيعة – التي لم يكن في الإمبراطورية كلها من يحملها سوى بكلر بك الروم ايلي (البلقان) وبكلر بك أناضولي – أن البلاد التابعة لخير الدين تصبح تحت السيادة العثمانيـة ، وأن أي اعتـداء خـارجي علـى أراضيها يعتبر اعتداءً على الدولة العثمانية ، ودعم السلطان سـليم هـذا القرار بقرارات تنفيذية ، إذ أرسل إلي خير الدين قوة من سلاح المدفعية العثمانية ، كما أرسل ألفين من جنود الانكشارية ، ومنذ ذلك الوقت (عام ١٥١٩م) بدأ الانكشارية بالظهور في الحياة العسـكرية والسياسـية فـي الأقاليم العثمانية في شمال افريقيا ، بحيث أصبحوا عنصراً بارزاً ومؤثراً في سير الأحداث ، وأذن السلطان سليم في ذات الوقت لمن يشـاء مـن

رعاياه المسلمين بالسفر للجزائر والإنخراط في صفوف المجاهدين ، وقرر منح المتطوعين الذين يذهبون إلي هناك للجهاد الإمتيازات المقررة للفيالق الإنكشارية ، تشجيعا لهم على الإنضمام إلي كتائب المجاهدين ، ولذلك فقد أقبل سكان الأناضول على السفر إلي الجزائر والتطوع في عمليات الجهاد(٦٨) .

أما على الجانب العثماني فقد كانت تلك الرسالة موافقة تماما لهوى السلطان العثماني سليم الأول ، الذي كان عائداً لتوه من فتح مصر ، فبعد أن دان له معظم الشرق العربي بعد هزيمته للمماليك في مصر و للدولة الصفوية في إيران ، كانت سيطرته على الجزائر هامة لتأمين حدود مصر الغربية من ناحية ، ومن ناحية أخرى وضع قدم الدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط كان هاماً في إطار مواجهاته المستمرة للأسبان والبرتغاليين ، الذين سيطروا على معظم الطرق البحرية وانتزعوا التجارة من أيد المسلمين ، هذا إلي جانب مساعدة مسلمي الأندلس المضطهدين والفارين من القمع الأسباني ، ومحاولة إعادة الحكم الاسلامي إلي الأندلس ، بعد فشل الحكام المسلمين من قبل في مناصرة مسلمي الأندلس ، الذين بعثوا إليهم الكثير من رسائل الإستغاثة .

ومن هذا الوقت بدأ العثمانيون العمل المستمر والمتواصل لتدعيم نفوذهم غربي المتوسط ، ومحاولة إخضاع باقي أقاليم المغرب الكبير لمجابهة الدول الصليبية والحد من نفوذها ، وقد عمل الأهالي في تلك المناطق على مساعدة العثمانيين لمواجهة حكام المغرب العرب الموالين للأسبان ، وأصبحت بذلك الجزائر ركيزة حربية للدولة العثمانية في المغرب العربي وغربي المتوسط ، إستطاع من خلالها السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ -١٥٦٦م) أن يزيد من السيطرة العثمانية ، وأن يمدها إلي تونس وطرابلس بمساعدة رؤساء البحر المجاهدين ، الذين عملوا على تدعيم

ذلك النفوذ ، إلي جانب تقوية الأسطول العثماني ، الذي لم يكن في ذلك الوقت ذو شأن عظيم ، كما سيصبح بعد ذلك تحت إمرة رؤساء البحر المجاهدين .

ثالثا : الخطر الصفوى :

تزايد الخطر الصفوى في المنطقة الشرقية من العالم الاسلامي ، خاصة بعد أن استطاع البرتغاليون السيطرة على هرمز في الخليج العربي ، حيث أقاموا حلفاً ثنائياً من شأنه التعاون للسيطرة على منطقة الخليج العربى بأكملها ، فضلاً عن التعاون للقضاء على النفوذ العثمانى .

ففى عام ١٥١٥م قابل سفير إسماعيل الصفوى القائد البرتغالي (البوكيرك) في هرمز، وعرض عليه اتفاقية تعاون بين الدولتين أهم بنودها تتلخص في :

- تقوم القوات البحرية البرتغالية بمساعدة الحكومة الإيرانية في إخماد الإنقلابات التي تحدث في بلوشستان وكرمان .
- تقوم القوات البحرية البرتغالية بمساعدة الحكومة الإيرانية في غزوها للبحرين والقطيف .
- تتحد الحكومتان الإيرانية والبرتغالية في حربها ضد الأتراك العثمانيين ، لذلك فقد تغاضى الشاه اسماعيل الصفوى عن جزيرة هرمز ووافق على أن يكون أمير هرمز بعد ذلك تابعاً لملك البرتغال، ويدفع له الخراج ولا تتدخل إيران في أمور تلك الجزيرة .[٦٩]

ولقد أرسل البوكيرك رسالة إلي الصفوى جاء فيها :

(إنى أقدر لك احترامك للمسيحيين في بلادك ، وأعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد قلاع الترك في الهند ، وإذا أردت أن

تنقض على بلاد العرب أو تهاجم مكة فستجدنى جانبك في البحر الأحمر أمام جدة أو في عدن أو في البحرين أو القطيف أو البصرة ، وسيجدنى الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسى وسأنفذ له كل ما يريد) (٧٠)

ومن ناحية أخرى حاول الشاه اسماعيل التعاون مع الغرب الأوروبي متمثلا في البندقية ، التى تضاربت مصالحها مع الدولة العثمانية ، مما شكل نزاعاً مستمراً بين البلدين . لذلك فقد أقامت البندقية علاقات مع إيران من قبل في عهد أوزون حسن زعيم الآق قيونلو ، وتعاونت معه لضرب العثمانيين من الخلف ، إلا أنها فشلت في مساعيها بعد عقد اتفاقية السلام مع العثمانيين عام ١٤٧٨م بعد حرب طويلة .

هكذا حاول إسماعيل الصفوي عندما اعتلى العرش ، إحياء العلاقات مع البندقية بهدف الوقوف في وجه العثمانيين ، فأجرى مباحثات مع البنادقة ، وعرض عليهم أن تهاجم البندقية الأراضي العثمانية من الغرب ، في الوقت الذي يهاجمها هو فيه من الشرق ، في مقابل أن تسترد البندقية قواعدها التي فقدتها في اليونان وجزر الأرخبيل. غير أن البندقية كانت منهمكة آنذاك في نزاع مع البابوية وحلفائها ، فلم تستطع التجاوب مع إيران .

هكذا بدا الوجود الصفوى أشد خطراً على الدولة العثمانية من الناحية الشرقية ، ولم يقتصر الأمر على هذا الحد ، بل تعداه ليشمل الخطر على البلدان العربية السنية ، فمن الواضح أن الصفويين كانوا يبيتون النية لغزو مصر . يقول ابن اياس في حوادث عام ٩١٦ه / ١٥١٠م :

(وفيه جاءت الأخبار من نائب البيرة بأنه قبض على جماعة من عند اسماعيل الصفوي وعلى أيديهم كتب من عند الصفوى إلي بعض ملوك الفرنج بأن يكونوا معه عونه على سلطان مصر ، وأنهم يجيئون إلي

مصر من البحر ويجئ هو من البر ، فقبض نائب البيرة عليهم وبعث بهم الي السلطان).[٧١]

ويقول أيضاً في حوادث عام ٩١٨ ه / ١٥١٢م : (وفي يـوم الخمـيس أرسل نائب سيس إلي السلطان عشرة رؤوس علـيهم طراطيـر حمـراً وزعموا أنهم من عسكر الصفوي كانوا يفسدون في البلاد ، فقبض عليهم نائب سيس وجز رؤوسهم في القاهرة ثم علقهم على باب النصر وبـاب الفتوح ، وقد قويت الإشاعات بأن الصفوى متحرك علـى الـبلاد ، وأن قاصده واصل الي السلطان)[٧٢]

ولم يقتصر الخطر الصفوى على ذلك ، بل لقد وقف الصـفويون حجـر عثرة في سبيل وصول الدولة العثمانية إلي الهند ، وتحقيق السيطرة على طرق التجارة الشمالية بعد أن استطاعت البرتغال السيطرة على الطـرق الجنوبية المؤدية إلي الهند ، واحتكار تجارة التوابل ، لذلك حاول السلطان سليم في بادئ الأمر فرض حصار تجـاري علـى الدولـة الصـفوية ، وبخاصة تجارة الحرير التى تمر عبر الأراضي العثمانية عن طريق حلب – الإسكندرونة في طريقها إلي الغرب الأوروبي ، الذي يقوم بمقايضـتها بالذهب ، وخطا السلطان خطوة أخرى حين أخذ يصادر البضائع الإيرانية من جميع التجار الذين تحولوا نحو الجنوب عبر وادى الفرات .[٧٣]

ولقد شكلت إيران بالفعل حاجزاً سياسياً من الصعب اجتيازه من الناحيـة الشرقية بالنسبة للدولة العثمانية ، حيث كان الأناضول التركى فيما مضى امتداداً طبيعياً للأراضي الإيرانية وأراضي آسيا الصـغرى ، غيـر أن العنصر التركى ذو الأصول الآسيوية ، قد سيطر في وقت من الأوقـات على مجمل الأراضي من آسيا الصغرى حتى البحر المتوسط ، وأقام دولة واسعة في هذه المنطقة ، وظل السلاجقة من بعدهم والعثمانيون يعتمدون

على المهاجرين التركمان القادمين من الشرق في بناء المجتمع التركي ونموه في الأناضول أو في البلقان . لذلك شكل قيام الدولة الصفوية في إيران حاجزاً سياسياً قطع الإتصال بين العثمانيين وبين أصولهم الشرقية(٧٤)، وكان ذلك دافعاً قوياً لهدم هذا الحاجز وإعادة الإتصال مع الشرق ، كما أن السلطان سليم أدرك أن الشاه اسماعيل يشكل عاملا خطراً من عوامل تفكك الأناضول العثماني ، وقد أثبتت أحداث التمرد التي قامت في أواخر عهد السلطان بايزيد الثاني ذلك ، وأن لا حل للمشكلة الأناضولية إلا بالقضاء على الصفويين .

كان على السلطان سليم قبل أن يقدم على عمل عسكري ضد الصفويين ، أن يخلص شرق الأناضول العثمانية من الموالين للدعوة الصفوية الشيعية، فلقد تواجدت قبائل القزلباش بأعداد كبيرة ، وقاموا بأعمال تخريب وقتل جماعية منذ أواخر عهد السلطان بايزيد الثاني .

ولقد قدرت أعدادهم في بداية حكم السلطان سليم بحوالي أربعين ألفا ، ولم يتخذ السلطان إجراءً مضاداً نحوهم إلا بعد استصدار فتوى شرعية من العلماء وعلى رأسهم ابن كمال ، بالعمل على القضاء على من لم يتب منهم أو يرتدع ، هكذا قام السلطان سليم بقتل عدة آلاف منهم ، وسجن من كان هناك أمل في إصلاحه ، وهكذا أمن من غدر قبائل القازلباش عند توجهه لقتال الصفوي .(٧٥)

ولكي يزيد من تأمين ظهيره عند القتال ، حاول تأمين كل الجبهات التي يخاف غدرها أثناء قتاله في الشرق ، لذلك أعاد تجديد الإتفاقيات المبرمة مع الدول الأوروبية خاصة المجر والبندقية ، وأقام حلفاً مع المماليك الذين انزعجوا من خطورة الدعوة الصفوية بالنسبة لأملاكهم في سوريا والحجاز ، وبذلك أتاحوا الفرصة لسليم لكي يحشد كل قوته ضد الصفويين. لكن وفقاً لبعض المصادر ، لم يقف الغوري مع العثمانيين في

حربهم ، ولم يتخذ كذلك موقفاً محايداً ، بل إنه اتخذ عدة إجراءات مضادة للدولة العثمانية أثناء قتالها مع الصفوى ، حيث أرسل قواته إلي حلب لمنع وصول الإمدادات العثمانية إلي جيش سليم ، كما أن الغورى قد أرسل رسولاً إلي الشاه يطلب مساعدته لقتال سليم ، وقد برر الغورى بعد ذلك تحركاته في الشام بمحاولة الوساطة بين الطرفين لإقرار السلام ، وهو الأمر الذي شك سليم في صحته وعلم منه أبعاد الخطر المملوكى القائم .

وهكذا استطاع السلطان سليم إعداد حملة عسكرية قوية ، للقضاء على الدولة الصفوية ، وتذكر بعض المصادر أن السلطان سليم قد أرسل لاسماعيل العديد من الرسائل يحثه فيها على الرجوع الي الدين الحنيف ، ونبذ الهرطقة هو وأصحابه ، وأبلغه فيها بفتاوى شيوخ الإسلام الذين أحلوا دمه وأباحوا قتاله هو وقومه ، لكن الشاه أرسل إليه برسائل يستهين فيها بشخصه ويحثه على قتاله . هكذا توجه السلطان سليم عام ١٥١٤م على رأس جيش من مائة وأربعين ألف مقاتل ناحية تبريز العاصمة الإيرانية ، ومن المؤكد أن الجيش الذي سار به سليم ، كان واحداً من أقوى جيوش عصره ، من حيث نوعية الأسلحة ، وأيضاً من حيث كفاءة من يستخدمها . أما قوات الشاه إسماعيل فهى تضم وحدات فرسان أقل عدداً لكنها فعالة بشكل كبير ، وإن كانت بلا مدافع أو بنادق .(٧٦)

تقابل الجيشان في صحراء جالديران – التى سميت باسمها الموقعة – الواقعة شرقي تبريز عام ١٥١٤م، كانت معركة جالديران أولى المعارك الحربية الكبرى للسطان سليم الأول ، والتى تحددت فيها استراتيجيته العسكرية بشكل كبير ، لقد قامت أساساً على استراتيجيات الجيش العثمانى التى تطورت تطوراً كبيراً في عهد الفاتح ، لكن السلطان سليم قد أضاف تطورات جديدة للمنظومة العسكرية العثمانية ، أدى الي نضجها بشكل كامل وتفوقها الذي سيظهر جلياً عند معاركه الكبرى مع المماليك .

كان الجيش العثماني ينقسم إلي ثلاثة أقسام ، يكون فيها السلطان في القلب، وعلى جانبيه فيلقان ، حيث يلتحق بالقلب وحدات الصاعقة و الطليعة والإحتياط . أما الجيش الصفوى ، فكان عبارة عن قسمين ، الجناح الأيمن حيث الشاه ، وعلى يساره فيلق الميسره .

لقد ميز الجيش العثمانى تنظيماته المستحدثة ، فقد ضم الجيش فرقة المدفعية الثقيلة التى جعلها العثمانيون فرقة أساسية في تشكيلة الجيش ، حيث أصبحت ذات بعد استراتيجي هام في الميدان ، لقد حولها العثمانيون من سلاح قلاع وحصار إلي سلاح ميدانى ، تم توظيفه بإتقان ومهارة بحيث يتآلف مع باقى فرق الجيش أثناء الهجوم ، وهذا ما سيضفى على المعارك العثمانية البرية في القرن السادس عشر عامل حسم فعال ، بالإضافة إلي البنادق التى تسلح بها كثير من المشاه .

بدأ جنود الصاعقة في الهجوم من القلب ، وعندئذ أمر السلطان بفتح جناحى الجيش على شكل هلال ، وأخذت فرقة المدفعية موضعها وبدأت بإطلاق النار على الجيش الصفوى مباشرة ، في الوقت الذي طوق فيه الجناحان الجيش الصفوى ، وتقدمت فرقة الإحتياطية إلي الأمام وهجمت مباشرة على الجناح الأيمن الذي يضم الشاه . وبذلك منى الجيش الإيرانى بهزيمة ساحقة وبدأ في الهروب من الميدان .(٧٧)

وبعد الموقعة ضم السلطان سليم إلي ملكه ولايتى ديار بكر وكردستان ، واحتل تبريز ونقل آلافا من أبرز تجارها وحرفيها وعلمائها إلي الأستانة، ورغم ذلك قرر إخلاء المدينة خشية تناقص التموين خلال فصل الشتاء ، وتراجع إلي القوقاز على أمل أن يعود في العام القادم لاستكمال احتلال إيران ، ولكن تراجع الصفوى إلي تبريز واستمرار مشاكل التموين وهبوط الروح المعنوية في جيش سليم أرغمه على سحب جيوشه إلي

الأناضول ، حيث أدى الشتاء القارص إلي موت عدة آلاف من قواتـه . حقيقة أن سليم استطاع إثر موقعة جالديران أن يفتح مناطق واسعة فـي الشرق ، إلا أنه لم ينجح في القضاء على الصفويين نهائيا.(٧٨) وكان ينوى فعل ذلك بعد القضاء على المماليك ، لكن الموت لم يمهله حتى ينقذ إيران من التحول الكامل إلي المذهب الشيعى ، الذي اكتمل تماما خلال القرنين التاليين .

لقد أعقب السلطان سليم حملة جالديران ، بحملات أخـرى فـي السـنة اللاحقة قبل هجومه على المماليك ، استطاع من خلالها القضـاء علـى امارة ذى القادر التابعة اسميا للمماليك ، ثم تقدم الي كردستان العـراق ، حيث أعلن الأكراد الولاء له بعد ما رأوه من التنكيل في ظل الصـفوى ، مع ذلك سمح لهم بالإستقلال الذاتى وحكم المنطقة نيابة عنه . ولقـد أدت هذه الأعمال العسكرية في شرقي الأناضول إلي سـيطرة الدولـة علـى الممرات الإستراتيجية المفضية من الأناضـول إلـي القوقـاز وسـوريا وإيران، واستطاعت الدولة بعد تلك المعارك السيطرة التامة على طريـق التجارة الشمالي من وإلي الهند ، والذي كان ينقل عبرها حريـر إيـران وغيره من منتجات الشرق كما سبق القول . لكن على مـا يبـدو كـان الصفوى مازال يشكل خطراً خاصة مع تواجد الدولة المملوكيـة ، التـى تحول دون إتمام السيطرة العثمانية على الأحداث، سواءً في الشرق عامة أو على الجبهة ضد الصفويين ، فضلاً عن مجابهة الغـرب الصـليبي ، هكذا بدأت أنظار السلطان سليم تتجه إلي القضاء على الدولة المملوكيـة في الشام ومصر .

فتح مصر والقضاء على المماليك :

للعلاقات العثمانية المملوكية تاريخ طويل ، يبدأ مع بداية ظهور العثمانيين على الساحة الدولية باعتبارهم قوة جهادية إسلامية ، لـذلك فقـد اعتبـر المماليك انتصار العثمانيين على الصليبيين هو انتصاراً للدين الإسلامي ، هكذا كانت العلاقات بين الدولة العثمانية وبين دولة سلاطين المماليـك ، علاقات ودية حافلة بتبادل السفارات بين البلدين ، فضلاً عن تبادل رسائل التهنئة بين البلدين ، في حالة تولى سلطان جديد مقاليد الأمـور، أو فـي حالة إحراز نصر عسكري كبير كفتح القسطنطينية ، الذي استقبله أهـل مصر بالفرح والسرور ، حتى ان ابن اياس وصف هذا اليوم بأنه أعظـم من يوم المحمل من كثرة الإحتفالات .

لكن هذه العلاقات ما لبثت أن بدأت تتعكر ويشوبها القلق والتـوتر منـذ أواخر عهد السلطان محمد الفاتح ، حيث بدأ النزاع حول إمارة ذى القادر الحدودية ، التى تتمتع بالحماية المملوكية ، وازدادت هذه العلاقات سـوءً عندما قام السلطان المملوكى قايتباي بإيواء الأمير العثمانى جـم ، الـذي نازع أخيه بايزيد الثانى على السلطة ، حيث قامت مناوشات حربية بـين الطرفين إلي أن تم الصلح بين الجانبين ، واتسمت العلاقات بالهدوء مرة أخرى ، حتى أن السلطان سليم ساعد السلطان الغورى مساعدة كبيرة في حروبه ضد البرتغاليين في البحار الشرقية ، لكن على ما يبدو أن الأمور ذهبت إلي الأسوء عندما تمت المواجهة العثمانية الصفوية ، والتى لم يقف فيها السلطان الغورى موقفاً محايداً ، مما جعل السلطان سليم يعمل علـى ضم إمارة ذى القادر الحدودية إلي ملكه ، وهذا ما زاد توتر العلاقات بين البلدين بشكل كبير ، غير أن المماليك كانوا يدركون توجه السلطان سليم إلي قتالهم إن عاجلاً أو آجلاً ، لذلك فقد عمل السلطان الغورى على كسب الجولة بالمبادرة إلي الحرب ، و خرج لقتال السلطان سليم في الشام .

لقد ذكرت بعض المصادر أن السلطان سليم لم يكن ينوي قتال المماليـك عندما خرج إليه السلطان الغوري بالقرب من حلب ، حيث انه خرج على رأس حملة كانت متوجهة على الأرجح لإتمام العمليات العسـكرية ضـد

الدولة الصفوية . يذكر ابن محمد اللخمى ذلك في كتابه ، فقال أن السلطان سليم (ذهب لاستئصال عدو الله مانع بره ، الكافر بنعمة ربه ، اسماعيل بن حيدر الصوفى ، فنهض أيده الله – السلطان سليم – نهوض الأسد في الغابات ، وشمر عن ساعدى الجد والثبات ، رجاء ثواب الله الكريم ، وفضله الواسع العميم ، وسار سيرا ثانيا ، الي أن وصل مدينة قرمان ، ورد عليه الخبر من هذه الأوطان ، بنزول الغورى من دار كنزه، ومقر ملكه وعزه ، فخرج من مصر مع جنوده كخروج فرعون من غير وفده ، الي أن أناخ بمحروسة حلب الشهبا) [٧٩] هكذا كان توجهه للقاء المماليك لم يكن سابق الإعداد والتجهيز ، لقد توجه ناحية الشام لما علم بخروج الغورى في جيشه يتحين لقاءه .

لم يكن من المتوقع سقوط المماليك بهذه الصورة السريعة في معركتين متتاليتين ، هما مرج دابق والريدانية ، لم يكن من السهل احتلال الشام ثم مصر في هذه الفترة الوجيزة ، لكن من الواضح أن السلطنة المملوكية كان قد نخر السوس في أوصالها إلي أبعد مدى ، لقد تهالكت بفعل عوامل عدة ، أولها طمع المماليك وجشعهم ، والذي أدى في النهاية إلي انفضاض أهل البلد (المصريين) عنهم ، بل لقد ذكرت المصادر أن سكان الشام خاصة عملوا على مساندة العثمانيين .

يشير ابن تغري بردي إلي ما وصل إليه حال المماليك من الإنهيار في القرن التاسع الهجري ، بأنهم مع قلتهم وضعف بنيتهم وعدم شجاعتهم ، غدا شرهم في الرعية معروفا ، ونفعهم في الناس مكفوفا . على الرغم من أنه لم يقع في هذا القرن لقاء مع خارجى (أي حروب خارجية) غير وقفة تيمور وغزو جزيزة قبرص . ويذكر أيضاً أن الواحد منهم أنفه في السماء ، ولا يهتدى لمسك لجام الفرس ، ليس لهم صناعة إلا نهب البضاعة ، يتعدون على الضعيف ويشرهون حتى في الرغيف ، جهادهم الأخراق بالرئيس ولا مروءة لهم .[٨٠]

ويذكر أن البلاد قد ساءت حالتها منذ أواخر عصر السلطان قايتباي ، إذ ضاق الناس بكثرة الأعباء المالية الملقاة على عاتقهم ، كما انتشر الطاعون انتشاراً خطيراً ، وفي وسط تلك الظروف القاسية لم يتورع المماليك عن إثارة الفتن والإنغماس في منازعات مع بعضهم البعض .

وعندما انتهى الأمر إلي السلطان الغوري ، اتبع سياسة تعسفية في إشباع خزانة الدولة بالمال ، فجمع الضرائب عشرة أشهر مقدماً دفعة واحدة ، ولم يكتف بفرض الضرائب على الأراضي والحوانيت والعقارات ، وإنما تجاوز ذلك إلي الطواحين والمعدات والسفن والدواب ، بل حتى الأوقاف الخيرية ، هذا إلي جانب أنه تلاعب في العملة لتستفيد الخزانة من الفارق بين العملة الجيدة والعملة الرديئة . وضاعف المكوس والرسوم الجمركية مما أنزل بالتجار – على وجه الخصوص – أضراراً بالغة ، وكانت النتيجة أن حقق الغوري أغراضه ، وحصل على ما كان يتطلع اليه من أموال ، ولكن ذلك تم على حساب شعب محطم ، أثقلت كواهله الإلتزامات والإحتكارت والضرائب ، وأقلقت مضاجعه الفتن والمنازعات بين أمراء المماليك وطوائفهم .[٨١]

لقد كان ظلم المماليك المتزايد سبباً مباشراً في سقوط دولتهم ، وكان سبباً آخر لسهولة سيطرة سليم على الأوضاع فيها . لقد ذكر ابن زنبل أن أهل حلب قدموا المساعدات للسلطان سليم عند دخوله إلي الشام . حيث يقول : (فأمر السلطان سليم بإرسال قاض إلي الغوري ، وكان اسم القاضي زبرك زاده ، وكان أعرجاً ، فما زال حتى وصل إلي حلب . فرأى أوطاق الغورى خالياً من العسكر ، ما فيه إلا نحو ألف أو ألفين ، لأنهم كانوا كلهم دخلوا إلي مدينة حلب ، وأخرجوا الناس من بيوتهم ، وسلبوا حريمهم وأولادهم ، وأذوهم الأذى البليغ ، وكان ذلك سببا لقيام أهل حلب مع السلطان سليم على الجراكسة ، لشدة ما حل بهم من الضرر منهم) .[٨٢]

ولقد قام الدكتور محمد حرب ، بترجمة وثيقة تاريخية بالغة الأهمية ، محفوظة في متحف طوب قابي باستانبول ، وهى عبارة عن عريضة كتبها علماء وقضاة وأشراف مدينة حلب وقدموها إلي السلطان سليم ، وتضمنت هذه العريضة مطالب أهالي حلب وأشرافها ، حيث ذكروا فيها: أن أهالى سوريا قد ملوا من ظلم المماليك، وأن رجال الإدارة والحكم يخالفون الشريعة الإسلامية ، وأن السلطان إن رغب في فتح سوريا فإن الأهالي على استعداد تام للترحيب به ، وأنهم سيأتون حتى مدينة عنتاب لاستقباله والترحيب به ، وأنهم سيطلبون منه تعيين وزير موثوق به لإدارتهم.[٨٣]

لهذا السبب على ما يبدو جاء في بعض المصادر أن السلطان سليم قد أرسل الي الغورى خطابا جاء فيه : (إن لم ترجع عما أنت فيه من الظلم والعناء على المسلمين وإلا جئتك بعسكر من الروم ، وأخرب مصرك عليك) ، فأرسل الغوري اليه : (أنا لا أحوجك للمجئ إلينا ، ولكن تأهب للقاء الأبطال ، وتنظر كيف تفعل الرجال).[٨٤]

لقد تقابل الجيشان في مرج دابق بالقرب من حلب ، وكان ذلك في شهر أغسطس عام ١٥١٦م ، كان الجيش العثمانى قليل العدد بالنسبة للجيش المملوكى ، لكن العثمانيين لم يلتفتوا لقلة عددهم مع اعتمادهم المباشر على الأسلحة النارية التى أهملها المماليك[٨٥] . كان الجيش العثمانى يملك ثلاثمائة مدفع[٨٦] ، تمكنت من حصد المماليك حصداً فضلاً عن بنادق المشاة . يصف ابن زنبل الجيش العثمانى في بداية الموقعة بقوله : (فلما اتضح النهار ركبوا كالبحر الزاخر ، فإذا صفوف العثمانية قد بانت صفا بعد صف خارجاً من الوصف ، والأعلام الملونة من اليسار والميمنة ، وهم سائرون كالبحر السيال والمحيط الميال ، وقد رتبوا الصف من كل طرف ، فإذا طير من الطرف الكبير الذي فيه السلطان سليم مدفع كبير

كالبرق الخاطف والرعد القاصف تزلزلت منه تلك الصحراء ، وطلع دخان كالجبال الزرقاء).[٨٧]

ويقول : (وضرب الروم بالمدافع والبندقيات حتى صار النهار كالليل الحالك من كثرة الدخان والغبار من حوافر الخيل).[٨٨]

ويقول : (وكان يجئ كل مدفع على نحو خمسين أو ستين أو مائة نفس فصارت تلك الصحراء كالمجزرة من كثرة الدماء).[٨٩]

هكذا كانت الأسلحة النارية خاصة المدافع أسلحة حاسمة في معارك العثمانيين ، حتى أن ابن زنبل قد ثار حنقاً من الأسلحة النارية ، من كثرة ما رأى من هولها فقال : (ولا ضرهم إلا البنادق . فإنه يأخذ الرجل على حين غفلة ، لا يعرف من أين جاءه ، فقاتل الله أول من صنعها).[٩٠]

سرعان ما انتهت الحرب بين الفريقين ، بعد أن قتل السلطان الغورى وأسر الخليفة العباسي ، وهكذا دخل السلطان حلب وسط ابتهاج الآلاف من الأهالي ، الذين رحبوا بالسلطان ، فتلقوا معاملته كرعايا عثمانيين في مدينة عثمانية .[٩١]

إستطاع بعد ذلك السلطان سليم مد سلطانه إلي كل مدن الشام ، بما فيها بيت المقدس ودمشق ، حيث لم يلق أي مقاومة تذكر فتقدم إلي مصر .

لقد تسلطن طومان باى (١٥١٦ – ١٥١٧م) آخر السلاطين المماليك في القاهرة ، بعد وفاة قونصوه الغورى ، وأخذ يعد العدة لمواجهة سليم ، إلاأن المصادر تذكر أن سليم لم يكن عازما على القضاء على المماليك في مصر، حيث بعث برسالة الي طومان باي يحثه فيها على الإعتراف بسيادة العثمانيين ، وله بعد ذلك حكم مصر بالنيابة عنه إلا أن المماليك رفضوا ، فاضطر طومان باي إعداد العدة لمواجهة جيش سليم . لقد كان طومان باي كما تقول المصادر ، رجل ذو همة عالية ومروءة كبيرة

وصلاح وتقوى ، حتى أن سليم عندما قابله أعجب به وقال (إن مثل هذا لا يقتل)[٩٢]، لكن خاير بك أوعز إلي السلطان سليم بضرورة قتله ، لكن بعد شنقه أمر سليم بتغسيله وتكفينه ، وصلى عليه بنفسه ، وتصدق على روحه كما ورد عن ابن زنبل .

تقابل السلطان سليم مع طومان باي في موقعة كبيرة (الريدانية) كانت حاسمة في سيطرة العثمانيين على مصر ، كانت في ذي الحجة عام ٩٢٣ ه / يناير ١٥١٧م ، كانت هذه الموقعة أكبر من مرج دابق وأعنف، فقد كان طومان باي ذو شجاعة وعزم ، لقد أوقع من الجنود العثمانيين عدداً كبيراً ، منهم الوزير العثمانى سنان باشا، الذي قتله طومان باي بنفسه ، إلا أن الغلبة في النهاية كانت للعثمانيين .[٩٣]، [٩٤] .

هكذا استطاع السلطان سليم الدخول إلي مصر وإنهاء السلطنة المملوكية ، وقد استقبله أهلها بالفرح والسرور والإستبشار، أملاً في إبطال المظالم التى يقول عنها ابن اياس (أنه حدث في أيام دولته – يقصد الغورى – من أنواع المظالم ما لم يحدث في سائر الدول من قبله) ويقول الجبرتى : (ولم يزل حتى تملك السلطان سليم الديار المصرية والبلاد الشامية وعادت مصر إلي النيابة كما كانت في صدر الاسلام ، ولما خلص له أمر مصر عفا عمن بقى من الجراكسة وأبنائهم ولم يتعرض لأوقاف السلاطين المصرية بل قرر مرتبات الأوقاف والحيزات والعلوفات وغلال الحرمين ورتب للأيتام والمشايخ والمقعدين ومصارف القلاع والمرابطين وأبطل المظالم والمكوس والمعلوم ثم رجع الي بلاده وأخذ الخليفة العباسي).[٩٥]

وهكذا استقر الأمر للعثمانيين ، وتقبل سليم ولاء زعماء القبائل البدوية وشريف مكة، وبذلك تمت له السيطرة على البقاع الإسلامية ، وكان تعيينه للشريف حاكماً على جدة والمدينة ومكة وسائر الحجاز سابقة سار

خلفاؤه على منوالها ، وقد أضفى ضم الدولة العثمانية للأماكن المقدسة الإسلامية عليها زعامة دينية في العالم الاسلامى.[٩٦]

وأصبحت استانبول بعد فتح مصر هي مقر الخلافة الإسلامية ، وسلطانها هو خليفة المسلمين ، وأصبحت الدولة تحمل على عاتقها الدفاع عن الإسلام بصورة رسمية ، ولم تقتصر استراتيجية الدولة بعد ذلك على الجهاد والفتح ، بل لقد حملت أعباءً إسلامية أخرى ، بدأت منذ ذلك الوقت تسترعى انتباهها ، كالمسألة المورسكية ، ومحاولة إعادة الأندلس ، وطرد الأسبان من الأراضي الإسلامية في الشمال الإفريقي ، وتأمين مياه البحر المتوسط خاصة الشرقية ، التى تنتشر فيها قرصنة فرسان القديس يوحنا ، ومجابهة البرتغاليين في البحار الشرقية ، وغلق البحر الأحمر أمام السفن الأجنبية لتأمين الأماكن المقدسة الحجازية ، ومحاولة الحد من النفوذ الشيعى الإيرانى في البلاد السنية .

وبدأ بالفعل السلطان سليم بعد فتح مصر محاولة العمل في مختلف الجبهات ، فبعد أن دخلت الجزائر في ظل الدولة العثمانية ، بدأ بارسال وحدات الجيش العثمانى إلي هناك لمساعدة المجاهدين في غرب البحر المتوسط ، ثم عمل على إعداد حملة تتوجه لإكمال السيطرة على الدولة الصفوية ، وحملة أخرى تتوجه لمقاتلة فرسان القديس يوحنا في رودس ، إلا أن الوقت لم يمهله ، فمات بعد ذلك بفترة قصيرة عام ١٥٢٠م، بعد فترة حكم قصيرة دامت ثمان سنوات ، لكنها كانت كفيلة لوصول الدولة العثمانية إلي أعتاب دولة إسلامية عالمية ، تحققت بالفعل في عهد خلفه سليمان .

هوامش الفصل الثالث

١- **فرديناند وايزابيلا** : فرديناند الثالث ملك مملكة أراجون ، احدى الممالك الصليبية في شبه جزيرة أيبيريا ، وايزابيلا الأولى هي ملكة مملكة قشتالة المجاورة لأراجون ، تزوجا عام ١٤٦٩م ، موحدين بذلك مملكتهما عام ١٤٧٤م ، فأصبحتا (مملكة اسبانيا) ، دخلا في حرب مع غرناطة آخر معاقل الاسلام في الأندلس حتى سقطت عام ١٤٩٢م ، أسسا محاكم التفتيش التى ساهمت بشكل كبير في هروب الكثير من المسلمين واليهود خارج الأندلس الي جانب تعذيب وقتل آلاف المسلمين .

٢- **قايتباى** : هو الملك الأشرف أبو النصر قايتباي المحمودى (١٤٦٨ – ١٤٩٦م) ، الخامس عشر من سلاطين الجراكسة في مصر ، جركسي الجنس جلب من بلاده الي مصر فأصبح من مماليك الملك الأشرف برسباي ، اعتق في عهد السلطان جقمق ، نال العديد من الوظائف في عهد السلطان جقمق وفي عهد السلطان اينال أصبح مقدم عشرة ، ثم أصبح في عهد خشقدم مقدم مائة ثم مقدم ألف ، وجعله الملك الظاهر يلباى رأس نوبة النوب ، حتى أصبح أتابكا للعسكر في عهد الملك تمر بغا ، وبعدها أصبح سلطانا . انظر : ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر ، (ج١٦ ، ص ٣٩٥) .

٣- محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، دار النفائس ، الطبعة الأولى عام ١٩٨١م ، ص ١٨٠

٤- خليل ايناجيك ، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء الي الانحدار ، ترجمة : محمد الأرناؤوط ، دار المدار الاسلامي ، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م ، ص ٤٩

٥- يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، الجـزء الأول ، ترجمـة عدنان محمود سليمان ، منشورات مؤسسـة فيصـل للتمويـل – استانبول عام ١٩٨٨م ،ص١٨٧

6- Shaw, History of ottoman empire, P.72

٧- بيتر شوجر ، أوروبا العثمانية ، ترجمة : د. عاصم الدسوقي ، دار الثقافة الجديدة ، الطبعة الأولى عام ١٩٨٨م ، ص ٨٦

٨- عبد العظيم رمضان ، تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحـديث ، الجزء الأول ، الهيئة المصرية العامـة للكتـاب ، ١٩٩٧م ، ص ١٥١ : ١٥٣

٩- كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة : نبيه أمـين فارس / منير البعلبكى ، دار العلم للملايين – بيـروت ، الطبعـة الخامسة ١٩٦٨م ، ص٤٤٥

١٠- المرجع السابق ، خليل اينالجيك ، تاريخ الدولة العثمانيـة الـخ ، ص ٥١

١١- أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التـاريخ العثمـانى ، دار الشروق ، ص ٧٣

١٢- المرجع السابق ، خليل اينالجيك ، تاريخ الدولة العثمانيـة الـخ ، ص ٥١

١٣- **الدولة الموحدية :** هى دولة اسلامية قامت في المغرب والأنـدلس فيما بين عامى (١١٣٠- ١٢٦٩م) ، تأسست على يد قبيلتى زناتة ومصمودة البربريتين ، قام الموحدون بقيادة عبد المؤمن بن علـى بانقاذ الأندلس من الهجمات الصليبية واستطاعوا تقويتها وضـمها بعد ذلك لملكهم بالمغرب ، استطاع الخليفة الموحدى المشهور أبـو

يوسف المنصور (١١٨٤ - ١١٩٩م) من هزيمة الصليبيين فـــي موقعة الأرك الفاصلة عام ١١٩٥م ، لكن الموحدين مـــا لبثـــوا أن تلقوا هزيمة ثقيلة بعد ذلك في موقعة العقاب عام ١٢١٢م ، والتـــي تعتبر بداية نهاية المسلمين في الأندلس ، ولقد توالت منذ ذلك الحين سقوط القواعد الاسلامية الكبرى في يد النصارى .

١٤- حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ، الهيئة المصـــرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٤م ، ص ٢٣٥

١٥- مرثيدس غارسيا أرينال ، الموريسكيون الأندلســيون ، ترجمـــة : جمال عبد الرحمن ، المجلس الأعلى للثقافة ، المشـــروع القـــومى للترجمة رقم ٤٥٨ ، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م ، ص ٣١ ، ٣٩

١٦- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ترجمة : عادل زعيتر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة عـــام ٢٠٠٠م ، ص ٢٧٠ (كتب المؤرخ الفرنسي Michelet أن الأسبان قـــد أفنـــوا فـــي غضون العشر سنوات الأولى بعد سقوط غرناطة مليـــون مســـلم بطرق شتى كحرقهم بالنار واجاعتهم واغراق سفنهم فـــي البحـــر وقتلهم) .

١٧- عادل سعيد بشتاوى ، الأندلسيون الموراكة ، القـــاهرة ، الطبعـــة الاأولى عام ١٩٨٣م ، ص ١٣١ ، ١٣٢

١٨- محمد رزوق ، الأندلسيون وهجراتهم الي المغرب ، افريقا الشرق ، عام ١٩٩٨م ، ص ٦٣ ، نقلا عن المؤرخ الأندلســـي المجهـــول وكتابه (نبذة العصر) ، ص ٣٩.

١٩- عبد العزيز محمود عبد الدايم ، بحث في كتاب (مصـــر وعـــالم البحر المتوسط) بعنوان ، (الصراع بين القوى المسيحية ودولـــة

المماليك الجراكسة في مياه البحر المتوسط) ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٨٦م ، ص ٢٠٥ : ٢١٩

٢٠- نادية محمود مصطفى ومجموعة باحثين ، العصر المملوكى من تصفية الوجود الصليبي الي بداية الهجمة الأوروبية الثانية ، المعهد العالمي للفكر الاسلامي ، الطبعة الأولى عام ١٩٩٦م ، ص١٢٠ ، ١٢١

٢١- عبد الجليل التميمي ، مقالة بعنوان (رسالة من مسلمي غرناطة الي السلطان سليمان القانونى سنة ١٥٤١م ، بالمجلة التاريخية المغربية، عدد ٣ / يناير عام ١٩٧٥م ، ص ٣٨ .

٢٢- المرجع السابق ، أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٩٤، ١٩٥ انظر نص الرسالة في كتاب المقري (أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض) ، تحقيق مصطفى السقا / وابراهيم الابياري / وعبد العظيم شلبي ، طبعة القاهرة عام ١٩٣٩م ، الجزء الأول ، ص ١٠٨ : ١١٥ والرسالة عبارة عن نصا صغيرا يمدح ويثنى على السلطان بايزيد الثانى ، تتبعه قصيدة طويلة من مائة وخمسة أبيات تشرح باسهاب حال المسلمين البائس في الأندلس .
ونورد مقتطفات من هذه القصيدة :

سلام كريم دائم متجدد — أخص به مولاي خير خليفة
سلام على مولاى ذى المجد والعلا — ومن ألبس الكفار ثوب المذلة
سلام عليكم من عبيد تخلفوا — بأندلس بالغرب في أرض غربة
أحاط بهم بحر من الروم زاخر — وبحر عميق ذو ظلام ولجة
سلام عليكم من عبيد أصابهم — مصاب عظيم يا لها من مصيبة

سلام عليكم من شيوخ تمزقت شيوبهم بالنتف من بعد عزة
سلام عليكم من وجوه تكشفت على جملة الأعلاج من بعد سترة
سلام عليكم من بنات عواتق يسوقهم اللباط قهرا لخلوة
سلام عليكم من عجائز أكرهت على أكل خنزير ولحم جيفة

وفى موضع آخر :-

ومن صام أو صلى ويعلم حاله ففي النار يلقوه على كل حالة
ومن لم يجئ منا لموضع كفرهم يعاقبه اللباط شر العقوبة
ويلطم خديه ويأخذ ماله ويجعلوه في السجن في سوء حالة
وفي رمضان يفسدون صيامنا بأكل وشرب مرة بعد مرة
وقد أمرونا أن نسب نبينا ولا نذكرنه في رخاء وشدة

وفي موضع آخر :

وقد بدلت أسماؤنا وتحولت بغير رضا منا وغير ارادة
فآه على تبديل دين محمد بدين كلاب الروم شر البرية
وآه على أبنائنا وبناتنا يروحون للبلاط في كل عدوة
يعلموهم كفرا وزورا وفرية ولا يقدروا أن يمنعوهم بحيلة
وآه على تلك المساجد سورت مزابل للكفار بعد الطهارة
وآه على تلك الصوامع علقت نواقيسهم فيها نظير الشهادة
وصارت لعباد الصليب معاقلا وقد أمنوا فيها وقوع الاغارة
وصرنا عبيدا لا أسارى فنفتدى ولا مسلمين نطقهم بالشهادة
فلو أبصرت عيناك ما صار حالنا اليه لجادت بالدموع الغزيرة

٢٣- المرجع السابق ، نادية محمود ، العصر المملوكى الخ ، ص ١٢٣

٢٤- محمد عبد اللطيف هريدي ، الحروب العثمانيـة الفارسـية ، دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة ، الطبعـة الأولـى ١٩٨٧م ، ص ٩ .

٢٥- كولن ترنر ، التشيع والتحول في العصر الصفوى ، ترجمة : حسين على عبد الستار ، منشورات الجمل - بغداد ، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م ، ص ١١٦

٢٦- المرجع السابق ، ص ١١٩ - ١٢٠

٢٧- المرجع السابق ، كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ص٤٩٢

٢٨- نصر الله فلسفى ، ايران وعلاقاتها الخارجية في العصر الصفوي ، ترجمة : محمد فتحى يوسف الريس ، دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٨٩م ، انظر مقدمة الكتاب .

٢٩- المرجع السابق ، كولن ترنر ، التشيع والتحول في العصر الصفوى ، ص ١٢٤

٣٠- المرجع السابق ، أحمد كوندز ، الدولة العثمانية المجهولة ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩

٣١- المرجع السابق ، أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني ، ص ٧٧

٣٢- عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ المشرق العربي ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٨م ، ص ٦٨

٣٣- ومن الغريب أن مدينة أردبيل التى شهدت بداية عهد الشيعة ودعوتهم مازالت بعض قراها سنية حتى الآن .

٣٤- المرجع السابق ، نصر الله فلسفى ، ايران وعلاقاتها الخارجية الخ ..... ، انظر مقدمة المترجم .

٣٥- المرجع السابق ، أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٦

٣٦- المرجع السابق ، خليل اينالجيك ، تاريخ الدولة العثمانية الخ ، ص ٥٣

٣٧- نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصر الوسيط ، القاهرة ١٩٧٣م ، ص ١٢٢ : ١٢٥

٣٨- فيج . جى . دى ، تاريخ غرب افريقيا ، ترجمة : د. السيد يوسف نصر ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ١٩٨٣م ، ص ١٠٥ ، ١٠٦

٣٩- ابراهيم على طرخان ، البرتغاليون في غرب افريقيا ، مقالة بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد الخامس والعشرون – الجزء الأول ، مايو ١٩٦٣م ، ص ٢٠ : ٢٣

٤٠- شوقى عطا الله الجمل ، المغرب الكبير في العصر الحديث ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى ١٩٧٧م ، ص ٤٤ : ٤٧

٤١- المرجع السابق ، ص ٤٩

٤٢- ذكر صاحب كتاب الاستقصا ، استيلاء البرتغاليين على ثغور المغرب فقال : (فاستولوا في سنة ثمان عشرة وثمنمائة على مدينة سبتة بعد محاصرتها ست سنين ، ثم في سنة اثنتين وستين وثمنمائة استولوا على قصر المجاز ، ثم استولوا في سنة تسع وستين وثمنمائة على طنجة ، ثم في حدود سنة ست وسبعين وثمنمائة ملكوا أصيلا ، وفي هذا التاريخ نفسه أو قبله بيسير استولوا على مدينة آنفا وبعض سواحل السوس ، ثم في حدود سنة سبع وتسعمائة نزلوا بأرض الجديدة فيما بين أزمور وتيط وبنوا بها حصن البريجة ، ثم في سنة عشر وتسعمائة استولوا على العرائش، ثم بعد ذلك بيسير ملكوا حصن أكادير وما اتصل به من سواحل

السوس الاقصى ، ثم ملكوا في حدود اثنتى عشرة وتسعمائة رباط آسفي ثم عطفوا على ثغر أزمور ثم المعمورة وهى المهدية ملكوها ايضا في حدود سنة عشرين وتسعمائة ، وبالجملة فلم يبق من ثغور المغرب الاقصى بيد المسلمين الا القليل مثل سلا ورباط الفتح وفوجئ المسلمون من هذا البرتقال بالأمر العظيم). انظر : أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ، الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى ، الجزء الرابع ، تحقيق وتعليق : جعفر الناصري و محمد الناصري ، دار الكتاب – الدار البيضاء عام ١٩٥٥ ، ص١١٠

٤٣- كانت هذه النقطة عند الجنوب الافريقي تسمى رأس العواصف ، ولقد أطلق عليه البرتغاليون اسم (رأس الرجاء الصالح) كناية عن هدف رحلاتهم حول هذه المنطقة .

٤٤- محمد حميد السلمان ، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج ، مركز زياد للتراث والتاريخ عام ٢٠٠٠م ، ص ٣٧ ، ٤١ ، ٤٢

٤٥- يوسف الثقفي ، دراسات متميزة في العلاقات بين الشرق والغرب ، دار الثقافة ، الطبعة الثانية ١٤١١ ه ، ص ٥٨

٤٦- فاروق عثمان أباظة ، أثر تحول التجارة العالمية الي رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ص ٤٢ ، ٤٣

٤٧- ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، طبعة مطبعة الشعب عام ١٩٦٠م ، ص ٧٥٣

٤٨- المرجع السابق ، على طرخان ، البرتغاليون في غرب افريقيا ، ص٢٧.

٤٩- المرجع السابق ، فاروق أباظة ، أثر تحول التجارة الخ ، ص ٤٤ ، ٤٥

٥٠- محمد حسن العيدروس ، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر ، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، الطبعة الثانية ١٩٩٨م ، ص ٢٠ ، ٢١

٥١- شوقي عبد القوى عثمان ، التجارة بين مصر وافريقيا في عصر المماليك ، المجلس الأعلى للثقافة ، عام ٢٠٠٠م ، ص ١٢٩

٥٢- المرجع السابق ، بدائع الزهور ، ص ٨٠

٥٣- المرجع السابق ، فاروق أباظة ، أثر تحول التجارة الخ ، ص ١١٧

٥٤- ابراهيم شحاتة حسن ، وقعة وادى المخزن في تاريخ المغرب ، قراءة تاريخية عبر علاقات المغرب الدولية في القرن السادس عشر الميلادي ، دار الثقافة – الدار البيضاء ، الطبعة الأولى عام ١٩٧٩م ، ص ٢٦ ، ٢٧

٥٥- المرجع السابق ، شوقى الجمل ، المغرب الكبير الخ ، ص ٨٠ : ٨٣

٥٦- المرجع السابق ، ص ٨٠ : ٨٣

٥٧- عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادى ، تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس ، الاسكندرية ١٩٦٨ ، ص ٤٠ : ٥٠

٥٨- الهادى التميمي ، مفهوم الامبريالية من عصر الاستعمار العسكري الي العولمة ، دار محمد على الحامى ، تونس عام ٢٠٠٤م ، ص ١٣ ، ١٤.

٥٩- فريدريك وليام بل ، الصراع البحري والقرصنة العالمية ، ترجمة : فؤاد السيد ، الجزء الأول ، مطبوعات جامعة القاهرة عام ١٩٧٧م، ص ٧٠ : ٨٥

٦٠- **بارباروسا** : تعنى ذو اللحية الحمراء ، ولقد أطلق هذا اللقب من قبل على فريديرك الأول امبراطور الجرمان الذي مات عام ١١٩٠م . لقد اشتهر بهذا اللقب خير الدين باشا أحد الأخوين ، الذي أسس ايالة الجزائر باسم الدولة العثمانية ، ثم أصبح قائدا للبحرية العثمانية ، كان اسمه يرعب الغرب وسفنه ، بل وكانت الأمهات في أوروبا ترعب أولادها باسمه . انظر : المرجع السابق، محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، هامش ١ ، ص ٢٠٤

٦١- عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، الجزء الثانى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثانية عام ١٩٨٦م، ص٩٠٧

٦٢- عزيز سامح ألتر ، الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية ، ترجمة : د. محمود على عامر ، دار النهضة العربية - بيروت ، الطبعة الأولى عام ١٩٨٦م ، ص ٥٤

٦٣- شارل أندري جوليان ، تاريخ أفريقيا الشمالية ، تعريب : محمد غزالي البشير بن سلامة ، الدار التونسية للنشر عام ١٩٨٥م ، ص ٣٥٦

٦٤- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص ٦٤ : ٦٧ .

٦٥- بسام العسيلي ، خير الدين بربروس ، دار النفائس ، الطبعة الأولى عام ١٩٨٠م ، ص ١٠٧ ، ١٠٨

٦٦- عبد الجليل التميمى ، أول رسالة من اهالي مدينة الجزائر الى السلطان سليم الأول عام ١٥١٩م ، مقال بالمجلة التاريخية المغربية ، تونس ، عدد ٦ ، يوليو ١٩٧٦م ، ص ١١٦ : ١٢٠

٦٧- المرجع السابق ، ص ١١٦ : ١٢٠

٦٨- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية الخ ، ص٩١١

٦٩- المرجع السابق ، نصر الله فلسفى ، ايران وعلاقاتها الخارجية الخ ، ص ١٤ ، ١٥

٧٠- زكريا سليمان بيومى ، قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين – التحالف الصليبي الماسونى الاستعماري وضرب الاتجاه الاسلامي ، عالم المعرفة – جدة ، ١٩٩١م ، ص ٦٣

٧١- المرجع السابق ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ص ٨٠٤

٧٢- المرجع السابق ، ص ٨٤٨

٧٣- محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة الصفوية في ايران ، دار النفائس ، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م ، ص ٧١ . ٧٢

٧٤- المرجع السابق ، ٧٣ ، ٧٤

٧٥- المرجع السابق ، أحمد كوندز ، الدولة العثمانية المجهولة ، ص ٢١٧

٧٦- المرجع السابق ، روبير مانتران ، تاريخ الدولة العثمانية ، الجزء الأول ، ترجمة : بشير السباعى ، ص ٢١٦

٧٧- المرجع السابق ، أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانيـــة ، ص ٢١٧ ، ٢١٨

٧٨- المرجع السابق ، أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التـــاريخ العثماني ، ص ٨٠ ، ٨١

٧٩- ابن محمد اللخمى الاشبيلي ، الدر المصان في سيرة المظفر ســـليم خان ، تحقيق : د. هانست ارنست ، دار احياء الكتب العربية عام ١٩٦٢م ، ص ٧

٨٠- المرجع السابق ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، الجـــزء ٧ ، ص ٣٢٨ ، ٣٢٩

٨١- سعيد عبد الفتاح عاشور ، الأيوبيين والمماليك في مصر والشـــام ، دار النهضة العربية عام ١٩٩٦م ، ص ٢٩٣ ، ٢٩٦

٨٢- ابن زنبل الرمال ، آخرة المماليك ، تحقيق : عبد المنعم عـــامر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسة الألف كتـــاب الثـــانى عـــام ١٩٩٨م ، ص ٩١

٨٣- المرجع السابق ، أحمد كونـــدز ، الدولـــة العثمانيـــة المجهولـــة ، ص ٢٣١

٨٤- المرجع السابق ، ابن زنبل ، آخرة المماليك ، ص ١٠٥

٨٥- عرف المماليك الأسلحة النارية في نهاية ســـتينات القـــرن الرابـــع عشر، أى أنهم كانوا متأخرين عن أوروبا في هذا المضمار بـــأكثر من أربعين سنة ، كما سبقوا العثمانيين بمقدار ستون عاما . ولكن المماليك لم يستغلوا هذه المعرفة ليحولوها الي أسلحة حاسمة فـــي ميدان القتال بحكم أن من شأن ذلك أن يتطلب تعديل علـــى تنظـــيم الجيش المملوكى وأساليبه القتالية ، وحينئذ يصبح الجيش المملوكى

جيش مشاة ويطرح الفروسية التقليدية والسهم والرمح والسيف والخيل . ومع ذلك فقد حاز الغورى مدافع لكنه ركز توزيعها على شواطئ البحرين المتوسط والأحمر والمحيط الهندى لمواجهة البرتغاليين ، ويذكر أن المماليك لم يهتموا باستعمال المدافع والأسلحة النارية في الحرب الميدانية معتمدين على تفوقهم في حرب الفرسان ومحتقرين الأسلحة الجديدة وحرب المشاة . انظر : المرجع السابق ، أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثمانى ، ص ٨٠ ، ٨٤ ، هامش ١

٨٦- المرجع السابق ، أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٢٢

٨٧- المرجع السابق ، ابن زنبل ، آخرة المماليك ، ص ٩٨

٨٨- المرجع السابق ، ص ١٠٠

٨٩- المرجع السابق ، ١٠١

٩٠- المرجع السابق ، ١٢٥

٩١- منذ ذلك الوقت اعتبر السلطان سليم الأول نفسه خليفة للمسلمين ، فعندما حضر أول خطبة جمعة في الجامع الكبير في حلب ، وصفه الخطيب بأنه حاكم الحرمين الشريفين ، لكن السلطان تدخل وأبدلها بوصف (خادم الحرمين الشريفين) ، وكان أول من تلقب بهذا اللقب والذي استمر في سلالة الخلفاء العثمانيين حتى سقوط الخلافة عام ١٩٢٤م . انظر : المرجع السابق ، أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٢٥

٩٢- المرجع السابق ، ابن زنبل ، آخرة المماليك ، ص ٢٥٢

٩٣- أسامة حسن ، طومان باي آخر سلاطين المماليك ، دار الأمل ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م ، ص ٤٠

٩٤- يذكر المؤرخ التركى أوزتونا ، أن السلطان سليم استخدم في هـــذه المعركة لأول مرة مدافع حديثة تطلق من خمسة الي عشرة طلقات، بين الواحدة والأخرى فترة زمنية قصيرة جدا ، هذا بالاضافة الـــي نوع من المدفعية استخدم لأول مرة في التاريخ العســكري تســمى (المدافع ذات السبطانات الاخدودية) توجد منها نماذج في المتحف العسكري في استانبول ، لم تظهر هذه المدافع في أوروبا إلا عـــام ١٨٦٨م ، حيث استخدمت من قبل الجــيش البروســي . انظـــر : المرجع السابق ، أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانيـــة ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

٩٥- عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار فـــي التـــراجم والأخبـــار ، الجزء الأول ، المطبعة العامرة الشريفة بمصـــر عـــام ١٣٢٢ ه ، ص ٢١ .

٩٦- المرجع السابق ، أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التـــاريخ العثماني ، ص ٨٥ .

الفصل الرابع

المرحلة الرابعة (١٥٢٠ – ١٥٧٤م)

ذروة التوسع الإمبراطوري

- **سليمان الأول (١٥٢٠ – ١٥٦٩م)**

التوسعات العثمانية في الجبهة الأوروبية :

- فتح رودس .
- موقعة موهاج وفتح المجر .
- حصار فيينا ١٥٢٩م .
- معركة بريفينزا البحرية .
- من حملة المجر ١٥٤١م إلي حملة المجر ١٥٦٦م .

التوسعات العثمانية في شمال إفريقيا :

- الفتح العثماني الأول لتونس .
- معركة الجزائر الكبرى .
- فتح طرابلس الغرب .
- حصار مالطة .

التحركات العثمانية على الجبهة الشرقية .

النفوذ العثماني في البحار الشرقية .

- **سليم الثاني (١٥٦٦ – ١٥٧٤م)**

- إقرار الحكم العثماني في اليمن .
- التدخل العثماني في القوقاز وروسيا .
- فتح قبرص .
- الثورة المورسكية ومعركة ليبانتو البحرية .
- إعادة فتح تونس .

الفصل الرابع

المرحلة الرابعة (١٥٢٠ – ١٥٧٤ م)

ذروة التوسع الامبراطوري

تمهيد :

تعد هذه المرحلة هى آخر مراحل التوسع الإمبراطوري الفعلي للدولة العثمانية ، ولقد بلغت ذروة التوسع الذي لم يقتصر على الحدود السياسية، بل وصلت الدولة إلي أوجها في كافة المجالات ، من اقتصاد وعلوم وفنون ودبلوماسية وعسكرية وإدارة ، لقد أصبحت الدولة بالفعل في هذه المرحلة دولة عالمية وإمبراطورية إسلامية مزدهرة ، استطاعت أن تجمع الشرق الأدنى من جديد في وحدة سياسية بعد أكثر من خمسة قرون من الصراعات و التفسخ السياسي ، لكنها ما لبثت أن شهدت أولى بوادر الضعف مع نهايات تلك المرحلة ، لكن ذلك الضعف لم يصل إلي الولايات بل كان متمثلاً في المركز، الذي بدأ يعانى من الشللية وتعاظم قوة وسلطات الصدور العظام بسبب غياب السلطان المستمر في ساحة المعارك .

لقد جاءت هذه المرحلة الهامة في تاريخ الدولة العثمانية في ظل تغيرات سياسية واجتماعية كبيرة ، شملت قطاعات واسعة من العالم المتصل آنذاك بالدولة العثمانية ، وكان أهم هذه التغيرات بالطبع واقع على الجانب الأوروبي ، لقد شهدت أوروبا طفرة كبيرة منذ اكتشافها للطريق التجاري البحري ، بالإضافة إلي اكتشاف العالم الجديد ، وكل هذا قد أدى إلي تدفق الثروات على غرب أوروبا ، خاصة المعادن النفيسة التى تدفقت من مناجم أمريكا مباشرة إلي القارة الأوروبية ، التي بدأت تخرج من أزماتها الاقتصادية الطاحنة ، عن طريق نمو طبقة التجار التي تطلعت الي القوة والنفوذ السياسي الذي سلك في تلك الآونة طريق البحر ، حيث المجد

والثروة ، فاتجهت كل الثروات للإستثمار في البحر، سواءً في التجارة الوافدة من الشرق أو في استثمار أراضي العالم الجديد ، حيث المناجم والأراضي الزراعية الواسعة ، لقد بدأت أوروبا بالفعل المرحلة الإمبريالية الأولى للإستعمار .

لكن الإستعمار في هذه الآونة المبكرة كان ينقسم إلي نوعين ، إستعمار ساحلى كان قاصراً على مراكز عسكرية منتشرة على السواحل الإستراتيجية ، ولم يمتد في الداخل إمتداداً سكنياً ، ولقد بدأ هذا النوع من الإستعمار على يد البرتغال ، ويرجع ذلك الي ضعف قدرة البرتغال البشرية التى لم تتجاوز المليون نسمة في تلك الآونة ، أما النوع الثانى من الإستعمار فكان استثماراً قائماً على الناحية الزراعية واستغلال المناجم والمواد الأولية ، وكان يتركز هذا النوع في العالم الجديد (قارتى أمريكا).

لقد حاولت الدولة العثمانية أن تجاري العصر باتجاهها إلي البحر وتكوينها أسطولاً ضخماً ، نافست به الأساطيل العملاقة لإسبانيا والبرتغال في الشرق والغرب ، إلا أن توجهات الدولة العثمانية في تلك الآونة لم تكن نفس توجهات الغرب الأوروبي الذي نما نمواً مطردا بعد استعماره للعالم الجديد ، فضلاً عن المراكز الحيوية التجارية في آسيا وافريقيا ، لقد تركزت وجهة الدولة العثمانية في محاولاتها المستمرة للسيطرة على التجارة وانتزاعها من الأوروبيين ، وإنعاشها للطريق القديم، وضربها المصالح الغربية الأروبية في البحار الشرقية والبحر المتوسط ، وسيطرتها على المراكز الحيوية في الشرق الأوسط ، هذا بالإضافة إلي العودة إلي استراتيجيات الدولة القديمة في التوسع والجهاد على الجبهة الأوروبية ، بعد توقفها فترة من الوقت في عهد السلطان سليم ، لقد شهدت أوروبا في ذلك الوقت تطوراً لأسرة الهابسبورجHabsburg حيث استطاعت تكوين إمبراطورية مسيحية كبيرة ، إمتدت من أواسط أوروبا

عند النمسا إلي اسبانيا بما في ذلك إيطاليا باستثناء فرنسا ، هذا فضلا عن أملاكها في ماوراء البحار وأمريكا .

لذلك كان على الدولة العثمانية في هذه المرحلة أن تكون منافساً قوياً يصد التمدد الإسباني ، سواء من الناحية الأوروبيـــة أو فـــي شـــمال إفريقيـــا والمتوسط ، هكذا عمل السلطان سليمان على ضرب المصالح الإســـبانية في كل مكان بشتى الطرق والوسائل الممكنة ، فتكونت تبعاً لذلك جبهتان كبيرتان ، جبهة إسلامية شرقية ، بزعامة الدولة العثمانيـــة ، والأخـــرى مسيحية غربية ، بزعامة هابسبورج (الإمبراطورية الرومانية المقدسة) ، وما لبثت هذه الجبهة أن اشتعلت من كافة الإتجاهات ، وظل التصادم قائما بين الفريقين حتى انحصرت القوة الاسبانية في القرن السابع عشر أمـــام المد الانجليزي – الفرنسي الملحوظ .

سليمان الأول (القانوني) (١٥٢٠ – ١٥٦٦م) :

إرتقى السلطان سليمان الأول العرش بعد وفاة أبيـــه ســـليم الأول عـــام ١٥٢٠م ، وهو يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاما ، ويعده المؤرخـــون أعظم شخصية في التاريخ العثمانى ، ومن أعظـــم شخصـــيات العصـــر الحديث ومن أشدها تأثيراً . لقد تولى السلطة حوالي ستة وأربعين عاماً ، فأصبح بذلك أطول السلاطين حكما عبر تاريخ الدولة الطويل ، وصـــلت خلالها الدولة إلي قمة التقدم والإزدهار ، أما عن الأحداث المتتابعة فـــي تلك الفترة الطويلة فأفضل وصف لها ما قالـــه شـــوجر : (فيمـــا يتعلـــق بسياسات سليمان الأول ، فإنها من فرط ضخامتها تستعصي على التقييم)، ثم قال : (إنه كان سلطاناً محارباً لم يمر عام من أعوام حكمه التى بلغت ستة وأربعين عاماً دون أن يقود جيشه في معارك هنا وهناك).[1]

لكن مع عظمة شخصية السلطان سليمان وقدرته العسكرية والدبلوماسية والإدارية الفائقة ، كان لقبه (القانوني) يقر أهم أعماله على الإطلاق ، وهو وضع قوانين مكملة لقوانين السلطان الفاتح ، سارت عليها الدولة حتى القرن التاسع عشر ، لقد كانت تلك القوانين محط أنظار الأوروبيين منذ وضعها ، فقد شملوها بالفحص والدرس والتحليل . لكنه لم يضع هذه القوانين فقط ، بل باشر تنفيذها بكل دقة وأمانة، فقد كان بشهادة معاصريه رجلاً عادلاً حكيماً .

لقد استطاعت الدولة في عهده أن تسيطر على جبهاتها الواسعة سيطرة مطلقة ، فلأول مرة في تاريخ الدولة نجد حروبا في جبهات متعددة ، خاضتها عدة جيوش وأساطيل ، لها نفس الكفاءة والقدرة والمهارة . لقد تحولت قطاعات الجيش والأسطول العثمانى إلي جيوش ذات استقلالية ومركزية واضحة ، إستطاعت من خلال ذلك أن تدبر شئونها بنفسها دون اعتماد مباشر على المركز في استانبول ، ولذلك وجدنا رؤساء البحر يفتحون جبهات قتالية في البحار الشرقية والبحر المتوسط في نفس اللحظة التى ينطلق فيها السلطان على رأس جيشه ليقاتل على الجبهة الأوروبية أو الجبهة الشرقية ، لقد وصلت استراتيجيات الدولة في عهد سليمان الي قمة نضوجها .

التوسعات العثمانية في الجبهة الأوروبية :

لقد وصلت حدود الدولة العثمانية في أوروبا قبل عهد سليمان إلي أقصى اتساع لها عند نهر الدانوب شمال البلقان ، والذي كان يمثل حدوداً طبيعية للجناح الأوروبي العثماني ، لكن عند اعتلاء السلطان سليمان العرش ، كان الخطر المجري مازال قائما شمال الدانوب ، فكانت المجر تمثل الخطر الأكبر للدولة في أوروبا منذ دخولها البلقان ، كان ملوكها دائما يسعون لضم الصرب ، فضلا عن دعمهم المستمر للقلاقل في البلقان ،

وقد تفاقم الأمر بعد الوضع السياسي الجديد في أوروبا ، وهـو تكـوين إمبراطورية الهابسبورج في وسط وغرب أوروبا ، يتزعمها ملك اسبانيا الجديد شـارل الخـامس أو شـارلكان Charles V, Holy Roman Emperor[٢] (١٥٢١ – ١٥٥٦م) ، لقد بدا الوضع خطيراً على النفـوذ العثمانى في البلقان وأوروبا عامة ، لذلك كانت سياسة الدولة منـذ ذلـك الوقت تقضي بالقضاء على النفوذ المجـري نهائيـاً ، والتوسـع شـمال الدانوب، قبل أن يستطيع شارلكان ضم هذه المناطق لمملكته .

لقد كانت قلعة بلجراد Belgrade التى فشل العثمـانيون مـراراً فـي اقتحامها ، هي مفتاح وسط أوروبا والباب الأول للسيطرة على المجـر ، لقد وقفت بلجراد من قبل حجر عثرة أمام التوسع العثمانى شمال الدانوب ، خاصة في عهد محمد الفاتح الذي حاصرها تسعة وثلاثون يوما بجيش ضخم وعدة حربية هائلة ، حتى أن الفاتح قد جرح أثناء قتاله بنفسه فـي ذلك الحصار ، هكذا قام السلطان سليمان بالإعداد لحملـة تكتسـح قلعـة بلجراد ، لقد خرج السلطان على رأس حملته الأولى متجهاً إلي بلجـراد بعد ثمانية أشهر من توليه العرش ، كان الجيش يحمل مؤنا تكفى لحصار المدينة عدة أشهر ، حتى أن بعض المؤرخين قد غالى فـي حجـم هـذه المؤن ، فقد ورد أن الحملة تضمنت ثلاثين ألف جمـل ، وعشـرة آلاف عجلة محملة بالطحين والشعير ، وثلاثـة آلاف جمـل لحمـل البـارود والزخيرة.[٣]

ولقد استطاع السلطان سليمان بالفعل اقتحام المدينة بأسهل مما كان يظن ، ويرجع ذلك غالباً إلي ضعف مقاومة المدينة عن السابق ، بسبب أحـوال المجر السياسية المضطربة في ذلك الوقت . هكذا فـتح الطريـق علـى مصراعيه أمام السلطان لفتح المجر بأكملها ، لكن السلطان رجع بعـد أن ترك حامية في المدينة لإتمام ما بدأه أبوه من إعداد لفتح جزيرة رودس ،

التى شكلت عظيم الخطر على الملاحة الاسلامية خاصة في شرق المتوسط .

فتح رودس[٤]:

لقد شكلت رودس منذ بداية التاريخ الاسلامي عائقاً كبيراً أمام البحرية الاسلامية في شرق المتوسط ، لقد كانت تابعة للدولة البيزنطية حين قرز معاوية بن أبي سفيان– رضي الله عنه – فتحها عام ٥٢ للهجرة [٥] ، فأصبحت تابعة للدولة الأموية حتى انسحب يزيد بن معاوية منها في ظروف غير معروفة فرجعت للنفوذ البيزنطى ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت جزيرة رودس مأوى لقطاع الطرق ، ومرتكزاً للحملات الصليبية على الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط ، حتى أصبحت مركزاً لفرسان القديس يوحنا الأورشليمي (Hospitales of saint John)[٦] ، بعد طردهم من القدس إلي عكا على يد الناصر صلاح الدين ، ثم بعد جلاء الحملات الصليبية عن الشام توجهوا إلي قبرص ثم إلي رودس ، حيث أسسوا مملكة مسيحية تحت رعاية البابا امتد نفوذها ليشمل جزر الدوديكانيز Dodecanese القريبة ، فتحولت بذلك طائفة الفرسان الي عصابة من القراصنة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط [٧] تعمل لحساب البابا والدول الأوروبية الصليبية لعرقلة البحرية الإسلامية في المتوسط ، كما أصبحت مصدر تهديد للطريق البحري الذي يربط عاصمة الدولة العثمانية بموانئها في البحر المتوسط والأحمر ، وأصبحت بالتالي خطراً على قوافل الحجاج.[٨]

ولقد حاول المماليك القضاء على نفوذ فرسان القديس يوحنا عن طريق احتلالهم قبرص عام ١٤٢٦م ، لكن رودس أصبحت محور عملياتهم العسكرية منذ ذلك الوقت، فحاول المماليك فتحها ثلاث مرات في أعوام ١٤٤٠ ، ١٤٤٣ ، ١٤٤٤م ، انتهت كلها بالفشل.[٩]

لقد حاول السلاطين العثمانيين منذ عهد الفاتح فتح هذه الجزيرة ، لكن مناعتها الطبيعية وحصونها القوية حالت دون ذلك ، فضلا عن الخبرة الحربية والبحرية الكبيرة التى تمتع بها المدافعون عنها .

منذ الفتح العثماني للشام ومصر ، أصبحت هذه الجزيرة تمثل نقطة ارتكاز شديدة الخطورة للصليبيين والقراصنة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، يعملون من خلالها على إرسال حملات تهدف إلي تخريب السواحل العثمانية ، و في الحيلولة دون الإتصال بينها وبين بعضها من ناحية ، وبينها وبين المركز في استانبول من ناحية أخرى ، وكانوا يعملون على الإستيلاء على السفن التجارية وأسر المسلمين واستهداف قوافل الحجيج .

هكذا أصبح القضاء على فرسان القديس يوحنا في رودس أمر لا يقبل التأجيل أو التهاون ، لهذا السبب خرج السلطان سليمان بنفسه على رأس الحملة المتوجهة لفتح الجزيرة ، ويشير ذلك إلي الأهمية القصوى التى تقتضيها فتح هذه الجزيرة ، هذا فضلاً عن خسارة الدول الأوروبية لمركز متقدم قرب الحدود العثمانية وداخل مياهها الإقليمية .

ولقد ساعدت الظروف في ذلك الوقت السلطان سليمان للإسراع بالإنقضاض على الجزيرة ، بسبب الصراعات الناشبة بين الدول الأوروبية ، فمن جهة اشتعلت الحرب بين اسبانيا وفرنسا حول دوقة ميلان ، ومن جهة أخرى كان البابا منشغلا بمحاربة ومقاومة الألمانى لوثر Martin Luther مؤسس المذهب البروتستانتى المعادى للكاثوليكية، كما كانت المجر في اضطراب داخلي بسبب صغر سن ملكها الجديد . ولم تستطع البندقية القيام بأى عمل معاد للدولة العثمانية ، بعد أن وقعت مع السلطان سليم عام ١٥١٧م اتفاقية تجارية تمنح البنادقة العديد من الإمتيازات للإتجار في الأراضي العثمانية.[١٠]

وقبل أن يشرع السلطان بالقيام بالحملة اتخذ إجراءً هاماً ، وهو إرسال رسالة إلي قائد الجزيرة (السيد العظيم) ، يعرض عليه فيها الإنسحاب من الجزيرة وتسليمها في مقابل منحه هو ومن بالجزيرة الأمان(١١) ، لكن ذلك بالطبع لم يؤد إلي النتيجة المرجوة ، فبدأ السلطان سليم على الفور الإعداد للحملة .

تختلف المصادر حول عدد سفن هذه الحملة المتجهة لحصار رودس ، فأجمعت المصادر التركية على أنها سبعمائة سفينة ، منها ثلاثمائة حربية والباقى سفن نقل ، والمصادر الأوروبية تتحدث عن عدد ما بين الثلاثمائة والأربعمائة سفينة ، لكن أياً كان الأمر فالعدد ضخم للغاية بالمقارنة مع الهدف الذي خرجت من أجله الحملة ، وهو اقتحام جزيرة صغيرة في البحر ، لكن هذا العدد يشير من ناحية أخرى الي حسم نتائج هذه الحملة بصورة مسبقة .

هكذا خرجت الحملة العثمانية في يوليو عام ١٥٢٢م ، حيث أقلع الاسطول العثمانى من استانبول ووصل الجزيرة بعد حوالي ثلاثة اسابيع، وبدأ الاسطول العثمانى على الفور اتخاذ التدابير اللازمة قبل وصول السلطان لبدء الحصارفي ٥ رمضان ٩٢٨ ه الموافق ٢٩ يوليو ١٥٢٢م .(١٢)

كان دخول الميناء مستحيلا نتيجة السلسلة الحديدة التى وضعت على مدخل الميناء ، كما حدث من قبل في حصار القسطنطينية ، وكانت أسوار القلعة غاية في الحصانة لدرجة أنها بلغت سبع خطوات مع مد الرجل إلي نهايتها ، ويحيط بالأسوار خندق من الخارج زيادة في القوة والمنعة.(١٣)

كان للقلعة سورين تحت الأرض ، لهما امتداد فوق الأرض عرض كل واحد منهما سبعة أذرع ، ملئ ما بينهما بالتراب والحجارة مقدار عشرة

أذرع ، وكان لسور تلك القلعة فتحات صغيرة اصطفت فيها فوهات المدافع الكبيرة من كل جانب[١٤] . لقد كانت معركة مصيرية لكلا الفريقين . بدأت المدفعية العثمانية تباشر عملها من أول يوم في الحصار، فقد بدت كيوم القسطنطينية سلاح حسم ، لكن مدفعية الأسطول وما استطاعت المراكب نقله من المدافع لم تكن بقوة مدفعية حصار القسطنطينية ، التى تزن آلاف الأطنان ، لذلك لم يكن تأثيرها حاسماً منذ بداية المعركة ، فضلاً عن امتلاك قلعة رودس مدافع قادرة على الرد باستمرار وإيقاع الخسائر على الجانب العثمانى ، وكان من الصعب على الجنود الاقتراب من الأسوار التى تحيطها الخنادق وعلى رأسها متربصون يرمون كل من يقترب .

هكذا اقتضت الخطة التى بدأ تنفيذها للوصول إلي الأسوار ، وهى حفر عدة طرق بإتجاه الخندق ، ثم حمل التراب المحفور إلي الخندق ليكون مانعا من وصول الرمى للعثمانيين إلي أن يصل العثمانيون للخندق ، ثم يلقى التراب فيه ليصلوا الي الأسوار، وعندها يقومون بنقبها ليتمكنوا من دخول القلعة[١٥] ، في نفس الوقت الذى تعمل فيه المدافع بشكل متواصل لدك الأسوار والعمل على تصدعها .

وظل الحصار مضروباً حول المدينة ، ومحاولات اقتحامها من قبل العثمانيين مستمرة ، واشتداد القتال بين الفريقين حتى يوم ١٠ ديسمبر وعندما أوشكت الحصون على الانهيار ، إذ بفرسان القديس يوحنا يطلبون الإستسلام ، على أن يمنحوا الحرية الكاملة في الإنسحاب ويضمنوا عدم الإعتداء ، وبالفعل استسلمت رودس بعد قتال عنيف وحصار دام عدة أشهر بدا فيها الجيش العثمانى مصمما على الفتح .[١٦]

بعد استسلام المدينة اتخذ السلطان سليمان قراراً بعدم التعــرض نهائيــا لفرسان القديس يوحنا عند الإنسحاب ومغادرتهم المدينة ، وقد أدى هــذا القرار لاحقا إلي كوارث حلت بالمسلمين عامة في البحر المتوسط . لقــد فعل السلطان ما فرضته عليه الشريعة وهو احترام العهــد ، إلا أن هــذا العهد لا يجب أن يمنح أساساً للمفسدين في الأرض وقاطعى الطريــق ، فجزاؤهم كان القصاص العادل لمن استباحوا حرماتهم ودماءهم .

فكان نتيجة منح العفو لمن لا يستحق ، هو أن تدور الدائرة على المسلمين من جديد بيد من منحوا العفو . لقد بدأ فرسان القديس يوحنا البحث عــن ملجأ يأويهم بعد فقدهم الجزيرة ، في نفس الوقت الذي كان فيــه شــارل الخامس يدعم ويساند كل من يتعرض للمسلمين ومصالحهم بأذى ، لــذلك أهدى إليهم جزيرة مالطه الإستراتيجية المشرفة علــى حوضــى البحــر المتوسط ، بشريطة مؤاذرته على الحرب ضد المسلمين ، هكذا تمركزوا من جديد في جزيرة مالطه ، لكن هذه المرة أكثر تحصينا وأقوى عتاداً ، وأفضل موقعا ، بالإضافة إلي أنهم أصبحوا حلفاء للإمبراطور شــارلكان ومن رعاياه، فأصبحت جزيرة مالطه منذ ذلــك الوقــت مصــدر شــلل لتحركات البحرية الإسلامية بين حوضي البحر المتوسط ، بالإضافة إلي أنها أصبحت ركيزة كبرى للحملات الصليبية على الشــمال الافريقــي ، لوقوعها بالقرب من الساحل ، فضلا عن دعمها المبُاشر للمعاقل الاسبانية في حلق الوادي ووهران والمرسى الكبير .

موقعة موهاج وفتح المجر[١٧] :

لقد كانت الحروب الأوروبية قائمة على قدم وساق في الناحية الغربيــة ، بين فرنســا بقيــادة فرنســوا الأول Francis I (١٥١٥ – ١٥٤٧م) ، واسبانيا بقيادة شارلكان الذي استطاع مد نفوذه كما سبقت الإشــارة إلــي معظم أوربا الغربية والوسطى ، هكذا انقلب ميزان القوى فــي الغــرب

الأوروبي ، فأصبحت الإمبراطورية الإسبانية ذات سيطرة ونفوذ في البروالبحر ، لقد انتهت هذه الحرب إلي أسر فرنسوا الأول ملك فرنسا ، الذي أجبر على توقيع معاهدة مدريد عام ١٥٢٦م المجحفة بالنسبة للفرنسيين ، في مقابل اخلاء سبيله .

لم يجد فرنسوا الأول سبيلا إلي إعادة توازن القوى غربي أوروبا ، فضلاً عن الحد من النفوذ الإسبانى إلا التحالف مع الدولة العثمانية العدو اللدود لإسبانيا ، والتى تتضارب كل مصالحها مع المصالح الاسبانية ، خاصة بعد وصول النفوذ الهابسبورجى الموالي لإسبانيا إلي قرب الحدود العثمانية شمالي نهر الدانوب ، حيث المجر وبوهيميا .

وجد هذا التقارب الفرنسي صدىً كبيراً من الناحية العثمانية ، لقد أدرك السلطان سليمان بذكائه السياسي ضرورة إقامة هذا التحالف ، الذي من شأنه مد النفوذ العثمانى إلي الغرب الأوروبي ، وسهولة ضرب المصالح الإسبانية غربي المتوسط ، بعد أن بدأ العمل على ضربها في وسط أوروبا ، هكذا وقعت اتفاقية عام ١٥٢٨م مع فرنسا ، التى جددت فيها الدولة العثمانية الإمتيازات التى سبق منحها سلاطين المماليك للفرنسيين ، كان إبرام هذه المعاهدة مشجعا لملك فرنسا والسلطان سليمان ، على عقد معاهدة هامة أكثر شمولاً عرفت باسم (معاهدة صداقة وتجارة بين الامبراطورية العثمانية وفرنسا) وقد عقدت في فبراير عام ١٥٣٥م[١٨] ، كان من نتائجها زيادة التعاون بين الأسطولين الفرنسي والعثمانى، فضلا عن التعاون من أجل ضرب المصالح الإسبانية ، فما لبث الطرفان أن عملا على استعراض حلفهما بالهجوم المشترك على إيطاليا ، العثمانيون بحراً من الجنوب ، والفرنسيون براً من الشمال ، ولقد قام الأسطول العثمانى بهجمات قوية على شواطئ نابولى التابعة لشاركان ، وعلى حين تقدم الفرنسيون في شمال إيطاليا للإستيلاء على ميلانو وجنوه، و بدأ خير

الدين بربا روسا بسلسلة من الغارات على أملاك الهابسبورج في غربي البحر المتوسط وأواسطه ، لكن مساعى البابا قد أحبطت هذا التعاون المشترك، حيث أجري الصلح بين فرنسا واسبانيا ، وبدأ الإعداد لحملة صليبية مشتركة ضد أملاك الدولة العثمانية .(١٩)

لقد بدأ السلطان العثمانى منذ بداية تقاربه مع الفرنسيين على ترك المواجهات الغرب متوسطية مع اسبانيا للقائد البحري خير الدين بربا روسا، الذي أصبح نائبا عن السلطان في غرب المتوسط ، على أن يتولى السلطان سليمان المواجهات البرية في وسط القارة الأوروبية ، والتى تهدف إلي حماية النفوذ العثمانى وتوسيع الممتلكات على حساب هابسبورج ونفوذه في وسط القارة الأوروبية ، ولقد ساعد على ذلك ظهور ما يسمى بالإصلاحات الدينية بزعامة مارتن لوثر ، والإنشقاق عن الكنيسة الكاثوليكية ، حيث لقيت دعوته إقبالاً عظيماً في وسط أوروبا على حساب النفوذ البابوى . ولقد أدى هذا الإنشقاق الكنسي إلي سهولة السيطرة وضمان عدم توحد الجبهة المسيحية أمام المساعى العثمانية .

بعد أن فتح السلطان سليمان قلعة بلجراد الحصينة ، أصبحت أراضي المجر مفتوحة أمامه دون عائق يذكر ، فبدأ السلطان سليمان الإعداد لحرب شاملة لاكتساح المجر ومواجهة الهابسبورج مواجهة مباشرة .

سار السلطان سليمان من استانبول في ابريل ١٥٢٦م ، وصل بلجراد بجيش يتكون من مائة ألف جندي وثلاثمائة مدفع سيار ، وبدأ في عبور الدانوب ، هنا تذكر المصادر أن السلطان أمر المدفعية بتحطيم الجسر الذي عبر عليه الجيش ، لضمان عدم العودة إلي الوراء في حالة الهزيمة، دخل الجيش بعدها سهل المجر الكبير من الجنوب ووصل إلي صحراء موهاج Mohács ، التى تقع على مسافة ١٨٥كم غربي بلجراد و١٧٠كم

جنوب بودا العاصمة المجرية ، فأصبحت المسافة الفاصلة بـين الجـيش واستانبول حوالي ١٥٠٠كم ، تلاقى الجيش العثمانى مع الجيش المجري المكون من حوالي مائتى ألف جندى من أجناس مختلفة ، وكـان سـهل المجر حينئذ ملئ بالمستنقعات نتيجة هطول الأمطار المستمر.(٢٠)

كانت مقومات الخطة العثمانية التحلى بالصبر قدر الإمكان حتـى يبـدأ الهجوم المجري أولاً ، وعندئذ يتراجع الجيش العثمانى ، لتبدأ المدفعيـة العثمانية من القلب في حصد الجنـود ، واسـتطاعت بالفعـل المدفعيـة العثمانية تدمير الخيالة المدرعة لجيش المجر دفعة واحدة ، وبعد الضربة الأولى للمدفعية تدخل جناحى الجيش للسـيطرة علـى البقيـة، وخـلال مناورات قام بها الجيش تم استدراج المتبقى من جيش المجر إلي منطقـة المستنقعات ، كان من نتيجة ذلك غرق ملك المجر لايوش الثانى Louis II (١٥٠٦ – ١٥٢٦م) ومعظم الجيش المجري وأسر حوالي ٢٥ ألـف جندى .(٢١)

كانت المعركة فاصلة بمعنى الكلمة ، لقد انتهت قوة مملكة المجر تمامـا بسرعة لم يتوقعها السلطان نفسه ، دخل بعدها السلطان سليمان عاصـمة مملكة المجر بودا الواقعة على ضفة نهر الدانوب ، واستطاع العثمـانيون السيطرة على الجزء الآخر من المدينة ، الواقع علـى الضـفة الأخـرى والمسمى بست عام ١٥٤١م ، فأصبحت بذلك مدينة بودابست Budapest مدينة عثمانية ، حتى استطاع هابسبورج حكام النمسا اسـتردادها عـام ١٦٨٦م .

لقد أدى احتلال بودا وانتقال الصراع إلي وسط أوروبا ، إلـي الصـدام المباشر بين هابسبورج في النمسا وألمانيا بالإمبراطورية العثمانية ، هكذا دخلت الدولة العثمانية إلي حلقة أخرى من حلقات الصراع فـي القـارة الأوروبية ، بزعامة السلطان سليمان القانوني .

يقول أرنولد توينبى Toynbee عن هذه المعركة : (إن الضــربة التــى وجهها السلطان سليمان القانوني في موهاكس (موهاج) قد أجبرت ما تبقى من مملكة المجر على الإلتحام مع ما تبقى من مملكة النمسا طيلة أربعــة قرون حتى انهارت الدولة العثمانية) .

حصار فيينا ١٥٢٩م :

لقد حاصر العثمانيون مدينة فيينا Vienna قلــب مملكــة الهابســبورج الأوروبية مرتان ، عــام ١٥٢٩م ، ١٦٨٣م . قــام الســلطان ســليمان بالحصار الأول ، لكنه لم يكن حصاراً بالمعنى الدقيق للكلمة أريــد بــه إسقاط المدينة ، بل لقد تم على اثر ظــروف وملابســات نتطــرق الــي بعضها.

عندما استولى السلطان سليمان على مدينة بودا عاصمة المجر ، لم يكــن يروم من ذلك الإحتفاظ بالمجر كإقليم يخضع للحكم العثمانى المباشر[٢٢] ، فمع توالي دخول الأقاليم الأوروبية تحت السيطرة العثمانية ، لم يكن من السهل إخضاع كل تلك الأقاليم دفعة واحدة للإدارة المركزية في استانبول، اذ كان يلزم ذلك الإستقرار في هذه المناطق بشكل كامــل ، لكــى يــتم إخضاعها وعثمنتها كما حدث في البلقان ، لكن الأمر هنــا يختلــف . إن البلقان تمثل امتدادا طبيعيا للأراضــي العثمانيــة الأوروبيــة ، وعمقــا استراتيجيا في إطار التواجد العثمانى في أوروبا ، أما الأراضي الواقعــة شمال نهر الدانوب ، من المجر وبوهيميا ثم النمسا وألمانيا ، فلم يكن من السهل إخضاعها مباشرة للإدارة العثمانية ، نظراً لاختلاف طبيعــة تلــك البلاد وسكانها تماماً عن الطبيعة والثقافة العثمانية الإسلامية ، فضلاً عن بعد هذه البلاد الشديد عن مركز الإمبراطورية والسيطرة في اســتانبول ، إلي جانب عدم امتلاك القدرة البشرية اللازمة لاستيطان تلك الأراضــي الشاسعة البعيدة دفعة واحدة ، هكذا عمل السلطان سليمان على إخضــاع

أقاليم ما وراء الدانوب للحكم العثمانى غير المباشر ، عن طريق تعيين أمراء أو ملوك موالين للسيادة العثمانية ، فيضمن بذلك تأمين حدوده الأوروبية وتحصيل الجزية من تلك البلاد ، حتى يتسنى للدولة بسط هيمنتها شيئا فشيئا عن طريق دخول المستوطنين المسلمين إلي تلك الأراضي ، ونشر الثقافة الإسلامية كما حدث في كثير من بلدان شرق أوروبا .

هكذا بعد إخضاع المجر واحتلال عاصمتها (بودا) ، وضع السلطان سليمان على عرشها حاكماً موالياً يدفع الجزية ويصد هجمات هابسبورج الشمالية ، وكان هذا الملك هو زابوليا Zapolya ، لكن سرعان ما عاد السلطان إلي استانبول بعد فتح المجر ، فاستطاع فرديناند Ferdinand (١٥٢١ – ١٥٦٤م) هابسبورج شقيق الإمبراطور شارلكان وحاكم النمسا وألمانيا ، السيطرة مرة أخرى على مدينة بودا وإبعاد زابوليا عن حكم المجر ، فمن هنا كان على السلطان سليمان التوجه بحملة جديدة في سبتمبر عام ١٥٢٩م ، للقضاء على نفوذ الهابسبورج في المجر وإعادة السيطرة على بودا ، ولم يكن مقصد الحملة هو فتح فيينا وإخضاعها ، لذلك لم يكن الجيش مجهزاً بآلات الحصار الثقيلة والمدافع الضخمة التي يمكن لها أن تفتح مدينة كبرى كفيينا ، فضلاً عن أن مدة الحصار وهي ثلاثة أسابيع ، لم تكن كافية أبداً لاسقاط مدينة هي مفتاح قلب أوروبا ، مع العلم أن جزيرة مثل رودس تم فتحها في أكثر من مائة وثلاثين يوماً.

لقد تمكن السلطان سليمان بالفعل من انتزاع بودا من الجيش الألمانى بعد خمسة أيام من وصوله ، هكذا عاد الوضع كما هو عليه في المجر ، حيث نصب زابوليا مرة أخرى على عرشها ، إلي جانب وضع حامية عثمانية داخل المدينة ، لكن الأمر لم يكن كافيا إلي هذا الحد ، وإلا عادت الجيوش الألمانية النمساوية مرة أخرى لاحتلال المدينة بعد مغادرة السلطان

سليمان ، لذلك كان على السلطان القيام بحملة واسعة النطاق خلف المجر وداخل امبراطورية هابسبورج ، وهى على الأرجح حملة تأديبية، وفي نفس الوقت تهدف إلي اجتثاث النفوذ الألمانى تماماً من المنطقة التابعة للعثمانيين .

كان على السلطان سليمان أولاً البحث عن الجيش الألمانى النمساوى بقيادة فرديناند حتى يتم تدميره ، لكن على ما يبدو أن جيوش الهابسبورج كانت تتجنب لقاء الجيش العثمانى في حرب ميدانية مفتوحة ، فمازالت نتيجة معركة موهاج ماثلة أمام أعينهم، لذلك استطاع السلطان سليمان التوغل في القارة الأوروبية إلي أبعد مدى ، حتى أن فرديناند قد ترك عاصمة ملكه فيينا وانسحب الي مدينة لينز Linz ، حتى يتجنب العثمانيين ، وبعث إلي شارلكان يبلغه بوصول جيوش سليمان إلي نهر الراين Rhein، وأنه يحتاج إلي مدد عاجل لمواجهته ، إلا أن شارلكان كان مشغولا آنذاك بصراعه وحربه مع فرنسا ، ولم يستطع إرسال مساعدات غير وحدات صغيرة من المرتزقة للدفاع عن فيينا .

لقد استطاع الجيش العثمانى اجتياح الأراضى الأوروبية حتى الحدود السويسرية ، والوصول بالفعل الي نهر الراين عند خط طول ٩ غرباً ، واستطاع الجيش احتلال جراز Graz المدينة الثانية في النمسا ومدينة ماريبور Maribor في سلوفينيا ، ثم اجتياح الأقاليم النمساوية (بافيرا ، مورافيا ، بوهيميا ، سلوفيكيا ، سلوفينيا).[٢٣]

وبعد أن عجز العثمانيين عن العثور على الجيش الألمانى ، قاموا بحصار فيينا حوالي تسعة عشر يوما بدون جاهزية مسبقة لهذا الحصار ، ومع ذلك فقد حاول الجيش اقتحام المدينة بالوسائل المتاحة ، ولقد سجل يوميات هذا الحصار وزير الحرب النمساوى بيتر شتيرن الذي اشترك في الدفاع عن فيينا .

لقد استطاع الجيش العثمانى البالغ تعداده حوالي مائة وخمسين ألف جندى محاصرة مدينة في قلب أوروبا تبعد حوالي ألفى كيلومتر عن المركز في استانبول ، فكانت أولى المشاكل التى واجهته بالتأكيد مشكلة الدعم اللوجستى ، فبعد المسافة وطول موسم الغزو وهطول الأمطار المستمر قد أدى إلي نقص حاد في المؤن ، لذلك لم يتمكن الجيش من إطالة فترة الحصار .

كانت تتركز خطة اقتحام المدينة في حفر خنادق تصل الي أسفل الأسوار والأبراج الرئيسية للمدينة ، ثم اقامة حجرات تحت نقاط معينة في الأسوار وملئ هذه الحجرات بالبارود ثم تفجيرها ، لكن هطول الأمطار المستمر قد أدى الي امتلاء معظم هذه الحجرات بالمياه وإتلاف البارود ، ومع ذلك تمكن الجيش من تفجير أجزاء من السور لكنها لم تكف لاقتحام الجنود ، واستبسل المدافعون حتى تمكنوا من سدها ، هكذا كان على الجيش العثمانى الإنسحاب والعودة إلي استانبول في هذه الظروف الصعبة ، فكان طريق العودة شاقاً وطويلاً ، في ظل ظروف الطقس ونقص المؤن ، فمات الآلاف من الجنود ونفقت الآلاف من الدواب ، لقد كانت حملة فيينا هى أطول عملية غزو في التاريخ العثمانى.(٢٤)

بعد الرجوع من حملة فيينا أصبح الوضع في المجر لصالح السلطان ، لكنه أراد القيام بحملة يستطيع فيها هزيمة جيش هابسبورج في حرب ميدانية ، لتدمير قوتهم تماماً وإبقائهم غير قادرين على النفاذ خلف حدودهم ، فخرج السلطان على رأس حملة جديدة عام ١٥٣٢م ، مصطحباً معه مائتى ألف جندى وأربعمائة مدفع ووصل الي قلعة كونز على بعد ستين ميلا من فيينا ، حيث كان يأمل في جر شارلكان الي موقعة حاسمة (٢٥) ، لكن السلطان أيقن أن هابسبورج لن ترض أبداً بحرب ميدانية ومواجهة مباشرة مع الجيش العثمانى في وسط أوروبا ،

هكذا بدأ شارلكان يعمل على ضرب العثمانيين في مكان آخر لا يتقابل فيه مع جيوش سليمان ، فأمر أنــدريا دوريـــا Andrea Doria [٢٦] قائـــد الاسطول الاسباني بضرب المدن العثمانية في المورة ، فاستطاع بالفعــل انتزاع كورون coron من العثمانيين .

وفى نفس الوقت ظهرت تهديدات الصفوي من الناحية الشرقية ، والذي استغل تواجد سليمان على الجبهة الأوروبية وتقدم واستولى على بغداد . حينئذ اضطر السلطان سليمان الي عقد الصلح مع فردينانـــد والرجـــوع سريعا الي الجبهة الشرقية ، فأبرمت معاهدة اســـتانبول عـــام ١٥٣٣م ، حيث تم بموجبها تثبيت الحدود العثمانية – الألمانية عل أساس الحـــدود النمساوية – المجرية الحالية تقريبا.[٢٧]

لقد أدرك السلطان سليمان قبل توجهه لقتال الدولة الصفوية أن شارلكان قد فتح الجبهة لمواجهة العثمانيين في المتوسط ، علـــى الأرجـــح لتخفيـــف الضغط على جبهة أوروبا الوسطى ، فضلا عن إقامته لحلف مشترك بينه وبين الدولة الصفوية ، ليقوم الصفويون بضرب العثمانيين من الشـــرق ، في نفس الوقت الذي يقوم فيه الأسبان بشن هجمات من الغـــرب ، لـــذلك ألقى السلطان عبء الجبهة الغربية على خير الدين برباروســـا ، الـــذي استدعاه إلي استانبول قبل توجهه لحرب الصفويين ، حتى يسند له قيـــادة الأساطيل العثمانية رسمياً[٢٨] (منصب قوبدان باشا) ، بالإضافة الي كونه بكلر بك الجزائر (الوالي) ، وبذلك يكون قد أصبح نائباً عن السلطان في حروب الدولة في البحر المتوسط وخاصة في غربه ، ولقد دفع التحـــالف الصفوي – الاسباني سليمان بكل قوة لعقد التحالف العثماني – الفرنســـي لدفع الفرنسيين للإشتراك مع خير الدين في حربه ضد اســـبانيا غربـــي المتوسط ، أثناء غيابه على الجبهة الصفوية أو في حالـــة تواجـــده فـــي أوروبا .

معركة بريفينزا (بروزة) البحرية :

لقد استطاع خير الدين برباروسا منذ توليه قيادة الأسطول العثمانى عــام ١٥٣٣م ، إخبار أندريا دوريا بصفة عملية أنه يفوقه قوة ومهارة ، فلــم تقتصر نشاطات الأسطول في عهده على البحر المتوســط ، بــل تعدتــه لتشمل البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندى ، فكانت الغــزوات البحرية منذ ذلك الوقت تنطلق بقيادة رؤساء البحر في أكثر من إتجاه في ذات الوقت ، مما يشير إلي ما وصل إليه الأسطول العثمانى فـــي ظــل هؤلاء القادة من القوة والهيمنة والضخامة ، لذلك أصبح خير الدين خصماً عنيداً لإسبانيا خاصة في البحر المتوسط ، أحبط مخططاتهــا ومطامعهــا مراراً وتكراراً ، مما جعله محل ثقة السلطان الذي فوضه لإدارة عمليات البحر المتوسط .

بعد الإتفاقية التى وقعها السلطان مع فرنسا عــام ١٥٣٥م ، كــان عليــه إظهار هذا الحلف عملياً على أرض الواقع ، ومن ناحية أخــرى كانــت فرنسا عازمة على الضغط على اسبانيا بواسطة هذا التحــالف ، فعملــت على إشراك الدولة العثمانية في حملتها الهجومية على إيطاليا ، وجــرى الإتفاق على أن يسيطر الفرنسيون على شمال ايطاليا بينما يفتح العثمانيون جنوبها ، ومما شجع السلطان على الإشتراك في هذه الحملة نقض البندقية لصلحها الموقع مع الدولة العثمانية بمساعدتها لإسبانيا .

هكذا خرج السلطان على رأس حملة توجهت إلي ألبانيا ، بعد خروج خير الدين باشا بالأسطول من اســتانبول عــام ١٥٣٧م ، واشــترك الجــيش العثمانى والأسطول في حصار جزيرة كورفو Corfu التابعة للبندقيــة ، ومع أن فرنسا قد عدلت عن مهاجمتها لشمال ايطاليا لعقدها هدنة نــيس Nice مع اسبانيا في يونيو ١٥٣٨م ، إلا أن خير الدين ما لبث أن توجه للإستيلاء على جزر الأرخبيل ، ثم هاجم الســواحل الجنوبيــة لإيطاليــا

وأنزل قوات عثمانية على مقربة من مدينة أوترانتو Otrante[٢٩] ، نفس المدينة التى استولى عليها محمد الفاتح قبل وفاته في حملته الأخيرة على إيطاليا ، لذلك قامت الشائعات في أوروبا بزحف السلطان سليمان على روما ، لتحقيق حلم جده الفاتح بالسيطرة على إيطاليا .

هكذا تكون حلف صليبي لصد الهجمة العثمانية ، يتكون من إمبراطورية إسبانيا بكاملها وجمهورية البندقية وبابا روما ، وتلاقت أساطيل الحلف عند ميناء بريفينزا Prevenza جنوبي جزيرة كورفو في البحر الأيونى ، وكان أسطول الحلف هائلاً حيث تشير بعض المصادر إلي وصوله إلي حوالي ستمائة سفينة ، تحمل نحو ستين ألف جندى بقيادة أندريا دوريا ، أما عن الاسطول العثمانى فكان لا يتعدى مائة واثنين وعشرين سفينة ، تحمل حوالي اثنين وعشرين ألف جندى .

تلاقى الأسطولان في موقعة بروزة البحرية ، وكان انتصارا هائلا للعثمانيين رغم قلة عدد سفنهم بالنسبة للأسطول الصليبي ، لكن ذكاء خير الدين ودهائه العسكري الذي اشتهر به ، كان له عامل مهم وحاسم في هذا النصر ، حيث اعتمد على عاملى المفاجأة والسرعة ، فضلاً عن قدرة السفن العثمانية على المناورة وسرعة استدارتها بالمقارنة مع السفن الصليبية ، فهاجم الأسطول الصليبي بكل قوته قبل أن يأخذ أهبته للقتال ، فتفرقت سفن الأسطول من هول الصدمة الأولى ، ولم تستمر المعركة أكثر من خمس ساعات ، تحطمت فيها أكثر من مائة سفينة صليبية ، وهربت باقي السفن من المعركة وعلى رأسها أندريا دوريا.[٣٠]

كانت لهذه المعركة العديد من النتائج الاستراتيجية الهامة ، حيث أدى هذا الإنتصار إلي سيطرة الأسطول العثمانى على البحر المتوسط ، حتى هزيمته في معركة ليبانتو البحرية عام ١٥٧١م ، وعلى اثر هذا الإنتصار

عقد الصلح بين البندقية والدولة العثمانية عام ١٥٣٩م ، بشـــرط خـــروج البندقية من التحالف الصليبي ضد الدولة العثمانية .

من حملة المجر ١٥٤١م الي حملة المجر ١٥٦٦م :

قام السلطان سليمان بحملة قصيرة على مولدافيا (الأفلاق) عام ١٥٣٨م ، الإمارة الرومانية التابعة للعثمانيين ، والتى دخل الجزء الساحلى منها على البحر الأسود لأسباب استراتيجية تحت الحكم العثمانى المباشر في عهـد بايزيد الثانى ، كانت هذه الحملة أغلب الظن حملة تأديبية ، لم يكن مـن ورائها هدف للتوسع أو الإخضاع المباشر لكامل الامارة ، لـذلك كانـت حملة قصيرة سرعان ما عاد منها السلطان في نفس السنة .

أما الأوضاع في المجر فقد تردت ، اثر وفاة ملكهـا زبوليـا المـوالي للعثمانيين عام ١٥٤٠م ، حيث استغل فرديناند هابسبورج الأوضاع فـي المجر مرة أخرى وأراد السيطرة عليها ، فأرسل جيشا ألمانيـاً لاحـتلال بودا ، لكن سرعان ما وصل الجيش العثمانى بقيادة سليمان ، فأدى إلـي هروب الجيش الألمانى من وقع المفاجأة .

لقد أرغمت الظروف في المجر السلطان سليمان على تحويلها إلي ايالـة عثمانية خاضعة للحكم العثمانى المباشر ، حيث أطلق عليها إيالة بودن ، فأصبحت الإيالة الثانية بعد مصر وقبل الروملى في التشريفات العثمانيـة (كترتيب لأهمية الولايات) . لقد ظل شريط من الأراضـي فـي شـمال شرقى المجر بحوزة الملك فرديناند ، الذي حاول مرة أخرى الإسـتيلاء على بودا بعد رجوع السلطان سليمان عام ١٥٤٢م ، لكنه لم يوفق ، هكذا كان على السلطان سليمان القيام بحملة أخرى على المجر عام ١٥٤٣م ، توافقت مع خروج بربا روسا في حملة بحرية بالإشتراك مع فرنسا لفـتح جبهة أخرى غربي المتوسط ضد أسبانيا.[٣١]

أبحر خير الدين بارباروسا من استانبول على رأس أسطول عثمانى يتجه الي جنوب فرنسا لمساعدة الفرنسيين على تخليص ميناء نيس Nice الفرنسي من القوات الإسبانية ، التى استولت عليه عقب هدنة نيس بين فرنسا وإسبانيا ، و حاول خير الدين في طريقه عبر المتوسط الإضرار بالأراضي الاسبانية قدر المستطاع ، حتى وصل الي مارسيليا Marseille ، وبدأ العمل مع الأسطول الفرنسي لتخليص نيس التى استعصت قلعتها على الفتح ، لكن الأسطول العثمانى لم يغادر فرنسا بل اتخذ مدينة تولوز Toulouse قاعدة له ، بعد أن صدرت الأوامر الفرنسية بإخلاء الثغر من جميع سكانه ، ليكون قاعدة للأسطول العثمانى يشن منه الهجمات على سواحل اسبانيا وايطاليا ، فأصبحت تولوز مدينة عثمانية يرفع فيها الآذان خمس مرات يوميا، واستطاع خير الدين في الفترة التى قضاها في فرنسا (١٥٤٣ - ١٥٤٤م) أن يلحق أشد الضرر بقوات شارلكان وممتلكاته الأوروبية ، وقد خرج الاسطول العثمانى من تولوز بحوال أربعة عشر ألف أسير من قوات شارلكان .[٣٢] لقد برهنت هذه الحملة على السيطرة العثمانية الكبيرة غربي المتوسط ، وشكلت محور ضغط على شارلكان بفتح جبهة قتالية أخرى ، تتزامن مع توجه السلطان سليمان إلي حملته الكبيرة في المجر.

تميزت حملة السلطان سليمان عام ١٥٤٣م ، بكثرة المؤن والعتاد ، وهو ما جعلها حملة مؤثرة وطويلة ، لقد تم نقل المؤن عن طريق الأسطول النهري ، الذي سار عبر دلتا الدانوب في البحر الأسود بطول النهر تقريباً ، ليصل بالمدد الي الجيش الذي عبر النهر وأخذ في إسقاط القلاع المجرية ، التى لم يتم إسقاطها في الحملة السابقة ، والتى استولى عليها الألمان ودافعوا عنها بقوة . لقد استطاع الجيش العثمانى استعمال مدافع الحصار بكل قوتها لإسقاط القلاع والمدن المجرية الهامة ، خاصة بعد

اتخاذهم مدينة بودا كمركز لعملياتهم العسكرية ، فقد سهل ذلك كثيرا في عمليات الإقتحام ، فاستطاعوا فتح العديد من القلاع والمدن أهمها : مدينة استول وسيمبرج Stuhlweissenburg ، والمركز الدينى للمجر مدينة استركون Esztergon على مسافة حوالي ٣٠كم غربي بودا ، والتى استسلمت بعد حصار شديد ، فأصبحت هى ومدينة استول وسيمبرج لوائين هامين في ايالة بودين [٣٣] ، [٣٤] ، وهكذا تم اخضاع المجر نهائيا.

نتيجة للضغط العثمانى على الجبهة الألمانية ، أذعن كل من فرديناند وشارلكان لتوقيع معاهدة استانبول عام ١٥٤٧م ، والتى اشتركت فيها فرنسا نزولاً على رغبة السلطان سليمان ، وكانت هذه المعاهدة بمثابة انتصار كبير للدبلوماسية العثمانية[٣٥] التى أملت شروطها عند وضع بنود المعاهدة ، والتى كان من أهمها : الإعتراف بالفتوحات التركية ، أن يتم دفع ضريبة سنوية (جزية) تبلغ ٥٣ ألف ليرة ذهبية ، لا يعاد اللاجئون إلي تركيا من الرعايا الألمان إذا كانوا مسلمين ، لا يستعمل الإمبراطور أو الملك صفة الإمبراطور أبداً في مكاتباته مع الجهات الدبلوماسية العثمانية ويعتبر كملك لإسبانيا فقط ، ويوافق على استعمال عبارة (كارلوس ملك ولاية اسبانيا) ، ويستعمل لقب (حاكم العالم) بالنسبة للسلطان سليمان في المكاتبات الدبلوماسية العثمانية مع أوروبا.[٣٦] هكذا أصبحت الدولة العثمانية بناءً على هذه المعاهدة سيدة أوروبا ، وأصبح السلطان سليمان هو الحاكم الوحيد الذي يطلق عليه لقب إمبراطور أوحاكم العالم (باديشاه جيهان) .[٣٧]

لقد توقف الوضع على الجبهة الأوروبية بعد توقيع المعاهدة لمدة أربعة سنوات كاملة، خاصة وأن الوضع على الجبهة الشرقية تجاه إيران كان محتقنا على اثر حملات الصفوى ضد الحدود الشرقية للدولة ، لذا قام السلطان سليمان في هذه الأثناء بحملتين على ايران . لقد كانت سياسة

الدولة الصفوية سياسة عدوانية ترغم السلطان على التوجه دائما للجبهة الشرقية في خضم صراعاته الأوروبية ، إذ من الواضح أن التحالف الصفوى – الإسبانى قد أثمر نجاحات على هذا الصعيد ، لقد كان الضغط من الناحية الشرقية يدفع السلطان دائماً للموازنة بين الجبهتين ، ويعطى الفرصة لشارلكان أن يستجمع قواه من جديد .

اندلعت الحرب بين الطرفين على الجبهة الأوروبية مرة أخرى ، حيث حاول فرديناند ضم ترانسلفانيا التابعة للدولة العثمانية عام ١٥٥١م ، وكان السلطان في ذلك الوقت على الجبهة الإيرانية ، لكن الجيش العثمانى في الروملى اجتاز الدانوب واستطاع احتلال المواقع التى استولى عليه الألمان في ترانسلفانيا بعد هزيمة الجيش الألمانى وتشتيته ، هكذا كان على العثمانيين إنشاء ولاية جديدة في جنوب ترانسلفانيا لحمايتها من أطماع هابسبورج ، وعلى ذلك أصبح جنوب ترانسلفانيا عام ١٥٥٢م ولاية (تيمشوار)[٣٨] التابعة للحكم العثمانى المباشر .

هكذا توالت الهزائم على شارلكان ، سواء في أوروبا ، أو في البحر المتوسط ، خاصة هزيمته المنكرة التى تلقاها على يد رؤساء البحر في الجزائر ، فضلاً عن هزيمته في حربه الدينية على مارتن لوثر وأتباعه[٣٩] ، أدت كل هذه الهزائم المتوالية إلي اعتزاله الحكم عام ١٥٥٦م ، ومن ثم قام بتقسيم مملكته بين أخيه فرديناند ، الذي حاز على ملك أوروبا الوسطى (ألمانيا والنمسا وما حولهما) ، وابنه فيليب الثانى Felipe II(١٥٥٦ – ١٥٩٨م) ، الذي حاز على ملك إسبانيا ومستعمراتها فيما وراء البحار .

هدأت الجبهة الأوروبية كثيرا بعد تقاعد شارلكان ، وكانت آخر حملات السلطان سليمان على الإطلاق ، حملته الأوروبية التى قام بها عام

١٥٦٦م ، ورغم شيخوخته وتجاوزه السبعين من العمر ، أصر كعادته أن يكون على رأس الحملة المتوجهة الي فتح بعض القلاع الألمانية غربـي بودابست ، حيث مات وسط جنوده المحاصرين لإحدى القلاع عام ١٥٦٦م بعد أن قضى عمره كله ، ومدة حكمه البالغة ستة وأربعون عاما في الجهاد والفتح والغزو ، متنقلا بين معركة ومعركة ، ومن جبهة إلـي جبهة ، فأصبح بحق وعن جدارة (سلطان العالم) .

الفتوحات العثمانية في شمال افريقيا :

لقد تحولت الجزائر إلي أولى نقاط الإرتكاز للدولة العثمانية على سواحل شمال إفريقيا عام ١٥١٩م ، وكان لخير الدين برباروسا فضلاً كبيراً في تحول القوة العثمانية من دولة ذات نفوذ شرقي في البحر المتوسط ، إلـي دولة تقع على ثلاثة أرباع محيط البحر المتوسط ، فضلاً عن تحويلها إلي دولة بحرية عظمى ، قادرة على مواجهة القوى البحرية العظمى مجتمعة. تحولت الجزائر على يد خير الدين إلي نقطة انطلاق كبرى في سبيل تحرير شمال افريقيا بأكمله من المستعمر الاسبانى، ومطاردة القوى الصليبية في البحر المتوسط ، هكذا أصبح باربـاروسا العدو الأول للقوى المسيحية في البحر. و كان يعمل مع خير الدين الكثير من البحارة المجاهدين الذين أصبحوا يماثلونه في المهارة والخبرة ، فأصبحوا روساء للأساطيل العثمانية التى تجوب البحار من المحيط الأطلنطى وحتى المحيط الهندى ، وعليه أصبحت البحرية العثمانية في عهدهم هى المسيطرة .

ولم يمل رؤساء البحر مراراً وتكراراً من محاولات إعادة الحكم الاسلامي إلي الأندلس ، وقاموا بالدور الأكبر في نقل المهاجرين المسلمين الفارين من القمع الإسبانى خلال القرن السادس عشر بأكمله ، حتى تم جلاؤهم النهائي في بدايات القرن السابع عشر ، وكان لهؤلاء الأندلسيين فضل

كبير في إنعاش الحياة الإجتماعية والثقافية والعلمية في الشمال الافريقي ، نظراً لارتباطهم الوثيق بالإزدهار الذي شهدته الأندلس في العصور الوسطى ، بل كان لهم فضل كبير في تطوير وتحديث الأسطول العثمانى وخططه ومناوراته ، نظراً لدورهم العظيم في البحرية الاسلامية في الأندلس قبل سقوط دولتهم ، فقاموا بمعاونة المجاهدين في حروبهم الواسعة ضد القوى الصليبية في البحر المتوسط وضرب المصالح الاسبانية، فكانت بذلك الجبهة العثمانية في شمال إفريقيا جبهة ذات استقلالية وذات طابع خاص، جعلت سلاطين الدولة العثمانية يعتمدون عليها اعتماداً وثيقاً في مواجهة الحرب الصليبية القائمة في المتوسط ، هذا فضلاً عن قيادة الاسطول العثمانى .

لم ينتظر خير الدين مساعدات الدولة العثمانية بعد تحول الجزائر إلي إيالة عثمانية عام ١٥١٩م ، بل بدأ بالعمل فوراً على استكمال تنظيم البلاد ، فقام ببناء ثكنات للجيش ، وبدأ بتنظيمه تنظيماً عسكرياً صارماً ، وقام بتسليح الجيش بأسلحة متطورة، في نفس الوقت الذي عمل فيه على استكمال بناء الأسطول والقوة البحرية ، التى سيسند إليها محاربة القوى الصليبية.[٤٠]

كان التحاق الجزائر بالدولة العثمانية سبباً قوياً في توحيد القوى السياسية القديمة في الشمال الافريقي ، بنو زيان في تلمسان ، وبنو حفص في تونس ، وبنو وطاس (البقية الباقية من بنى مرين) بالمغرب الأقصى ، لمحاولة القضاء على القوى الجهادية بقيادة خير الدين ، ومحاولة قطع صلة الدولة العثمانية بالشمال الافريقي ، خشية الإضرار بمصالحهم ونفوذهم ، لذلك سعوا لإيقاظ الفتن والثورات ضد خير الدين مستعينين في ذلك بالأسبان والقوى الصليبية .

لقد اتسم الوضع المواكب لظهور العثمانيين في غرب المتوسط في بداية القرن السادس عشر بفشل بنو عبد الواد (بنو زيان) محاولتهم خلق دولة تشمل جميع أطراف الجزائر ، وتضاءل أهمية الحكام في ظل مسعى كل من تونس والمغرب إلي اقتطاع أجزاء من المغرب الأوسط ، إلي جانب استمرار التهديد البرتغالي الإسباني من الغرب والشرق ، وأصبح التهديد يطال العالم الاسلامي كله ، وهذا ما يفسر تدخل العثمانيين بقوة خاصة غرب المتوسط .[٤١]

لقد كان خير الدين محقاً في تخوفه من الأسرات الحاكمة في شمال افريقيا، وخاصة بنو زيان ، الذين كانوا يخططون بالفعل للهجوم على الجزائر عقب استشهاد عروج والحاق الجزائر بالدولة العثمانية . لقد اتفق بالفعل والي وهران الاسبانى وحاكم تلمسان على ضرورة إخراج الأترك العثمانيون من الجزائر ، لذلك تم عرض الأخطار الناجمة عن بقاء العثمانيين على شارلكان ، الذي كان لديه النية المسبقة لشن حرب على العثمانيين وإرغامهم على الخروج النهائي من شمال افريقيا ، هكذا كلف شارلكان نائبه في صقلية بالتوجه على رأس حملة لاحتلال الجزائر والقضاء على العثمانيين والمجاهدين .

وفعلا اتجهت هذه الحملة عام ١٥١٩م أولاً إلي وهران ، ثم بعد اتحادها مع قوات تلمسان توجهت للجزائر . بدأت القوات الاسبانية بالهجوم ، وخلال يومين من بدء المعركة ظهر الإعياء على القوات الاسبانية ، واستغل الريس خير الدين هذا الإنهاك وقام بتكليف فرقة من خمسمائة شخص ، لتقوم بحرق أقوات الأسبان ومهاجمتهم على الساحل ، مما خدع القوات الإسبانية وجعلهم يقومون بترك مواقعهم الدفاعية والهجوم على قوات خير الدين ، فاستغل الأتراك فرصة انسحابهم وانقضوا عليهم بكل قوتهم ، فاندفع الأسبان يتسابقون إلي البحر تاركين سلاحهم ، فمات الكثير

منهم ومن تمكن من النجاة لم يتمكن من ركوب السفن ، نتيجة للعاصـــفة البحرية التي هبت آنذاك ، فمات من الاسبان أكثر من ثمانية آلاف مقاتل. ومنذ ذلك النصر المظفر على الأسبان فاقت شهرة الريس خيـــر الـــدين شهرة ونفوذ أخيه الريس عروج .(٤٢)

ولم تكن هذه الحملة آخر الحملات الاسبانية ، فقد تبعتها حملات أخـــرى في وقت قصير كان غرضها إنهاء السيطرة العثمانية التي بدأت تتوســـع شرقا وغربا . ففي عام ١٥٢٠م أرسل خير الدين قوة إلي تنس لاحتلالها، فطلب قائد تنس النجدة من اسبانيا التي أرســـلت خمـــس عشـــرة ســـفينة لمساعدته ، ولكن الريس خير الدين قاد بنفسه قوة بحرية وتوجه مباشـــرة إلي تنس ، واحتل قلعتها وأسر خمس سفن وعاد إلي الجزائـــر . وبينمـــا كانت سفن خير الدين راسية في ميناء الجزائر ، علم خير الدين بوصول الأسطول الإسباني المؤلف من ١١٠ قطعة بحرية(٤٣) ، وعلى الفور خرج خير الدين بسفنه من الميناء قبل وصل الأسطول المعادى ، وشن هجوما بحريا معاكسا على الأسطول ، وكان هجوما مفاجئا من الخلف ممـــا أدى الي اضطراب الأسطول الإسباني الذي بـــدأ يتخـــبط بعضـــه بـــبعض ، وأسفرت المعركة عن هزيمة الأسطول الاسباني هزيمة شديدة ، وتحطـــم الكثير من سفنه ، إلي جانب أســـر المئـــات مـــن البحـــارة والقباطنـــة الأسبان.(٤٤)

وقد عمل خير الدين منذ ذلك الوقت على محاولة القضاء علـــى الفـــتن ومشاكل التمرد الداخلى ، التى أثارها بعض الحكام المحليين بالتعاون مع الاسبان ، فاستطاع أن يعيد لسلطته مدن هامة كانت قد خرجت عن سلطته أثناء فترات التمرد (١٥٢١ - ١٥٢٦م) ، أهمها تنس وشرشال ، وهكذا استطاع منذ عام ١٥٢٨م ، أن يفرض سيطرته الكاملة على الساحل الممتد من جيجل حتى وهران الواقعة تحت الحكم الاسبانى .(٤٥)

بعد استتباب الأمر لخير الدين ، وجد أنه من المستحيل ترك الأسبان في حصن البنيون ، الواقع على جزيرة مواجهة لمدينة الجزائر ، والذي لم يستطع أخوه عروج من قبل إخراجهم منه ، فقرر خير الدين ضرب الحصن بشدة وإخلائه تماما من الحامية الاسبانية لتعزيز سلطانه من جهة، ولضمان الأمن والسلامة لميناء الجزائر من جهة أخرى ، فأرسل الريس خير الدين عام ١٥٢٩م خطاباً إلي قائد الحصن بضرورة تسليم الحصن ومغادرته مع جنوده فوراً ، لكن بعد رفض قائد الحصن Martin de verge ، نصب خير الدين بطاريتي مدفعية مقابل القلعة وباشر قصفها مدة عشرين يوماً حتى أحدث خرقاً في سورها ، واشتد القتال بين الفريقين حتى انتصر خير الدين ، ووقعت الحامية المكونة من سبعمائة جندي في الأسر ، لقد بدأت بالفعل المدفعية العثمانية تترك صداها على المنازعات السياسية القائمة في شمال إفريقيا .

ولقد أقام خير الدين حاجزاً للأمواج ، يصل أطلال الحصن والجزيرة بالساحل ، ويستخدم من ناحيته الداخلية كرصيف للسفن ، وبذلك أوجد ميناءً حصيناً وآمنا ترفأ إليه السفن . وإذا كانت سنة ١٥١٩م تعد بداية وصول النفوذ العثماني رسمياً إلي شمال إفريقيا ، فإن استيلاء خير الدين على البنيون سنة ١٥٢٩م ، يعد بداية تأسيس ما عرف باسم نيابة الجزائر، فمنذ ذلك التاريخ تحول ميناء الجزائر إلي عاصمة كبرى للمغرب الأوسط ، بل ولكل شمال إفريقيا العثمانية بنياباتها الثلاث فيما بعد ، وبدأ استخدام مصطلح الجزائر للدلالة على إقليم المغرب الأوسط ، ولكن ظلت وهران قاعدة إسبانية تهدد الجزائر حتى نهاية القرن الثامن عشر عام ١٧٩٢م.(٤٦)

الفتح العثمانى الأول لتونس :

بعد توحيد خير الدين للجبهة الداخلية في الجزائر ، رأى أنه من الواجب عليه في ذلك الوقت إنهاء حكم الدولة الحفصية الضعيفة التي توشك على الإنهيار ، فقد كانت أعين شارلكان تتجه إليها مما يمثل أشد الخطر على النفوذ العثماني في شمال افريقيا .

كان أبو عبد الله محمد الخامس(الحفصى) قد تقبل المجاهدين البحريين ومنحهم مكاناً في حلق الوادي ، وأجرى اتفاقاً معهم ليظفر بنصيب من الغنائم الوافرة ، التي يتحصلون عليها عن طريق الجهاد ، وقد استمر في حكم تونس إلي أن توفى عام ١٥٢٦م ، فخلفه ابنه أبو عبد الله الحسن ، والذي اشتهر باسم (مولاي الحسن) ، وقد عرف بسفاهته وكثرة سفكه للدماء وإهماله لأحوال البلاد ، لذلك ضجر السكان من كثرة مظالمه ، وكان يتوجب على خير الدين استغلال تلك الفرصة المواتية ، ليعمل على مد سلطان الدولة العثمانية إلي تونس .

وفي تلك الأثناء استدعى السلطان سليمان خير الدين الي استانبول عام ١٥٣٣م، ليعهد إليه بقيادة الأسطول العثماني والإشراف على تنظيمه وتطويره ، فبعد أن تولي أندريا دوريا قيادة الاساطيل الإسبانية ، علم سليمان أن خير الدين أكفأ من يتصدى له، فمن له أن يتصدى لهذا القبطان الماهر غير خير الدين بربا روسا .

منذ يوم دخول خير الدين استانبول عام ١٥٣٤م وتوليته قيادة الاسطول العثماني ، دخلت البحرية العثمانية عهدا جديداً من التنظيم والقوة ، فقد بدأ خير الدين بصناعة السفن بناءً على رغبته الخاصة ، فكانت تصنع خفيفة الوزن حتى تكون سهلة الحركة أثناء المناورة ، وذلك ما تميزت به كل معاركه البحرية ، فمهما كان تعداد أسطول الخصم كانت سرعة الإلتفاف حول الأساطيل المعادية ثم ضربها بالمدافع عامل حسم في معارك خير

الدين البحرية ، وقسم سفن الأسطول بمهارة إلي وحدات تبعاً لحجمها وعدد المجدفين فيها وقوة مدافعها ، ولقد أشرف خير الدين بعد احتلال منصبه مباشرة على صناعة أكثر من ستمائة سفينة حربية من نوع (قادرغة)[٤٧] ، فغدا بذلك الحارس الأمامى للدولة العثمانية في البحر المتوسط .

كان أول أمر يتلقاه خير الدين من السلطان سليمان هو فتح تونس ، لقد كانت هناك الكثير من العوامل أملت على السلطان سليمان القانوني الإهتمام بمد النفوذ العثماني إلي تونس ، ومن أهم تلك العوامل الموقع الجغرافي في منتصف الساحل الإفريقي وتوسطها بين الجزائر وطرابلس، وقربها من ايطاليا التي كانت أحد جناحي الامبراطورية الرومانية المقدسة (وكان جناحها الآخر اسبانيا) ، هذا إلي جانب مجاورتها لجزيرة مالطة ، مقر فرسان القديس يوحنا الحلفاء الطبيعيين للإمبراطور شارل الخامس وأشد الطوائف المسيحية عداءً للإسلام ، ثم الإمكانات الهائلة التي تتيحها موانئ تونس في التحكم في المواصلات البحرية بين حوضى البحر المتوسط. هكذا تضافرت عدة عوامل على إضفاء أهمية عسكرية على تونس في هذا الصراع الحربي بين السلطان سليمان وبين الإمبراطور شارل الخامس.[٤٨]

وهكذا غادر خير الدين استانبول على رأس قواته ، التي تتكون من ثمانين سفينة وثمانية آلاف جندي عام ١٥٣٤م ، في نفس الوقت الذي كان السلطان سليمان يعبر فيه الأناضول متجهاً لغزو إيران . وقبل أن يتوجه خير الدين بأسطوله لفتح تونس توجه إلي السواحل الأوروبية فهاجمها ونهبها ، وقصد بذلك نشر الرعب في نفوس الأوروبيين تمهيداً للإستيلاء على تونس ، وحتى يجبر الحكومات الأوروبية على توزيع قواتها على السواحل للتصدي له .

وبعد ذلك توجه خير الدين على رأس قواته إلي تونس فاستولى عليها عام ١٥٣٤م ، وأعلن تبعيتها للدولة العثمانية ، وأنهى الحكم الحفصي بهـا ، كما سقطت في يده المدن الساحلية ، وتوغلت قواته جنوبا فـي الـداخل وأعلنت القبائل ولاءها للدولة العثمانية ، ولكن السلطان الحفصي مـولاي الحسن قد تمكن من الهرب ، وألقي القبض على أنصاره الـذين رغبـوا بالمقاومة ، وتوجه مولاي الحسن بعد ذلك إلي الأسبان طالباً عونهم.(٤٩)

تذكر المصادر محاولات قام بها شارلكان لاستمالة خير الدين ، إلا أنهـا باءت بالفشل، فحاول عزل الجزائر عن استانبول عاصمة الدولـة عـن طريق احتلال تونس(٥٠) ، هذا بالاضافة إلي الخطر الذي تشكله تـونس لمواجهتها ايطاليا مباشرة ، فكان الإمبراطور شارلكان يدرك جيدا معنـى امتداد الحكم العثماني إلي هذا الاقليم الهام ، الذي يشرف بشـكل مباشـر على المواصلات بين حوضي البحر المتوسط ، فضلاً عن قربه الشـديد من أقاليم الدولة الرومانية من الناحية الشرقية ، هذا بالطبع غيـر تهديـد النفوذ الاسباني في قواعده الباقية فـي الشـمال الافريقـي ، وتشـجيعاً للمورسكيين على مواصلة الهجرة والإستقرار بتونس إلي جانب الجزائر والمغرب . وكانت كل هذه العوامل كفيلة بتوجيه جهوده إلـي تـونس ، وإرسال حملة قوية لطرد العثمانيين وإعادة الحكم الحفصي الموالي له .

تحركت الحملة من برشلونة عام ١٥٣٥م . وبالرغم من ضخامة حملـة شارلكان ، فقد قرر خير الدين التصدي لها بكل قوته ، لكـن مـع شـدة القصف المستمر والمركز من قبل الأسبان ، لم تتمكن قوات الريس خير الدين من استخدام المدافع فاضطروا للانسحاب ، ودخلت القوات الإسبانية تونس وعلى رأسها الامبراطور شارلكان ، حيث تقدم إليه سلطان تـونس مولاي الحسن مع عدد كبير من أنصاره منحنيا أمام قدميه ، معلنا فروض الطاعة والولاء ، فقبله الإمبراطور وأحسن اليه.(٥١)

وهكذا تمكن شارلكان من الإستيلاء على تونس ، بسبب التفوق العـددي والخيانة العربية ، التي حمل لواءها مولاي الحسن الحفصي وأتباعـه ، وأقامت على أثر ذلك البابوية في روما احتفالات كبرى لوقوع تونس في يد العاهل المسيحي ، وقد وافق مولاي الحسن على أن يحكم تونس باسم شارلكان وتحت حمايته ، كما تنازل عن ميناء حلق الوادي[٥٢] وغيره من المدن الهامة ، هذا بعد أن قامت القوات الإسبانية خلال يـومين بسـلب ونهب المدينة وقتل أكثر من ثلاثين ألف مسلم ، وأسر أكثر مـن عشـرة آلاف ، الي جانب هدم المساجد والمدارس وإحراق الكتب والمخطوطات النادرة ، وأصبحت شوارع المدينة وأزقتها مليئة بـالقتلى مـن الشـيوخ والأطفال والنساء ، فغدت المدينة خالية من الأهالي.[٥٣]

معركة الجزائر الكبرى ١٥٤١:

وجد الإمبراطور شارل الخامس أن انتزاعه لتونس من يد العثمانيين لـم يؤد إلي نتيجة جذرية ، بل ازداد الأمر سوءً بازدياد الغارات التي يقـوم بها المجاهدون على السواحل الاوروبية ، فوجد أنه من الضروري التوجه إلي عمل عسكري حاسم ، من شأنه انتزاع شأفة العثمانيين من الشـمال الافريقي نهائياً ، وأن هذا العمل العسكري لابد أن يكون فـي الجزائـر ، مركز الغارات البحرية ومأوى الهاربين من الأندلس ، وقاعدة السـلطان سليمان القوية والحصينة تجاه السواحل الإسبانية ، خصوصاً بعد الأنبـاء الحزينة التي وصلته من أوروبا اثر نجاح جيوش السلطان سـليمان فـي الإستيلاء على مدينة بودا في المجر.

أصر شارل الخامس على التوجه بأكبر اسطول قام بالإشراف عليه بنفسه، ويبدو أنه من أكبر التجمعات البحرية المقاتلة التي ظهـرت فـي القـرن السادس عشر ، حيث كان البحارة والجيش خليطا من مختلـف أصـقاع الإمبراطورية الإسبانية ، وكان هدف الحملة هو الإستيلاء على الجزائر ،

واجتثاث العثمانيين من البحر المتوسط ، فقد كان الإسبان يعتقدون أنه لولا بروز العثمانيين بالمغرب ، لأمكنهم إنشاء مملكة مسيحية على السواحل المغربية .(٥٤)

وفي صيف ١٥٤١م قام شارلكان بتجهيز جيشه وأسطوله وأمر بالتوجه إلي الجزائر، فبلغها في نفس العام ، وقد شارك في هذه الحملة نبلاء اسبانيا وايطاليا والمانيا كجنود متطوعين إلي جانب فرسان مالطة أو (القديس يوحنا) ، وكان الأسطول يتكون من خمسمائة وست عشرة سفينة من السفن الحربية وناقلات الجند ، وعهد بقيادة هذا الأسطول الي عدد من كبار القادة البحريين كان من بينهم أندريا دوريا ، وقد تمكنت تلك الحملة من النزول بسهولة إلي البر في جهة مجاورة لميناء الجزائر، في اليوم الثالث والعشرين من أكتوبر عام ١٥٤١م .(٥٥)

وما إن تمت عمليات الإنزال بسلام حتى اكفهر الجو ، وهطلت الأمطار بغزارة ، وهبت ريح عاصف استمرت عدة أيام ، اقتلعت فيها خيام جنود الحملة وارتطمت سفنهم بعضها بعض ، وأصبح الأسطول الإسباني مهدداً بالغرق ، ولقد بدأ في الإنسحاب هو والجيش المتمركز على الساحل ، وانتهز حسن باشا بن خير الدين هذه الفرصة ، وانقض بهجوم مفاجئ وأعمل السيف فيهم قتلاً وفتكاً ، وانهزم الاسبان وبدأت القوات البرية والبحرية في الإنسحاب ، وانتهز الأهالي هذه الفرصة وانقضوا عليهم من كل حدب وصوب ، فأخذوا غنائم لا تحصى بالإضافة إلي الأسرى . هكذا مني الأسبان بهزيمة مروعة حتى أن الامبراطور شارلكان شوهد لأول مرة وهو يبكي ، بل انه قد انتزع تاجه من على رأسه وألقاه في البحر .(٥٦)

كان من أهم العوامل التي ساعدت على الحـــاق الهزيمـــة بـــالإمبراطور وحملته القوية ، هو التفاف الجزائريون حول حسن باشا ، الذي دافع عن الجزائر في وقت غياب خير الدين ، وأهم من ذلك النجـــدات العســـكرية التي بعث بها السلطان سليمان إلي حسن باشا ، والتي نظر إليهـــا أهـــل الجزائر ومسلمو إسبانيا على السواء باعتبارها تعزيزا لشوكة المسلمين ، وكانت هذه الهزيمة هي أكبر هزيمة منى بها الإمبراطور شارلكان فـــي حياته ، وقد شبه أهل الجزائر هذه الهزيمة بهزيمة أصحاب الفيل ، التـــي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، فقالوا في رسالة أرسلوها إلي الســـلطان سليمان ، إن الله سبحانه وتعالى عاقب شارل الخامس وجنـــوده (بعقـــاب أصحاب الفيل ، وجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم ريحاً عاصـــفاً وموجاً قاصفاً ، فجعلهم بسواحل البحر ما بين أسير وقتيل ، ولا نجا منهم من الغرق إلا قليل).[٥٧]

وبذلك استطاع العثمانيون دحر الجيش الصليبي ، والإنتقام مما فعلوه في تونس من سلب ونهب وتقتيل ، وأصيبت أوروبا والعالم المسيحي بخيبـــة أمل نتيجة لدمار الجيش والأسطول الإسباني ، وتكونت لديهم قناعة بـــأن الجزائر مدينة لا تقهر ، كما أن معنويات المسلمين ارتفعت بشكل كبيـــر ، إلي جانب الغنائم العظيمة التي حصلوا عليها . وقد هزت هـــذه الهزيمـــة مركز الاسبان في وهران مما دعا حاكمها لأن يسارع طالباً نجدات عاجلة من إسبانيا ، لكن اسبانيا وحروبها في القارة الأوروبية لم تمكنها من نجدة قواتها ، مما مكن العثمانيون من تشديد الحصار على وهران وغيرها من مراكزالاسبان في شمال إفريقيا.[٥٨]

كف الاسبان عن مهاجمة الجزائر منذ هزيمتهم عام ١٥٤١م ، لكنهم نقلوا الصراع بينهم وبين القوى الاسلامية العثمانية إلي تونس ، فقد اســـتطاع أندريا دوريا الإستيلاء على عدة مدن في إقليم تونس ، مثـــل صـــفاقص

وسوسة ومناستير ، مما أثار سخط السكان على بني حفص لتخاذلهم أمام القوى الصليبية . وفي هذه الأثناء ظهر قائد بحري عثماني هو دارغوث باشا[٥٩] ليملأ الفراغ السياسي والحربي في تونس ، على نحو ما فعل الأخوان عروج وخير الدين ، واستطاع دارغوث أن يتخذ من طرابلس التي أصبحت نيابة عثمانية ، قاعدة عسكرية من قواعد الجهاد الديني البحري في شمال افريقيا . وقبل أن نتحدث عن إتمام فتح العثمانيين لتونس وما صاحبه من حوادث وصراعات ، لابد لنا أولاً أن نتطرق إلي فتح طرابلس الغرب وإخضاعها للنفوذ العثماني .

فتح طرابلس الغرب :

لم تكن طرابلس الغرب مطمعا للقوى الصليبية في العصور الحديثة فحسب ، إنما كانت كذلك منذ العصور الوسطى ، حيث استولى عليها النورمان سنة ٥٤٣/١١٤٨م ، وبقى الوجود الورماني ماثلا فيها حتى قام عبد المؤمن بن على خليفة الموحدين بطردهم من آخر معاقلهم بالشمال الافريقي عام ٥٥٥/١١٦٠م .[٦٠]

وحينما دب الوهن في جسم الدولة الموحدية منذ القرن الثالث عشر ، عادت القوى الصليبية لممارسة نشاطها ، فتارة توجه إليها الحملات الصليبية ، وتارة أخرى يهاجمها القراصنة ، وتحاك المؤامرات ضدها تارة ثالثة . ولعل في ذكر حملة الجنويين على طرابلس عام ٧٥٥/١٣٥٤م ما يدل على ذلك ، وازدادت ضراوة الهجوم الصليبي عليها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، حينما حمل النصارى الاسبان لواء الحركة الصليبية ، وبدأوا يضربون سواحل المغرب الشمالية من برقة إلي طنجة [٦١] ، فقد كانت طرابلس الغرب إحدى موانئ إفريقيا الهامة ، وكان يصدر منها جزء لا يستهان به من منتجات قلب القارة الإفريقية.[٦٢]

أما في مطلع القرن السادس عشر، فقد كانت طرابلس منطقة استراتيجية خطيرة بالنسبة لحركة التجارة مع داخل افريقيا ، وهي المأوى الوحيد والمفضل للقوافل الصحراوية ، الوافدة من السودان والمحملة بالتوابل والذهب وتجارة العبيد ، كما أن طرابلس الغرب تعد – على صعيد المواجهة البحرية – خطاً ساحلياً ذا أهمية قصوى لتأمين حرية التجارة والنقل في عرض البحر المتوسط ، كما أن واجهتها القريبة من مالطة وايطاليا وحتى الجزر الشرقية ، قد أعطى لهذا الإشراف العسكري حيوية كبيرة.(٦٣)

بينما شهدت طرابلس منذ مستهل القرن السادس عشر أحوالاً سياسية مضطربة ، فهي تارة تتبع السلطة المركزية للسلطان الحفصي في تونس، وتارة أخرى منفصلة عنه، لذلك طمع بها الاسبان لأهميتها الاستراتيجية ، فعملوا على احتلالها عام ١٥٠٩م ، حيث اكتسحت المدينة من قبلهم بعد حرب عنيفة قتل فيها معظم أهلها ، والحقت ادارتها بصقلية التي كانت حينذاك تابعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة . وفي عام ١٥٣٠م تركها الإسبان لفرسان مالطة ، الذين استطاعوا بالإستناد إلي جزيرة مالطة وطرابلس إلحاق أشد الضرر بالمسلمين ومراكبهم ومواصلاتهم. (٦٤)

لقد شكلت طرابلس مع مالطة ركيزة كبيرة لحركة القرصنة البحرية المسيحية ضد المسلمين ، هكذا أدركت الدولة العثمانية خطورة ذلك الوضع ، وحول هذا الأمر اهتمام قادة الدولة ، من قلب أوروبا إلي تقوية اسطولهم البحري وتعزيز نشاط البحارة العثمانيين ، وهذا ما تفسره الرؤية العثمانية الجديدة في فتح تونس على يد خير الدين سنة ١٥٣٤م ، ثم فيما بعد تعزيز نشاط دارغوث رايس واحكام وجود مراد أغا بتاجوراء التي لا تبعد كثيرا عن مدينة طرابلس.(٦٥)

يقترن ذكر طرابلس الغرب باسم كبير من أسماء البحرية العثمانيـــة ، ألا وهو دارغوث باشا ، وفي الواقع ان الريس دارغوث قد فكر في تأســيس إمارة بحرية تكون قاعدة له ، مثل امارة آل بربا روسا في الجزائر . بحث دارغوث عن مكان مناسب في افريقيا الشمالية غير الجزائر ، فوجـد أن البلدان الساحلية الواقعة شرقي تونس مناسبة جـداً وهـي ليسـت بيـد النصارى ، كما أنها لا تقع تحـت حكـم أمـراء تـونس، وفـي سـنة ١٥٣٢/٩٣٩م حضر الريس دارغوث أمام المهدية ، وهي واحـدة مـن أقوى القلاع التونسية ، وكان سـكانها يبغضـون حكـامهم المحتمـين بالنصارى ، لذا فإنه احتل المدينة والقلعة دون مقاومة(٦٦)، وقام بتشـكيل إمارة بالسواحل التونسية ، وثبت قواعد نشاطه البحري من عام ١٥٣٢م الي ١٥٤٩م .

ومنذ استيلاء الريس دارغوث على المهدية ذات الموقع الحصين ، بدأ في الإستيلاء على مدن السواحل التونسية المدينة بعد الأخرى ، هذا فضـلاً عن محاولاته لعرقلة المرور الأوروبي ، وضـرب المـوانئ الإسـبانية والإيطالية ، وقد استند في ذلك الي نوع من السفن السـريعة الحركـة ، بالإضافة إلي خبرة طويلة بالبحر وبالسواحل الأوروبية. هذا مـا جعـل شارل الخامس يعده أكثر خطورة من خير الدين بربا روسا ، وهو الموقف الذي جعل شارل الخامس يعمل على استرجاع المهدية من دارغوث.(٦٧)

بعد نجاح شارلكان في استرداد تونس من يد خير الدين عـام ١٥٣٤م ، كان على مولاي الحسن الحفصي- الذي حكم تونس نيابة عن الاسـبان- تسليم بونة والمهدية الي شارل الخامس ، عملا بمنطوق المعاهـدة التـي تمت بينهما ، وبما أن المهدية كانت في حوزة دارغوث ، فـإن مـولاي الحسن لم يستطيع الوفاء بوعده ، لذلك عمل شارل الخامس على استعادة المهدية من يد دارغوث . وقد قام بالفعل أندريا دوريا بحملة ساهم فيهـا

فرسان مالطة ، واستطاعت هذه الحملة احتلال سوسة ثم المانستير، ثــم الإستيلاء على المهدية . إن سقوط المهديــة واســتفحال تقــدم الإســبان بالأراضي التونسية وضرب شوكة العثمانيين بالإيالات المغربية قــد زاد من اهتمام العثمانيين بهذه المنطقة ، ودفع السلطان سليمان إلي رد فعــل سريع في توجيه الأسطول العثماني لاسترجاع المهديــة ، ووضــع حــد لفرسان القديس يوحنا بطرابلس الغرب .(٦٨)

عاد الريس دارغوث إلي المياه العثمانية بعد أن فقد المهدية عام ١٥٥٠م ، وعند عودته تلاقى مع الاسطول العثماني ، الذي كان تحت قيادة ســنان باشا ، وتبادل الأسطولان التحية بإطلاق المدافع من سفن الطرفين . ولما شاهد سنان باشا ما عليه مراكب الريس دارغوث من تنظيم وسرعة فــي إطلاق المدافع ، فكر في ربط دارغوث بخدمة الدولة العثمانية والاستفادة من قوته ، فرغبه في الذهاب إلي استانبول وخدمــة الســلطان ، فقبــل دارغوث وتوجه إلي استانبول مباشرة.(٦٩)

قابل دارغوث السلطان سليمان القانوني ، وأحاط المســئولين العثمــانيين علماً بطبيعة السياسة الإسبانية ، وأنه يخشــى خطــرهم القريــب علــى طرابلس الغرب ، فضلاً عن سلامة تنقل الاسطول العثمــاني فــي هــذه المنطقة ، وعلى ضوء هذه التقارير تقــررت الحملــة العثمانيــة علــى طرابلس، وتقرر الإستفادة من خبرة الريس دارغوث بتلك السواحل .

كان الأسطول العثماني المتجه إلي طرابلس مكــون مــن ١٢٠ ســفينة شراعية عثمانية اسندت قيادتها لسنان باشا القائد العام للأسطول العثماني، وكان يسانده في ذلك الريس دارغوث بسفنه الخاصة ، التي بلغت حســب المصادر خمسين سفينة ، كذلك صالح باي حاكم رودس . وبدأت المعركة بين الجيش العثماني والحامية المالطية في طرابلس عام ١٥٥١م ، حيــث

كانت الحامية معزولة تماما عن الإستنجاد الخارجي ، مما جعلها بعد مدة تطالب بالإستسلام ، فسمح لها بالخروج الي مالطة وصقلية .(٧٠)

هكذا وقعت طرابلس الغرب في يد العثمانيين ، والتي أدت الي تصاعد الصراع الإسلامي المسيحي في البحر المتوسط عامة ، وفي الشمال الافريقي خاصة .

ولقد استفاد العثمانيون كثيرا من وقوع طرابلس في أيديهم ، فقد تحولت تجارة إفريقيا – التي تركزت في تاجوراء – إليها ، حيث ازدادت حركة التبادل التجاري المتمثلة في التوابل والعبيد والذهب بين طرابلس وداخل افريقيا . كما أن سقوط طرابلس في يد العثمانيين قد نبه أوروبا المسيحية إلي الخطر الكبير الذي تمثله هذه القوة الصاعدة التي تسعى إلي مزيد من الإنتصارات العثمانية على الساحل الإفريقي ، والذي من شأنه تهديد الدول الأوروبية ، فضلاً عن تهديد آخر المعاقل الاسبانية في حلق الوادي ووهران . وقد عهد سنان باشا بإدارة طرابلس إلي مراد أغا حاكم تاجوراء ، لكن لن تظهر طرابلس الغرب ولن تلعب دورها السياسي والعسكري إلا في عهد إدارة الريس دارغوث ، الذي تولى إمارة طرابلس عام ١٥٥٨م بفرمان سلطاني .

بعد تولي دارغوث باشا إمارة طرابلس ، بدأ في العمل على السيطرة التامة على الإمارة ، وإخضاعها بشكل كامل للإدارة العثمانية بواسطة عقد تحالفات محلية ، إلي جانب اهتمامه بمداخل البلاد وصحرائها ليس فقط بالسواحل ، كما ركز على تقوية التحصينات الدفاعية بالبلاد ، وجلب المزيد من الانكشارية لمضاعفة قوة الحامية. بإخضاع طرابلس الغرب بقيت تونس وخاصة الأجزاء الداخلية تقف حاجزاً في سبيل توحيد إمارات الشمال الافريقي ، وقد شغل وضع الوسط والجنوب التونسي دراغوث

باشا ، وأراد العمل لإخضاع المنطقة وضمها للنفوذ العثماني ، وهكذا بدأ التخطيط مع أمير الجزائر حسن باشا بن خير الدين لضرب قلعة حلق الوادي وتونس . ومن المعلوم أن منطقة القيروان كانت تخضع للشابيين والمهدية للأسبان ، وجربة للشيخ سليمان ، وقفصة لأتباع الشابية ، هكذا رأى دارغوث باشا أن الوقت مناسباً للقضاء على هذه التجزئة الإدارية وضرب النفوذ الإسباني بالبلاد .

بدأ دارغوث باشا فعلا تنفيذ مخططه بإخضاع تونس والقضاء على الزعامات المحلية ، فزحف على قفصة ودخلها عام ١٥٥٦م ، حيث استقبله الأهالي كمحرر لها ثم توجه إلي جربة فاستولى عليها وترك قيادة القلعة للقائد العثماني قلج على(٧١) وبجربة أقام دارغوث البرج الكبير للدفاع عن الجزيرة ، ثم انطلاقا من هذين الموقعين سهل على دارغوث دخول صفاقس .

أما عن القيروان ، فقد استطاع الشابيون اتخاذها قاعدة لدولتهم منذ عام ١٥٣٢م ، ثم ان مكانتها الدينية جعلتها محط الطرق الصوفية والدعوات الدينية الصوفية ، وهذا ما يفسر نجاح الشابيين نجاحاً مطلقاً وقدرتهم على مجابهة الحفصيين سنوات عديدة ، لذلك سعى دارغوث باشا لخلق حزام حول القيروان مداره المهدية ، التي جلاها الأسبان ، وسوسة وقفصة وصفاقص ، وفي النهاية استطاع دارغوث باشا تصفية الشابيين وإسقاط دولتهم في القيروان ، ودخل دارغوث القيروان عام ١٥٥٧م واستقبله أهلها بالترحاب ، واستطاع دارغوث بعد ذلك توطيد نشاطه في كامل الجنوب التونسي ، وتقوية الحزام البري حول طرابلس وعلى السواحل التونسية ، وجعل تحركه البحري في اتجاه السواحل الصقلية أكثر نجاحا .(٧٢)

سيطر العثمانيون سيطرة تامة على شرقي البحر المتوسط منذ مطلع النصف الثاني من القرن السادس عشر ، ثم انطلاقا من ظهور دارغوث باشا ، بدأوا في الظهور قرب السواحل المغربية ، حيث كانوا يقومون بزيارات دورية ، الغرض منها تدعيم نشاط المغاربة والرفع من معنوياتهم والدفاع عن سلامة الأراضي العثمانية ، فضلاً عن أن خلال عهد دارغوث استطاع العثمانيون ضرب المصالح التجارية الاسبانية بشكل أكبر، فضلا عن زيادة عدد الغارات على السواحل الأوروبية .

كل هذه العوامل حتمت على فيليب الثاني PhilipII (١٥٥٦ – ١٥٩٨م) ملك اسبانيا الجديد ، السعي إلي تصفية الخلافات السياسية مع أعداء اسبانيا التقليديين ، خاصة فرنسا ، وتكتيل جهودهم للوقوف بنجاح هذه المرة ضد خطر تزايد التأثير العثماني في المنطقة ، وضرب (القراصنة) وتقويض هياكلهم العسكرية والادارية .

وبالفعل سيمكن صلح (كاتوا– كامبرسيس) الذي عقد عام ١٥٥٩م من تحقيق هذه الأغراض ، فقد سوى الخلاف بين اسبانيا وفرنسا، وأعطى أوروبا أول فرصة للتخطيط لعمل جماعي منسق ، وقد تحالف إلي جانب اسبانيا وفرنسا ، البندقية والحكومات الإيطالية الجنوبية والبابا وفرسان مالطة ، للقيام بهجوم جماعي ضد من اعتبر الخطر الرئيسي على سلامة الإمبراطورية الإسبانية ، ألا وهو (الريس دارغوث).

هكذا عمل فيليب الثاني على التخطيط لحملة على طرابلس ، للتخلص من دارغوث باشا ولإضعاف النفوذ العثماني بقدر الإمكان ، وهكذا تهيأ الباب العالي لتلك الأحداث التي تجري غربي المتوسط ، خاصة بعد ما أحيط علماً بتفاصيل الحملة الاسبانية على طرابلس .

لقد كلف بيالي باشا قائد الأسطول العثماني بالتوجه نحو المياه الطرابلسية، إلي جانب إعطاء الأوامر لعدد من الحكام ، بالإلتحاق ببيالي وإنقاذ طرابلس ودارغوث باشا من تلك الحملة . أما عن الاسطول الإسباني فقد مر بمالطة لزيادة التجهيزات والتموينات، ثم اتجه الي طرابلس عام ١٥٦٠م ، لكنه لم يقم بأية نشاطات معادية نظراً لرداءة الطقس ، واضطر في النهاية إلي التحول إلي جربة فاستولى عليها بسهولة .

وفي هذه الأثناء وصل إلي علم قادة الحملة الأوروبية خبر وصول الأسطول العثماني، ويؤكد بعض المؤرخين أن الأسطول قطع المسافة من استانبول والسواحل الليبية خلال عشرين يوما ، وهذه المدة قصيرة جداً وغير مألوفة تماماً . وقد توجه بيالي باشا رأساً إلي جربة ، وكان يعزز قيادته خبرة قلج على باشا ، فضلا عن دارغوث ، وقد باغت الأسطول المسيحي في الجزيرة ودارت بعض المعارك الحربية ، التي أدت في النهاية إلي انتكاسة الأسطول الأوروبي ، الذي خسر الكثير من أفراده وقطعه البحرية ووقع الباقي في الأسر ، وقد شكلت رؤوس الضحايا (حوالي عشرين ألف قتيل) ما أطلق عليه تاريخيا (برج الرؤوس)[٧٣] ، [٧٤]

أدت خسارة الأساطيل الأوروبية أمام الاسطول العثماني في حملة جربة عام ١٥٦٠م إلي العديد من النتائج الهامة ، التي تمثلت في تأكيد ربط الولايات المغربية بالمركز القادر على مجابهة الأخطار الخارجية التي تمس أبعد الولايات الخاضعة له .

ولقد أدى انتصار جربة على انضواء جميع الأراضي الطرابلسية إلي جانب الجنوب والساحل التونسي تحت لواء دارغوث باشا ، وإلي ازدياد قوته البحرية هو ووالي الجزائر حسن باشا ، مما أدى الي السيطرة ليس

فقط على شرق وغرب البحر المتوسط بل وأيضا على مركزه ، هذا الي جانب تهديد آخر المعاقل الاسبانية في الشمال الافريقي والتي تمثلت في حلق الوادي في تونس ، ووهران في الجزائر . لقد كانت سنة ١٥٦٠م قمة التفوق للاسطول العثماني على صعيد السيطرة الميدانية في المتوسط.

حصار مالطة(٧٥) :

بعد فتح السلطان سليمان القانوني لجزيرة رودس عام ١٥٢٢م ، منح الأمان لفرسان القديس يوحنا ولم يمسهم بسوء وأعطاهم حرية الإنسحاب، وكما سبقت الإشارة كان هذا من الأخطاء التي أدت بعد ذلك إلي تمركزهم من جديد في جزيرة مالطة ، بعد أن أهداهم اياها الإمبراطور شارل الخامس ، على أن يكونوا حلفاؤه في حربه ضد المسلمين خاصة في الشمال الافريقي .

بعد أن شعر المسلمون في شرق البحر المتوسط بالأمان بعد استيلاء العثمانيون على رودس ، بدأ فرسان يوحنا الخروج عليهم مرة أخرى من جزيرة مالطة ، لكنهم في هذه المرة أكثر تحصينا وأقوى عتاداً ، فضلاً عن كونهم حلفاءً للإمبراطور شارلكان، الذي اتخذهم أداة من أدواته لشل حركة الملاحة الاسلامية بين حوضي البحر المتوسط ، بعد أن تمركزوا في مالطة ذات الموقع الإستراتيجي ، فضلاً عن وقوعها بالقرب من الساحل الإفريقي ودعمها لآخر المعاقل الإسبانية في حلق الوادي ووهران والمرسى الكبير .

وأمام كل هذه المتغيرات ، جمع السلطان سليمان مجلس الشورى في استانبول لأخذ رأيهم في التهديدات التي تتعرض لها الدولة ، فأشار عليه المجلس بفتح جزيرة مالطة أولاً وقبل كل شئ ، لأن فرسان القديس يوحنا – الذين أصبحوا فرسان مالطة – هم أساس كل الاضطرابات.(٧٦)

وكان دارغوث باشا قد أدرك جيدا حساسية موقع جزيرة مالطة وخطرها على الملاحة الاسلامية ، وسلامة الولايات العثمانية في الشمال الافريقي، لكنه مع هذا قد وقف موقفا معارضاً هو والقائد قلج على باشـــا ، اللـــذان ألحا على توجيه الحملة إلي قلعة حلق الوادي ووهران ، باعتبارهما امتداد للرقعة العثمانية الاسلامية ، وأن خطرهما أشد تأثيراً ، هذا خلافاً لمالطة التي تعتبر أحد القلاع المحصنة المسيحية ، والبعيـــدة عـــن الاراضـــي العثمانية . مع هذا فإن الرؤية العامة للإستراتيجية العســـكرية والبحريـــة العثمانية حولت اهتمامها إلي مالطة في بادئ الأمر.(٧٧)

هكذا كلف السلطان سليمان أمراء طرابلس الغرب والجزائر بمحاصـــرة مالطة ، وقد لبى هؤلاء الدعوة وأعدوا ما لديهم من قـــوة . وفـــي عـــام ١٥٦٥م وصل الصدر الأعظم مصطفى باشا قائدا للجيش وبيـــالي باشـــا آمراً على الأسطول ، واتجه الإثنان إلي مالطة ، ثم لحـــق بهـــم أمـــراء الشمال الافريقي دارغوث باشا وحسن باشا والي الجزائر وقلج على باشا من الإسكندرية ، وعلى الفور بدأوا في حصـــارها بـــأكثر مـــن مـــائتى سفينة.(٧٨)

لقد كانت المقاومة المالطية مدهشة ورائعة ، لقد تصدوا بكل بسالة وعنف إلي الهجمات العثمانية الموزعة ، لم يفســـحوا المجـــال للعثمـــانيين فـــي الإستيلاء على أهم حصونهم . ولقد استمر الحصار العثماني أكثـــر مـــن أربعة أشهر ، استنفذ فيها الجيش كل ذخيرته الحربية ومعداته وثوريته ، وكان استهلاك كل هذا الوقت في الحصار ضد اســـتراتيجية الأســـطول العثماني ، التي تقتضي دوماً تبني أسلوب المفاجأة وسرعة التحرك وإنهاء المعارك .

ولقد حتم كل هذا عدم نجاح العثمانيين في الإستيلاء على قلاع الجزيرة ، هذا فضلاً عن إصابة دارغوث باشا بشظية في رأسه أردته قتيلا ، في نفس اليوم الذى نجح فيه العثمانيون في اقتحام حصن سان المو Sant Elmo والإستيلاء عليه في يونيو ١٥٦٥ الا أن القلعة الأصلية ظلت صامدة ، فلم يتغير الوضع لصالح العثمانيين الذين فقدوا أحد القادة اللامعين ، وأحد الشخصيات البارزة للقرن السادس عشر على الاطلاق وهو دارغوث باشا(٧٩) ، (٨٠)

وكان لفشل العثمانيين في الإستيلاء على جزيرة مالطة عدة نتائج أهمها ، بداية الإتجاه الأوروبي بتكتيل القوى المسيحية للعمل المشترك للقضاء على العثمانيين ، وهذا ما سوف يؤدي إلي الحلف المقدس الذي تزعمه البابا . وقد كان انتصار فرسان القديس يوحنا دافعاً لهم على استرجاع طرابلس الغرب ، التي عهد بولايتها إلي قلج على باشا بعد استشهاد الريس دارغوث . وقد أدى هذا الإنتصار أيضاً إلي تعزيز معنويات الإسبان ، وعملهم على زيادة تحصينات قلاعهم في الشمال الافريقي ، وزيادة حركتها البحرية وتركيزها على البحر المتوسط (٨١) .

ولن يكون انتصار مالطة منفصلاً عن الإنتصارات الصليبية ، التي تبعته على العثمانيين مثل انتصار معركة ليبانتو البحرية عام ١٥٧١م ، وسيكون له أيضا تأثير قوى على زيادة التحرك العثماني في مياه المتوسط، خاصة الغربية لتدارك النتائج السلبية لهذه المعركة على الصعيد المتوسطى والشمال إفريقي .

التحركات العثمانية على الجبهة الشرقية :

كانت الدولة الصفوية منذ قيامها ، تتبع سياسات عدائية ضد الدولة العثمانية ، فضلا عن التحالف مع أعدائها كما سبقت الاشارة من قبل ، الا أن فقد الدولة الصفوية لولاياتها الغربية مع العثمانيين في أيام السلطان سليم ، كانت ضربة سياسية وعسكرية شديدة للشاه اسماعيل الصفوي ، وحتى يقوى موقفه التفت إلي الدول الأوروبية المعادية للعثمانيين للتحالف معهم . ولما فشلت محاولاته للتحالف مع البندقية ، توجه إلي المجر التى شكلت خط الدفاع الأول عن القارة الاوروبية في وجه العثمانيين ، وإلي اسبانيا ، فأرسل رسالتين عام ١٥٢٣م إلي كل من لويس الثانى ملك المجر وشارلكان ملك اسبانيا ، طلب فيهما عقد معاهدة صداقة وتعاون ضد العثمانيين . ويبدو أن شارل الخامس قد وافق على طلبه وأرسل رسالة كتابية بهذا المعنى ، ولكن لدى وصول المبعوث الإسبانى كان الشاه اسماعيل الأول قد توفى(٨٢)

خلف الشاه طهماسب (١٥٢٤ - ١٥٧٦م) أباه اسماعيل ، وله من العمر عشر سنوات ، وقد أدى ذلك إلي بداية التنازع على السلطة بين قبائل القزلباش ، والذي أدى بدوره الي انصراف الدولة العثمانية عن الجبهة الشرقية بعض الوقت نظرا لانشغالهم بالحرب في أوروبا ، لكن مع ذلك يعد عهد الشاه طهماسب هو امتداد لعهد والده من حيث الصراع مع الدول السنية ومعاداتها ، سواء الواقعة من الناحية الشرقية مثل الأوزبك ، أو من الناحية الشرقية وهم الأتراك العثمانيون ، الذين وصولوا إلي ذروة قوتهم مع اعتلاء السلطان سليمان العرش عام ١٥٢٠م .

لقد بدأ الصفويون بعد هزيمتهم في جالديران تحديث جيشهم ، بما يتناسب مع نزاعهم المستمر مع العثمانيين ، الذين يمتلكون أحدث العتاد الحربي وأقوى الأسلحة النارية ، فدخلت الأسلحة النارية إلي الجيش الصفوي ، وكان ذلك سبباً مباشراً أدى إلي هزيمتهم للأوزبك في الجبهة الشرقية مع بداية عهد طهماسب . ولقد أفادت تلك العداوة الواقعة بين الدولة الصفوية وجيرانها من المسلمين السنة على الجبهة الشرقية الدولة العثمانية كثيرا ، إذ كانت تلك القوى دائمة الإغارة على الحدود الشرقية للصفويين ، خاصة أثناء انشغال الصفويين على الجبهة الغربية ضد العثمانيين .

لقد استغل الصفوى وجود السلطان سليمان على الجبهة الأوروبية وقـام بإجراءات عديدة في الحدود الشرقية العثمانية ، فقد انحاز حـاكم امـارة بدليس الصغيرة - الموالية للعثمانيين والواقعة علـى الحـدود الصـفوية العثمانية - إلي طهماسب وتحول لموالاته[٨٣] ، هذا فضلا عن محاولـة طهماسب استمالة الأمير الروسي ايفان الكبير ، حيث عرض عليه الاتفاق معه لمحاربة العثمانيين ، فبدأت من ذلك الوقت التدخلات الروسـية فـي البلاد السنية ، الواقعة بين روسيا شمالاً والدولة الصفوية جنوباً ، ومنهـا بلاد القفقاس (القوقاز) ، وهذا ما أدى إلي التـدخلات العثمانيـة واسـعة النطاق في هذه المناطق منذ أواسط القرن السادس عشر.[٨٤]

لقد استطاع طهماسب بعد ذلك السيطرة على العراق عـام ١٥٣٠م [٨٥] ، وحاول نشر المذهب الشيعي بالعراق وشرقي الأناضول ، كما كان يفعل والده ، وكان لاستيلاء الصفويين على بغداد ضـررا كبيـرا بالمصـالح العثمانية في المنطقة ، خاصة التجارية حيث الطريق التجـاري البـري الرئيسي بن الشرق وأوروبا الذي يسيطر عليـه العثمـانيون ، والمـار بشمال العراق .

وبناءً على هذه التحركات ، أمر السلطان سليمان وزيره إبـراهيم باشـا بالتوجه الي إيران ريثما يستطيع اللحاق به بعد تسوية الأوضـاع علـى الجبهة الأوروبية ، فبدأ سير الحملة في أكتوبر عام ١٥٣٣م ، وبعـد أن قضى الجيش فترة الشتاء في حلب قصد مدينة تبريز مباشـرة لفتحهـا ، وتمكن الجيش فتح جميع الحصون والقـلاع المجـاورة لبحيـرة وان ، ووصل دون جهد كبير أو مقاومـة الـي تبريـز ودخلهـا فـي يوليـو ١٥٣٤م[٨٦]، وسار بعد ذلك السلطان سليمان للإنضمام إلي قوات وزيره ، حيث دخل تبريز دون مواجهة من الصفوي ، حاول السـلطان سـليمان بعدها كثيراً العثور على الجيش الصفوى لدحره نهائياً ، إلا أن طهماسب

على ما يبدو كان هو الآخر يتجنب المواجهـــة المباشـــرة مـــع القـــوات العثمانية.[٨٧]

عزم سليمان على مطاردة الشاه ، فسار بجيوشه إلي مدينة زنجـــان ثـــم مدينة السلطانية الواقعة إلي الشرق من ميلان ، وقد تقهقر الشاه متجنبـــا الإصطدام بالعثمانيين ، لكن قسوة المناخ في المنطقة ، وصعوبة الطرق ، واستحالة مرور المدافع الضخمة وعربات النقل عليهـــا ، بفعـــل كثـــرة الأمطار والأوحال ، أجبره على التخلى عن فكـــرة المطـــاردة ، فتـــرك المنطقة قاصداً بغداد .

دخل سليمان بغداد دون مقاومة في نوفمبر ١٥٣٤م ، لكنه لم يكتف بذلك بل أراد السيطرة على كامل العراق ، حتى خليج البصرة جنوباً ، وذلـــك لإحكام السيطرة على المنطقة نهائياً ، ويحول بذلك دون التدخل الإيراني .

استقبل السكان الجيش العثمانى بالترحاب والسرور ، وحصلت في بغـــداد انتفاضة ضد الحكم الصفوى تزعمها رجال الدين . أما الحاكم الصـــفوى محمد تكلو ، فقد هرب من المدينة الي ايران بطريق الحيلة بعد أن دخلها سليمان ظافرا . وأخذت بعد ذلك المدن العراقية تعلن انضمامها الي الباب العالي ، فدخل العراق الجنوبي في طاعة السلطان ، وضـــم العثمـــانيون البصرة والقطيف والبحرين ، فسيطروا بذلك على احدى الطرق التجارية ، الهامة التى تربط الشرق الأقصى بأوروبا بواسطة الخليج العربي وبغداد والموصل ، وترتب على العثمانيين مسئوليات دفاعية جديدة ، خاصة ضد البرتغاليين في منطقة الخليج العربي.[٨٨]

تجددت بذلك الزعامة السنية على بغداد وكامل العراق ، ولم يصاحب ذلك أية اضطهادات دينية ، بعكس ما حدث عند دخول اسماعيل الصفوي ، بل انتهج العثمانيون سياسة التسامح ، وقدموا الحماية للشيعة من سكان بغداد

كما قدموا لليهود والنصارى ، وسرعان ما عرفت بغداد في ظـل السـلم العثمانى ازدهاراً واضحاً ، وأصبحت البصرة بعد ذلك بسنوات عثمانية ، فساعد ذلك الدولة العثمانية كثيراً في إشرافها علـى المحـيط الهنـدى ، ومحاربتها التوسع البرتغالي في البحار الشرقية .

بعد رجوع السلطان من العراق ، استأنف إرسال عملاء الشاه الذين يطلق عليهم اسم (خليفة) خلسة إلي الأناضول وجنوب القفقاس ، لبث المـذهب الشيعى والدعاية له ، لكن الشاه ما لبث أن بدأ بنشر المذهب بالقوة فـي شروان شمال أذربيجان ، وفي داغستان شرقي القوقاز ، وقد لجأ أميـر داغستان السنى إلي السلطان سليمان (٨٩) ، هذا الي جانب لجـوء أخـو طهماسب ، الذي عينه على إحدى الأقـاليم السـنية فـي الشـمال الـي السلطان(٩٠) ، فأصبحت كل هذه التداعيات لازمة بما يكفى لإتمام حملـة أخرى على ايران .

كانت حملة عام ١٥٤٧م هامة بالنسبة للسلطان العثمانى في إطار مواجهته مع الصفوية ، كان يهدف من خلالها أولاً وقبـل كـل شـئ ، محاولـة استهداف طهماسب في حرب ميدانية كبرى تقضى على قوتـه تمامـا ، وتجعله غير قادر على السيطرة على بلاده أو البلاد السنية المجـاورة ، وقد ينجح السلطان في هذه المرة بعد انقسام السلطة في إيران ، وخـروج أخو طهماسب واستعانته بسليمان .

هكذا استطاع السلطان في هذه الحملة دخول شـروان مباشـرة ، وتـم تطهيرها من الحكم الصفوي ، ودخل تبريز مرة أخرى عـام ١٥٤٧م ، بعد أن انسحب منها طهماسب كالعادة لتجنب ملاقاته ، وفـتح داغسـتان وكان خلال طريقه يبحث عن القوات الصفوية ، إلا أن الشاه انسحب تجاه قزوين ، التى اتخذها عاصمة بدلاً من تبريز لبعدها عن ساحة المواجهات العسكرية .

لقد استطاعت هذه الحملة بالفعل الحد من النفوذ الصفوى ، خاصة في البلاد السنية المحيطة ، وأيضاً استطاعت إبعاد الصفوي عن شرق الأناضول ، لكنها لم تحقق نتائج حاسمة كالتى كان يتطلع إليها سليمان ، فلم يظفر بالصفوى في معركة كبيرة.(٩١)

هكذا كان عليه استئناف الحرب مرة أخرى على الجبهة الصفوية ، وكان ذلك عام ١٥٥٣م ، خاصة بعد الإستفزاز الذي صدر من طهماسب ، حيث اجتاح بقواته عام ١٥٥١م شرقي الأناضول (إيالتى وان ، وأرضروم) ، فسار سليمان بحملة ثالثة على ايران ، وفتح مدينتي روان ونهجوان التى تقع على الساحل الشمالي لنهر الرس ، واجتاز النهر بعد ذلك إلي جنوبي أذربيجان ، وضيق على الشاه . ومن جهة أخرى كان الصفويون قد استعادوا شروان وبعض أجزاء من أرمينيا.(٩٢)

حاول الشاه طلب الصلح أثناء تقدم سليمان ، وكان من جانبه يرغب السلطان سليمان في الصلح وتهدئة الجبهة الشرقية ، التى تستنفذ الجهد والوقت والمال بدون طائل ، لكنه أبلغ الشاه أن الصلح إذا تم فلابد من إملاء شروطه ، وأهمها استعادة الأطراف الشرقية التى كانت بحوذة العثمانيين ، وبناء على ذلك وقعت أول معاهدة حقيقية بين الطرفين في أماسيا عام ١٥٥٥م ، أهم بنودها :

وضع ولايات أذربيجان الشرقية وأرمينيا الشرقية وكرجستان الشرقية تحت تصرف الدولة الصفوية ، في حين توضع أرمينيا الغربية وكرجستان الغربية والعراق تحت تصرف الدولة العثمانية ، وتكون ولاية قارص حداً فاصلا بين البلدين ، مع تبعيتها للدولة العثمانية .

أدى توزيع مناطق الأطراف ، أن حصل الصفويين على الجهات الغربية منهم ، فأمنوا بذلك حدود دولتهم ، كما حصلوا على جزء من هذه

المناطق ذات الوفرة في انتاج الحرير، لتغزية خـزانتهم التـى أرهقتهـا الحروب . وفي المقابل حصل العثمانيون علـى مركزتجمـع الحريـر ، تبريز ، بالاضافة إلي المناطق الإستراتيجية ، وأضحى لهم موطئ قدم في مناطق الحرير الايراني ، بعد أن اتسع نفوذهم في تجارة المحيط الهنـدى اثر ضمهم العراق إلي أملاكهم عام ١٥٣٤م.(٩٣)

وهكذا وضعت هذه المعاهدة حداً للمواجهات العثمانية الصـفوية ، علـى الأقل في عهد السلطان سليمان ، الذي أرهقـه التنقـل بـين الجبهتـين الأوروبية والآسيوية والموازنة بينهما . لكن هذه المعاهدة قـد وضـعت أيضاً حداً للآمال العثمانية في إنهاء الدور الشيعى نهائياً ، ودولتـه التـى تقف سداً فاصلاً بين كل الأراضي التركية في آسيا ، بين تركستان فـي الشرق والدولة العثمانية في الغرب ، لقد وضعت هذه المعاهدة ملايين من السنة خاصة الأتراك في الجانب الآخر من آسيا تحت تصرف ايـران ، وهذا ما كانت ترفضه الدولة العثمانية وتناضل من أجله ، الا أن المقولة التى ترددت في أوروبا وهى (لولا الشـاه ، لوصـلت العثمانيـة إلـي الراين)(٩٤) ، لم تكن هامة بقدر المقولة المقابلة التى تقول (لولا أوروبا لوصلت العثمانية إلي تركستان) .

النفوذ العثماني في البحار الشرقية :

لقد استطاعت البرتغال إحكام السيطرة تماماً على مناطق التجـارة فـي المحيط الهندى والخليج العربي ، بعد أن أحبطت كل المحاولات من قبـل المماليك وسلاطين الهند في طردهم من هذه المناطق ، أو علـى الأقـل تحجيم نشاطهم واستئثارهم بمصادر التجارة .

لقد عزز التواجد البرتغالي في الخليج العربي إعتراف الشاه الصفوي له ، من خلال معاهدة عام ١٥١٥م ، التى تهدف الي التعاون المشترك (٩٥) ، ومن منطلق هذا التحالف بدأوا في محاولة السيطرة على الإمارات العربية ذات المواقع الهامة في الخليج العربي .

إلا أنه بعد سقوط دولة المماليك في مصر عام ١٥١٧م ، دخلت الدولـة العثمانية إلي حلبة الصراع بقوة ، سواءً في جنوب الجزيـرة ، أو فـي الخليج العربي والهند . لقد كان الحنين إلي العثمانيين في شرقي الجزيرة واضحاً ، حيث نظر السكان هناك إلي العثمانيين على أنهم منقـذين مـن عسف البرتغاليين ، الذين تعاونوا مع الصفويين وأخضـعوا الإمـارت والمدن الساحلية ، وعززوا سيطرتهم علـى مضـيق هرمـز ، وزادوا الضرائب المفروضة على عمان والقطيف والبحرين ومسقط ، وفرضـوا رقابة على الجمارك ، وظهروا أيضاً في البصرة .

ونتيجة إحجام الشاه طهماسب الأول عن مواجهة العثمانيين ، وسـيطرة هؤلاء على الطرق التجارية التى استخدمها الأمراء المحليون في تنميـة ثروتهم من تجارة الحرير بدأ هؤلاء الحكام يتجهون إلـي اسـتانبول ، طالبين دعمها ومساعدتها ، كما وصلت رسائل اسـتغاثة مـن البصـرة وبغداد.(٩٦)

لقد أدت كل هذه العوامل فضلا عن الجانب الإقتصادي ، إلي تدخل الدولة العثمانية بقوة في البحار الشرقية ، للحد من النفوذ البرتغالي المتزايـد ، ولإنعاش التجارة في مصر ، التى وقعـت تحـت سـلطانها ، ولحمايـة المسلمين ومصالحهم في المنطقة .

لقد تلا سقوط مصر في يد العثمانيين عام ١٥١٧م ، امتداد سيادتهم الي الحجاز امتدادا سليما [٩٧] . وفي عهدالسلطان سليمان ، أصبح البحر الأحمر ذو بعد إستراتيجي هام ، لذلك كان لابد من السيطرة على كافة مراكزه وغلقه تماما أمام البرتغاليين ، ومن ثم جعله نقطة إنطلاق لصد النفوذ البرتغالي ، ووقف اعاقته للملاحة الإسلامية.

هكذا أصبحت اليمن أهم المراكز في سبيل تحقيق الأهداف العثمانية ضد البرتغاليين . فوجود اليمن في الجنوب الغربي لشبه الجزيرة العربية ، وامتداد حدودها من جنوبي نجد والحجاز في الشمال الي خليج عدن في الجنوب ، ومن حدود عمان والربع الخالي شرقا الي البحر الأحمر ومضيق المندب غربا ، جعلها تطوق جنوب الجزيرة، وجعلها منطقة دفاعية هامة لحدود الإمبراطورية العثمانية من الجنوب ، وأدى هذا الي إقناع العثمانيين بأن سيطرتهم على اليمن تجعلهم يضمنون سلامة الأماكن المقدسة الحجازية . والتحكم في البحرين الأحمر والعربي ، وامتلاك موطئ صالح للوثوب على البحرية البرتغالية في البحار الشرقية ، فضلاً عن تطويق أعدائهم الشيعة الصفوية في إيران من الجنوب.[٩٨]

كانت أولى الحملات التى أرسلها السلطان سليمان القانوني لإحكام السيطرة على مدخل البحر الأحمر ، حملة عام ١٥٢٦م بقيادة سليمان رايس ، لإعادة ربط المناطق اليمنية الواقعة تحت نفوذ الإمامة الزيدية الشيعية الي حظيرة العثمانيين في مصر ، إلا أن الحملة لم تحقق النتائج المرجوة منها.[٩٩]

لذلك كان على العثمانيين الإستعداد بشكل أفضل لإخضاع اليمن أولاً ، ومن ثم مواجهة البرتغاليين انطلاقاً من قواعد البحر الأحمر ، لذلك عين السلطان سليمان ، سليمان باشا الخام والياً على مصر ، فكان له دور كبير في تشييد الإسطول العثمانى في البحر الأحمر ، وفي ميناء السويس تحت إشرافه شخصياً ، لتبدأ منذ ذلك الوقت السيطرة العثمانية على مراكز البحر الأحمر الهامة.

ولقد خرجت حملة من السويس لإخضاع عدن قبل المواجهة البرتغالية وذلك عام ١٥٣٨م ، سميت هذه الحملة بحملة سليمان باشا الخادم ، ولقد وصلت في نفس السنة إلي عدن ، حيث تمكن الأسطول العثمانى من إتمام أولى مهماته ، وهى الإستيلاء على عدن دون مقاومة تقريباً في أغسطس ١٥٣٨م ، وبعد أن أناب سليمان باشا أحد ضباطه على عدن ، توجهت الحملة تجاه الهند لمواصلة أهدافها.(١٠٠)

كان السلطان المسلم بهادر شاه ، حاكم كوجرات الهندية ، قد أرسل إلي السلطان سليمان طالباً العون ، بعد أن شرح الأوضاع العامة في الهند ، والأخطار التى تحيق بالمسلمين وبالتجارة الإسلامية جراء السيطرة البرتغالية على هذه المناطق ، فوعد السلطان العثمانى الموفد الهندى خيراً، وعندما إكتشف البرتغاليون أسرار الإتصالات التى أجراها بهادر شاه مع السلطان العثمانى قاموا بقتله ، وخلفه إبنه السلطان محمود(١٠١) ، وكانت هذه الإتصالات من عوامل إرسال حملة سليمان باشا الخادم الي الهند بعد فتح عدن .

وقبل أن يصل الأسطول العثمانى إلي الهند ، إستطاع الإستيلاء على أسطول برتغالي مكون من ست سفن ، بالإضافة إلي أسر العديد من البرتغاليين ، وعندما اقترب الأسطول من جزيرة ديو ، أرسل السلطان محمود ، الذي خلف أباه بهادر شاه ، المدد من المؤن والذخيرة إلي سليمان باشا ، وبعدها وصلت الحملة إلي ديو وحاصرت قلعتها ، وباشر سليمان باشا قذف القلعة بالمدافع الثقيلة ، وظل الوضع كذلك عشرين يوماً، سقطت بعدها القلعة الخارجية ، وأوشكلت القلعة الداخلية أن تسقط ، غير أن الموقف انقلب فجأة ، إذ انسحب الإسطول العثمانى ، ورفع الحصار عن القلعة بعد وصول أسطول برتغالى لموازرة الجزيرة المحاصرة.(١٠٢)

ومن أهم أسباب فشل هذه الحملة في الهند ، هو تعدد الجبهـات القتاليـة للدولة العثمانية في ذات الوقت ، فأدى ذلك عدم إمكانية إرسـال المـدد والعون لمباشرة القتال ضد الأسـاطيل البرتغاليـة المتتابعـة ، إذ كـان السلطان سليمان في حربه الأوروبية ، وكان برباروسا قـد سـار مـن استانبول بالأسطول الرئيسي إلي بروزة .

ويرجع سبب تفوق البرتغاليين الدائم في الهند إلي مساعدة الهندوس الذين انحازوا للبرتغاليين ، لكي يضعفوا من قوة السلاطين الهنود المسـلمين ، ففي ذلك الحين وحد العـداء للإسـلام بـين الإمبراطوريـة الهندوكيـة والسلطات البرتغالية ، وهو الأمر الذي يفسر بقاء البرتغاليين بجاوة بقوة عسكرية لا تذكر.

أما من الناحية البرتغالية ، فكان وصول سلطان الدولة العثمانية القوية إلي الساحل اليمنى المطل على البحر الأحمر ، ثم إرسالهم حملة ديـو عـام ١٥٣٨م ، ضربة قاضية لخطتهم ، التى ترمى إلي السيطرة على مـدخل البحر الأحمر والتحكم في تجارته ، كما فعلوا في الخليج العربي ، لـذلك نراهم يتجهون بعد ذلك إلي الساحل الإفريقي المقابل للسـاحل اليمنـى ، فيقوون من علاقتهم بملك الحبشة من خلال مـده بالسـلاح والجنـود ، لمحاربة المسلمين الذين سيطروا على جزء كبير من مملكته ، ليضـمنوا من خلال وجودهم على الساحل مراقبة تحركات العثمانيين فـي البحـر الأحمر عن كثب ، وليكونوا قريبين من ترسانة السويس ومينـاء جـدة ، فيسهل عليهم ضرب أية إستعدادات بحرية تجري في أي منها.[١٠٣]

وهكذا قرر البرتغاليون إستهداف المراكز العثمانية في البحر الأحمـر ، فأحرقوا سواكن[١٠٤] وحاولوا إحراق جدة ، لكنهم ما لبثوا أن لقوا هزيمة منكرة في معركة مصوع البحرية [١٠٥] على يد العثمانيين عام ١٥٤٠م ،

وكان ذلك سببا مباشراً في لفت نظر العثمانيين إلي أهمية بـلاد الحبشـة والساحل الشرقي لإفريقيا ، في إطار مواجهتهم المستمرة مع البرتغاليين .

لكن العثمانيين حاولوا أولاً التوسع في اليمن منذ مطلع عام ١٥٣٩م ، مما أدى إلي وقوع مصادمات مع الإمام الزيدي ، لكن العثمانيين إسـتطاعوا تدريجياً أن يبسطوا نفوذهم على اليمن ، خاصة سواحله التى تمثل ركيزة هامة في صراعهم مع البرتغال وقد سيطر العثمانيون علـى تعـز عـام ١٥٤٥م ، ثم بعد مواجهات مع الزيديين ، إسـتطاعوا السـيطرة علـى المنطقة الممتدة من تعز جنوبا حتى جيزان شمالاً ، وبعد سيطرتهم على صنعاء ، توطد مركزهم في اليمن وتم لهم الإستيلاء على معظم أراضيه، وبعدها قام الوالي العثماني بتفقد البلاد ، فأصدر عفواً عن الخارجين على النظام ، وخفف الضرائب عن الأهالي.(١٠٦)

ومن ناحية أخرى ، لم تستقر الأمور تماماً للعثمانيين في عدن ، علـى الرغم من أن سليمان الخادم كان قد ترك حامية قوية لتدعيم السيطرة على المدينة ، فاضطر العثمانيون إلي توجيه أسـطول قـوى بقيـادة بيـري رايس(١٠٧) لإقرار الأمور في عدن ، ولحفظ هيبة الدولة في هذه الجهات ، ولقد قام بيرى باشا بقصف تحصينات عدن ، واسـتولى عليهـا بهجـوم خاطف ، وطرد البرتغاليين الذين انتهزوا الفرصة ونفذوا الي هناك .

ولقد اتخذ الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين على السـواحل الإفريقيـة الشرقية صوراً متعددة ، منها أن الدولة العثمانية كانـت تؤيـد وتعـاون الممالك الإسلامية المحيطة بهضبة الحبشة والتى سميت بممالك الطراز ، بينما كانت البرتغال تؤيد الحبشة وتعينها على مهاجمـة هـذه الممالـك الإسلامية ، وقد ظل الصراع قائماً حتى القرن السابع عشر ، لكـن لـم ينقض النصف الأول من القرن السادس عشر ، إلا وكان العثمانيون قـد

طردوا البرتغاليين تماماً من البحر الأحمر، واستولوا على الموانئ الهامة على شاطئيه ، وهى سواكن وعقيق ومصوع ودهونــو علــى الســاحل الإفريقى ، كما استولوا على عدن وحصنوا جدة على الساحل الآسيوي ، فغدا البحر الأحمر بحيرة عثمانية .(١٠٨)

واستطاعت الدولة العثمانية خلال ذلك تأسيس إيالة الحبش ، التى ارتبطت في بادئ الأمر بمصر ، ثم أصبحت بعد ذلك إيالة مســتقلة تابعــة إلــي استانبول مباشرة ، ضمت قسماً كبيرا من الصومال وأريتريا الحاليتين ، خاصة الأجزاء الساحلية ، وكانت تهدف الدولة العثمانية من ذلــك دفــع مملكة الحبشة المسيحية نحو الداخل ، وإبعادها عن الســواحل بصــورة مطلقة ، لقطع علاقتها بالبرتغال نهائيا.(١١٠)

أما بالنسبة الي التواجد العثمانى في الخليج العربي ، فقد تمكن العثمانيون من النفاذ إلي الخليج بعد استيلائهم على العراق عام ١٥٣٤م ، وتمكنــوا من الإقتراب من القواعد البرتغالية في الخليج والمحيط الهندى ، مما أتاح لهم إتخاذ قواعد عسكرية في الخليج لاستخدامها كنقــاط إنطــلاق ضــد البرتغاليين ، إلا أنهم لم يغيروا من استراتيجيتهم الثابتة التى ورثوها عن المماليك في مصر ، وهى اتخاذ السويس القاعــدة الأساســية لعمليــاتهم الحربية ضد البرتغاليين ، بالتعاون مع القواعد العسكرية المســاعدة فــي الطور ، والعقبة ، والقصير ، وجدة ، وزيلع ، وســواكن ، ومصــوع ، وعدن .(١١٠)

ولقد خشى البرتغاليون من وصول النفوذ العثمانى إلي منــاطق نفــوذهم القريبة من مدخل الخليج جنوباً ، خاصة وأن القبائل العربية علــى هــذا الساحل كانت تبغضهم ، فسارعوا لغزو البحرين وانتزاعها من يد الشيخ مقرن بن زامل الجبري ، شيخ الجبور بالإحساء ، الذي كان على اتصال

بالعثمانيين – كما يبدو – عن طريق أصهاره أشراف مكة . فقد ثبت أنه استعان بالعثمانيين لبناء السفن الحربية في البحرين ، وأعلن تبعية البحرين والقطيف للإحساء ، وبالإستيلاء على البحرين ضمن البرتغاليون موقعاً وسطاً في الخليج ، يطلون منه على الساحل العربي الذي يخشونه .(١١١)

ومنذ ذلك الوقت بدأت المعارك المستمرة والمواجهات العثمانية البرتغالية، ففي الوقت الذي كانت تسعى فيه الدولة العثمانية لإحكام سيطرتها على البحر الأحمر ، سيطر البرتغاليون على المنطقة الواقعة بين هرمز حتى البحرين ، ومما صعب المهمة على العثمانيين في الخليج ، أن وصولهم كان متأخراً في إطار سعيهم لإزالة النفوذ البرتغالي من الخليج نهائياً.

بعد وصول النفوذ العثماني إلي البصرة ، حرص العثمانيون على توطيد نفوذهم في منطقتي الإحساء والقطيف ، وكان سكان القطيف قد تمردوا على الحاكم الهرمزي بمساعدة شيخ الإحساء ، وتمكنوا من طرده من مدينتهم ، وطلبوا المساعدة من السلطات العثمانية في البصرة ، فأرسل السلطان قواته ، ودخلت منطقة الإحساء سنة ١٥٥٠م تحت السيادة العثمانية ، وصارت القطيف سنجقاً تابعاً لولاية البصرة.(١١٢)

بعد سيطرة العثمانيين على القطيف والأجزاء الهامة لإقليم الإحساء ، إزداد قلق البرتغاليين من إمكانية السيطرة العثمانية الكاملة على مياه الخليج ، لذلك بدأوا العمل على إزالة النفوذ العثماني عن الخليج العربي .

هكذا سعت القوتان لتثبيت دعائم نفوذهما ، وعدم السماح للقوة الأخرى الإضرار بمصالحها ، فقام البرتغاليون بدعم دفاعاتهم في هرمز ، خاصة مسقط وجلفار ، ولذلك كان على العثمانيين التحرك فوراً ضد النشاط البرتغالي المضاد .

هكذا أمر السلطان سليمان ، بيري رايس ، بعد أن أصبح قبوداناً للبحرية المصرية عام ١٥٥٢م ، بالتوجه على رأس حملة إلي هرمز لمحاصرتها، وبالفعل توجه بحملة إلي الخليج العربي ، مكونة من حوالي ثلاثين سفينة، وصلت الي مسقط ، حيث استطاع بيري رايس أسر الحامية البرتغالية بها، ثم واصل سيره الي قلعة هرمز ومن ثم حاصرها بشدة ، لكنه لم يتمكن من إسقاطها خلال أكثر من عشرين يوماً ، لذلك قرر التراجع عن الحصار خوفاً من قيام أسطول برتغالي بمفاجأته أثناء حصاره ، حيث أنه لا يمتلك ما يكفى من السفن والعتاد لمواجهة مثل هذه الهجمات ، وبالفعل بعد وصوله إلي البصرة وصلت أخبار عن نجدة برتغالية جاءت إلي هرمز ، مما يدل على سلامة قراره بالتراجع .(١١٣)

لم تحقق هذه الحملة أهدافها المرجوة ، إلا أنها قد أنهكت القوة البرتغالية في الخليج وكبدتها خسائر فادحة ، فضلاً عن الغنائم العظيمة التى تم الحصول عليها ، لكن للأسف قد أعدم بيرى رايس بعد رجوعه إلي مصر بسبب هذه الحملة ، حيث أنه لم يستطيع الرجوع بكامل الأسطول إلي السويس ، فترك معظمه في البصرة لإعادة تأهيله للإبحار من جديد بعد ما أصابه من أضرار ، فوجهت إليه تهمة التبديد ، فضلا عن فشله في تحقيق أغراض الحملة ، فتم إعدامه عام ١٥٥٢م عن عمر يناهز الثمانين عاماً، بعد أن قدم للبحرية العثمانية وعلم البحار والجغرافيا عظيم الخدمات، ويعد المؤرخون إعدامه أسوأ الأحداث التى تنسب لعهد السلطان سليمان القانوني .

عين مراد رايس بدلاً من بيري رايس ، وأسندت إليه مهمة إعادة باقى الأسطول العثمانى الرابض في البصرة إلي السويس ، فذهب إلي البصرة عن طريق البحر وأصلح السفن ، لكنه عند إبحاره إلي السويس عن طريق مضيق هرمز قابله الأسطول البرتغالي ، فنشبت معركة عنيفة بين

الفريقين انتهت بعدم مقدرة الإسطول على المواصلة ورجوعه إلي البصرة.

فعينت الدولة سيدى على رايس (عالم الفلك والجغرافيا العثمانى) بدلاً من مراد رايس ، لإرجاع الإسطول العثمانى من البصرة ، وبعد أن رمم ما تلف من السفن ، أقلع هابطا إلي مدخل الخليج ، وتقابل مع الأسطول البرتغالي قريبا من مسقط ، فانتصر عليه إنتصاراً كبيرا .(١١٤)

كانت هذه المعارك نموذجا للمعارك البحرية بين العثمانيين والبرتغاليين ، التى نشبت بينهما في خضم الصراع بين الفريقين طوال القرن السادس عشر . ومع أن العثمانيين لم يوفقوا في إنهاء التواجد البرتغالي نهائيا من المياه الشرقية ، إلا أنهم قد حققوا نجاحات كثيرة على جميع الأصعدة ، فقد قاموا بغلق البحر الأحمر تماماً أمام السفن الأجنبية ، وأبعدوا السيطرة البرتغالية عن جنوب الجزيرة العربية ، فضلاً عن إعادة إحياء الطريق التجاري القديم إلي مصر .

لقد عادت بالفعل التجارة ، خاصة تجارة التوابل إلي الإزدهار من جديد خلال طرقها القديمة التى تمر بالخليج العربي أو البحر الأحمر ، لأن الدولة العثمانية عملت على تأمين تلك الطرق وحمايتها من التربص والإحتكار البرتغالي ، فأصبحت المنافسة كبيرة بين الطرق التقليدية ، وبين الطرق البحرية التى تصل الهند بلشبونة . وقد انتعشت من جديد التجارة القائمة في البحر المتوسط عامة ، بفضل الأعداد الكبيرة من القوافل التجارية الآتية عبر الطرق التقليدية القديمة ، وانعكس ذلك بالطبع على إعادة ازدهار مدن المتوسط الساحلية ، خاصة مدن الشمال الإفريقي في مصر وطرابلس الغرب ، فضلاً عن موانئ الشام التى عادت إلي وضعها ، بسبب وصول النفوذ العثمانى إلي الخليج العربي .

وقد بدأ النفوذ التجاري البرتغالي في البحار الشرقية يتقلص ، حيث بدأت القوة البرتغالية الإستعمارية في الإنهيار شيئاً فشيئاً منذ أواخر القرن السادس عشر ، في الوقت الذي بدأت تتنامى فيه قوى إستعمارية أوروبية أخرى ، تمثلت في الهولنديين والإنجليز والفرنسيين ، فسقطت بذلك المستعمرات البرتغالية في الخليج العربي مع بداية القرن السابع عشر .

سليم الثاني(**١٥٦٦ – ١٥٧٤م**) :

استلم سليم الثانى بن سليمان السلطة بعد وفاة أبيه ، كان عمره ومدة سلطنته مشابهة تقريبا لجده سليم الأول ، الذي تسمى باسمه ، إلا أن عهده كان بداية توقف للإنطلاقة العثمانية الكبيرة التى بدأت منذ أكثر من قرن ونصف من الزمان . فبالمقارنة بجدوده العظام ، كان سليم الثانى أول سلطان ضعيف من حيث الشخصية ، فكان أول حاكم للدولة لا يخرج على رأس حملات حربية ، ولقد سمحت شحصيته الضعيقة ، بازدياد نفوذ الحكومة وعلى رأسها الصدر الأعظم على حساب نفوذ السلطان ، الذي كان فيما سبق يمتلك زمام السلطة كلها في يده . وبدأ في عهده أيضاً إزدياد نفوذ حريم القصر وخاصة (والدة السلطان) ، وقد كان ذلك النفوذ من أشد الأخطار على الدولة ، خاصة في القرن الأخير ، حيث كان من أسباب انهيارها.

ومن الأكيد أنه لولا قوة شخصية الصدر الأعظم (محمد صوقوللو باشا) ، في إدارة دفة الأمور في الدولة وتوجيهها الصحيح ، لبدأ الإنهيار الفعلى في سلطة الدولة في عهد سليم الثانى . لقد استطاع محمد صوقوللو أن يسير بالدولة على نفس نهج السلطان سليمان تقريباً ، فلم تشهد الدولة في انطلاقتها إلا إشارات توقف في بعض النواحى ، أهمها كفاءة النظام الإداري ، حيث بدأ التنافس والصراع يظهر في بعض المؤسسات الإدارية . وعلى جانب آخر بدأت بعض الهزائم تلحق بالجيش

والأسطول، حقاً لم تكن هزائم مؤثرة ، لأن الدولة مازالت بحيويتها قادرة على مواجهة الأزمات وتدارك عواقبها ، إلا أن هذه الهزائم بدأت تكشف لأعداء الدولة عن إمكانية مواجهتها ، بعد أن كانوا يعدلون عن مواجهتها المباشرة ليقينهم باستحالة هزيمتها ، وعلى ذلك بدأت الدول الأوروبية معاودة التعاون لتنظيم حملات صليبية ، بعد أن كانت بدأت تفقد الأمل في مواجهتها للعثمانيين ، ولكن رغم ذلك سيظل التقدم العثمانى ملحوظاً في كافة المجالات ، حتى أن الجيش العثماني سيصل إلي أسوار فيينا ويحاصرها للمرة الثانية عام ١٦٨٣م .

لم يكن سليم الثانى حكيماً مدركاً لأبعاد السياسة في عصره كما كان والده ، كان سليمان يعلم معنى التوازن السياسي ، وكان يعمل دائماً من أجل حفظ هذا التوازن في أوروبا لأجل سيادة الدولة العثمانية ، وهذا بالفعل ما نجح فيه ، أما سليم الثاني فقد جدد لفرنسا اتفاقياتها مع الدولة عام ١٥٦٩م، لكنه زاد في ميله إلي فرنسا إلى حد سبب أضراراً لمصالح الدولة فيما بعد .

فلقد قام بإعفاء الفرنسيين من دفع الخراج الشخصي ، وأن يكون للقناصل الحق في البحث عن الفرنسيين الرقيق في أراضي الدولة العثمانية لتحريرهم ، فضلاً عن مجازاة من أخذهم بصفة الرق ، وأن يرد السلطان كافة الأشياء التى يأخذها قراصنة البحر من الفرنسيين ومعاقبة الآخذ لها ، وأن تكون مراكب الدولة العثمانية ملزمة بمساعدة ما يرتطم من السفن الفرنسية على شواطئ الدولة ، وحفظ ما بها من رجال ومتاع . ولزيادة توثيق عرى الإتحاد بين الدولتين ، إتفقت الدولة العثمانية على ترشيح أخو ملك فرنسا لعرش بولونيا ، ليكون ظهيراً لهم ضد النمسا وروسيا ، وتم ذلك بالفعل وصارت بولونيا تحت الحماية العثمانية.[١١٥]

هكذا بدأت تزداد تدريجياً قوة فرنسا التجارية والحربية ، وبدأت تحل محل القوة الإسبانية في البحر المتوسط ، بل إنها أصبحت ملكة التجارة في هذا البحر ، وفى ظل معاهداتها مع الدولة العثمانية بدأت في إرسال عدة إرساليات دينية كاثوليكية إلي المسيحيين داخل الدولة العثمانية ، و قدأدت كل هذه الإجراءات إلي ازدياد النفوذ الفرنسي داخل الأراضي العثمانية ، حيث بدأ قناصلها بعد ذلك يتدخلون في الإجراءات الداخلية بدعوى رفع الظلم عن المسيحيين ، وكان القرن الأخير للدولة العثمانية أكبر شاهد على هذه التدخلات ، التى كانت من أسباب تفتيت جسد الدولة .

إقرار الحكم العثماني في اليمن :

كانت اليمن من أهم المراكز العثمانية في إطار المواجهة المستمرة مع البرتغاليين في البحار الشرقية ، لذلك كان على العثمانيين توطيد دعائم حكمهم في اليمن على حساب أي قلاقل يمكن أن تهدد نفوذهم ، خاصة في المناطق الواقعة على الساحل في عدن ومن الجنوب .

لكن إقليم اليمن كان يختلف عن بقية الأقاليم العربية التى دانت للحكم العثماني ، لأن حكامها السابقين كانوا يدينون بالمذهب الشيعي ، فالإمامة الزيدية التى اندحرت عند دخول العثمانيين ، بدأت العمل من جديد لاستعادة السيطرة في اليمن ، حيث لم تقبل الإمامة الزيدية الشيعية ، الخضوع للخلافة العثمانية السنية ، لذلك كان اليمن على مر التاريخ العثماني يشهد قلاقل وشد وجذب من جميع الأطراف .

لقد استطاع الإمام المطهر (إمام الزيديين) في اليمن أن يزداد قوة ، وتمكن من قطع خطوط التموين عن صنعاء وغيرها من المدن الجبلية الخاضعة للعثمانيين ، بل إن المطهر تغلب على الوالي العثماني مراد باشا، وتمكن من دخول صنعاء عام ١٥٦٨م ، وعقد صلحاً مع العثمانيين، إنسحبوا بموجبه إلي زبيد وسهول تهامة حتى تصل إليهم الإمدادات لتساعدهم على إخضاع اليمن بأكمله.[١١٦]

كلف والي مصر سنان باشا بإخماد عصيان اليمن كقائد أعلى ، فخرجت حملة من السويس إلي جدة ، ثم سارت براً إلي اليمن ، واستطاعت الحملة إسترجاع تعز ، في الوقت الذي سار فيه سنان باشا بجيش من القاهرة عام ١٥٦٩م عن طريق البر ، حيث اجتاز الحجاز حتى وصل إلي اليمن .استطاعت حملة سنان إسترجاع اليمن من الإمام ، حيث ساق الزيديين من الشمال إلي بحر عمان في الجنوب . وجاء الأسطول العثماني من الجنوب واسترجع عدن عام ١٥٦٩م.(١١٧) وهكذا استتب الأمر للعثمانيين في اليمن نهائيا عام ١٥٧٠م .

لقد استطاعت الدولة من خلال هذه الحملة تدعيم سيطرتها على اليمن ، مما جعلها تواصل مهمتها في التصدى للبرتغاليين ، وفي عهد مراد الثالث (١٥٧٤ – ١٥٩٥م) استطاع العثمانيون تخليص كافة البلدان الإسلامية الواقعة على الساحل الشرقي لإفريقيا من السيطرة البرتغالية ، وقد قوبل القائد العثماني بالترحاب من قبل سكان الإمارت الإسلامية في مدغشقر وبداوا وقسيمايو ، إذ نظروا إليه نظرة المخلص من يد الأجنبي ، وفضلوا الخضوع للعثمانيين المسلمين عن الولاء للبرتغاليين .(١١٨)

لم يكتف العثمانيون بذلك في إطار مواجهتهم مع البرتغاليين ، بل استطاعوا بالفعل الوصول إلي الإمارات الإسلامية في شرق آسيا (ماليزيا وأندونيسيا) ، وذلك بعد أن طلبت هذه الإمارات التدخل المباشر للدولة العثمانية .

كانت في هذه الأثناء جزيرة سومطرة Sumatra الأندونيسية تحت حكم إمارة (آجه) المسلمة ، التى تأسست منذ بدايات القرن السادس عشر ، وكانت ماليزيا يحكمها الملك المسلم حسين شاه (١٥٦٨ – ١٥٧٥م) ، ولقد بدأ البرتغاليون إعاقة الملاحة الإسلامية في هذه المناطق بشدة ،

فبدأت منذ ذلك الوقت المساعدات العثمانية تتوافد تباعاً على هذه الممالك الإسلامية ، فأرسلت حملة ملقة عام ١٥٦٧م ، وأرسلت حملة من السويس عام ١٥٦٨م تحت قيادة قورد أوغلو ، ولقد جاء مع هذه الحملة مئات المتطوعين للدفاع عن الأراضي الإسلامية هناك ، وعلى اثر هذه الحملات إستطاعت الإمارت الإسلامية في سومطرة وماليزيا الإبقاء على سلطتها أمام الوجود البرتغالي ، ولقد أقرت بعد ذلك بالتبعية للخلافة الإسلامية في استانبول ، وقد استقر كثير من الأتراك في هذه البلاد ، وتزوجوا من أهل البلاد الأصليين ، حتى إن المدافع والأعلام العثمانية لازالت موجودة في هذه المناطق حتى اليوم .(١١٩)

التدخل العثماني في القوقاز وروسيا :

لقد بدأ التوسع الروسي جنوباً منذ أن تخلصت إمارة موسكو Moscow من الحكم الإسلامي لخانات التتار عام ١٤٨٠م ، وقد بدأ الروس يسيطرون على بلاد التتار إمارة بعد أخرى ، ولم يتركوا إلا خانية القرم (شبه جزيرة القرم) خوفاً من الصدام مع العثمانيين.(١٢٠) ولقد قامت سفارات بين قيصر روسيا إيفان الرابع (المرعب) Jvan IV ,le Terribe (١٥٢٩ – ١٥٨٤م) والدولة الصفوية ، للتعاون المشترك من أجل فتح باب التعاون ، وفتح باب التجارة بين إيران وأوروبا عن طريق روسيا بدلاً من الدولة العثمانية.(١٢١)

ولقد قام إيفان الرابع في منتصف القرن السادس عشر باحتلال الضفة الشرقية لنهر الفولجا Volga حتى اصطرخان ، مما هدد العثمانيين وخانيات آسيا الوسطى . وقد أدى هذا التهديد إلي تقارب العثمانيين مع الأوزبك ، وفي الواقع أن خانيات آسيا الوسطى لم يكن بمقدورها أن تؤسس علاقات مع الشرق الأدنى عبر إيران ، لذلك كانت تعتمد على الطريق الذي يمر من شمال بحر قزوين Caspian Sea (الخزر)

وينتهي عند موانئ القرم ، وبما أن هذا الطريق أصبح تحت سيطرة الروس ، توجه خانات آسيا الوسطى ، وخاصة خوارزم بنداءاتهم المتكررة للسلطان العثماني لكي يحرر لهم طريق الحج والتجارة من الروس.(١٢٢)

لقد اقتنع العثمانيون بالخطر الروسي ، بعد أن أصبح الروس يهددون البحر الأسود والقوقاز ، وبعد إخضاع حوض نهر الفولجا حيث خانية قازان التى أخضعوها عام ١٥٥٢م ، وخانية إصطراخان عام ١٥٥٦م ، واستمر الوضع هكذا حتى حوالي عام ١٥٦٦م ، عندما استقر الوضع العام للعثمانيين على الجبهة الأوروبية ، وبدأوا ينظرون بعين الإعتبار للخطر الروسي من الشمال والشرق .

لقد وضع الصدر الأعظم محمد صوقوللو باشا خطة رائعة للتغلب على النفوذ الروسي – الإيراني ، والوصول إلي الإمارت المسلمة التي احتلتها روسيا ، فضلاًعن فتح طريق مباشر وسريع إلي وسط آسيا يحرر الطريق التجاري من السيطرة الروسية ، وكانت هذه الخطة هى فتح قناة بين نهري الدون والفولجا ، وتأمين المرور بين البحر الأسود وبحر الخزر (قزوين) بصورة متقابلة ، والوصول إلي تركستان عن طريق البحر ، يبلغ طول هذه القناة حوالي خمسين كم ، هكذا يمكن تأمين طريق بحري طوله ٩٥٠كم بين الموانئ العثمانية على بحر آزوف وإصطراخان الواقعة على بحر الخزر.(١٢٣)

وعلى هذا تم الموافقة على تنفيذ هذه الخطة ، وأمر السلطان سليم الثاني باسترداد إمارة قازان ، ومع أن هذا العمل الهام كان يقتضي ذهاب السلطان بنفسه ، أو على الأقل الصدر الأعظم ، إلا أن صوقوللو باشا لم يكلف أحد الوزراء ، وإنما كلف مستشار المالية جركس قاسم بك ، فلم

يتمكن بالطبع من السيطرة على الجند أو جيش العمال أو حتى على خان القرم .(١٢٤)

لم تستطع الحملة التي وصلت إلي مصب نهر الدون على بحر آزوف عام ١٥٦٩م ، أن تكمل مهمتها في شق القناة ، ووصل الجيش إلي إصطراخان وتمكن من محاصرة قلعتها ، إلا أنهم لم يستطيعوا انتزاعها من الروس ، فلم تكن الحملة على مستوى أهميتها ، التى تقضي باجتياح المانعين الروسي والإيراني والوصول إلي تركستان والسيطرة على منطقة القوقاز، فلو انطلقت هذه الحملة في عهد سليمان لأصبحت على الأرجح ذات نتائج حاسمة ، ذلك لأن السلطان سليمان يعلم جيداً مقدار خصمه ، أما السلطان سليم أو حتى صوقوللو الذي قدم خدمات جليلة للدولة ، كان مازال يضع الروس في مراتب دنيا تخالف أرض الواقع .

بعد هذه الحملة تبنى القيصر الروسي سياسة الصداقة والسلم مع السلطان العثماني ، لكي يحافظ على مواقعه في حوض الفولجا ، هكذا تخلى السلطان للقيصر عن اصطراخان وقازان ، لكنه ادعى السيادة العثمانية على خانية القرم وبلاد الشركس والقوقاز ، لكن الدولة العثمانية في النهاية لم تشغل نفسها بساحات صراع أخرى ، غير أماكن الصراع الرئيسية في أوروبا والمتوسط ، لذلك تركت أمر الحرب مع روسيا للحاكمين التابعين لها ، خان القرم وأمير ترانسلفانيا ، لكن حين أصبح القيصر الروسي مرشحا للعرش البولوني عام ١٥٧٢م ، بادر العثمانيون بدعم أمير ترانسلفانيا ، الذي اعتلى العرش بفضل العثمانيين وأصبح تابعاً للدولة العثمانية ، وقام بعد ذلك بشن حرب قوية ضد موسكو ، تمكن من خلالها استعادة كل الأراضي التي احتلها القيصر الروسي في الغرب.(١٢٥)

فتح قبرص :

انتزع ريتشارد الأول Richard I ملك انجلترا ، جزيرة قبــرص مــن حاكمها البيزنطي عام ١١٩١م خلال الحملة الصليبية الثالثة ، وبقيت تحت الحكم الصليبي حتى القرن الخامس عشر ، حيــث بــدأت المشــروعات الصليبية مرة أخرى تنطلق منها، ففي ستينيات القرن الرابع عشر، أخــذ بطرس الأول Peter I ملك قبرص المبادرة واندفع في حملات عدوانية على سلطنة المماليك ، الذين كانوا طوال القرن يحكمون مصر وســوريا والأراضي المقدسة ، كان أشهرها حملته على الإسكندرية عام ١٣٦٥م ، غير أن جهوده انتهت بمقتله عــام ١٣٦٩م ، وفــي عــام ١٣٧٤م قــام الجنويون بغزو قبرص.(١٢٦)

ولقد اتخذت الحملات الصليبية على مصر والشام من قبرص ركيزة لهــا منذ القرن الرابع عشر ، فلقد بدأ الغرب الكاثوليكي التفكير في مهاجمــة مصر عسكرياً ، وكانت جزيرة قبرص تمثل أصلح مكــان لتنفيــذ ذلــك المشروع الصليبي ، لوقوعها في مركــز اســتراتيجي شــرقي البحــر المتوسط، وسرعان ما أصبحت وكراً لقراصــنة الصــليبيين يســتغلونها كقواعد يخرجون منها للإغارة على البلدان والسفن الإسلامية ، مما دفــع المماليك إلي الإغارة على قبرص ، حتى وقعت في أيــديهم فــي عهــد الأشرف برسباي (١٤٢٢ – ١٤٣٨م) وكان ذلك عام ١٤٢٦م .(١٢٧)

واستطاعت البندقية عام ١٤٨٩م ، ضم قبرص وإعلانها ذلــك بصــورة رسمية ، وبدأت تسدد ضريبة سنوية للمماليك في مقابل استيلائهم علــى الجزيرة ، ولقد انتقلت هذه الضريبة إلي العثمانيين بعــد فــتح مصــر ، فأصبحت بذلك قاعدة هامة للبنادقة في شــرقي المتوســط ، إلا أن أهــل قبرص (اليونان الأرثوذكس) ، قد عانوا من الإهمال الشديد والإضطهاد في عهد البنادقة الكاثوليك ، وذلك على الأرجح ما ساعد العثمانيين كثيراً

في اتصالهم بأهل الجزيرة ، الذين تعاون بعضهم مع العثمانيين قبل الفتح.
ولقد وصف ساجريدو Sagredo حالة الجزيرة قبل الفتح العثماني مباشرة عام ١٥٦٢م، بأن الفوضى كانت متفشية ، وكان القضاة فاسدين ، وبلغ به الأمر أنه كان يخشى وقوع تذمر عام ، والذي وقع بالفعل في نفس السنة ١٥٦٢م ، تزعمه دياسورنوس Diassorinos ، حيث أقام علاقات خفية بالعثمانيين ، فلما اكتشفت مؤامرته ، تم القبض عليه وإعدامه في نيقوسيا Nicosia، وأخمدت الثورة .[١٢٨]

لقد كانت سياسة الدولة العثمانية في ذلك الوقت تهدف إلي اتمام السيطرة على الطرق الملاحية في البحر المتوسط ، وإحكام السيطرة على شرقي هذا البحر ، مما يؤمن حرية التجارة الإسلامية وسلامتها ، إلي جانب تأمين طريق الحج الرئيسي بشكل كامل ، وبالطبع لن يتسنى لهم السيطرة على هذا الجزء الإستراتيجي الهام ، سوى بإتمام السيطرة على الجزر الهامة ذات الموقع المتوسط بين استانبول العاصمة العثمانية وبين باقي سواحل البحر المتوسط الشرقية والجنوبية ، حيث أهم الموانئ العثمانية في الشام ومصر ، هذا إلي جانب الحد من نشاط سفن بحارة جمهورية والبندقية وقراصنتها ، الذين انتهكوا أكثر من مرة حدود الدولة العثمانية .[١٢٩]

ويؤكد بعض المؤرخين المعاصرين استناداً إلي الوثائق العثمانية ، أن القراصنة المسيحيين المتمركزين في جزيرة قبرص في تلك الفترة وتحت حماية وسيطرة البندقية ، كانوا كثيراً ما يقومون بالإعتداء على السفن التجارية العثمانية ، وعلى سفن ومراكب الحجاج العثمانيين المتجهين إلي الحرمين الشريفين عن طريق البحر ، وأن علاقة البندقية حينذاك مع الدولة العثمانية كانت تسير إلي الأسوأ ، ومن هنا صدرت فتوى شرعية

من شيخ الإسلام ، بأن جزيرة قبرص كانت فيما مضى بلداً مسلماً ، وهى الآن تهدد المسلمين وبلادهم ، فيجب غزوها وإعلان الحرب عليها.(١٣٠)

بناءًعلى ذلك ، أرسلت الدولة العثمانية مندوباً إلي البندقية يطلب منها تسليم قبرص ترضية عن الإنتهاكات المتكررة ضد الدولة ، واستناداً للحقوق التاريخية ، وكان ذلك في مارس عام ١٥٧٠م ، لكن مجلس الشيوخ البندقي رفض الطلب وقرر إعلان الحرب ، فاتصلت البندقية بملك اسبانيا ، وظهر بالفعل الأسطول الإسباني بقيادة أندريا دوريا في شهر إبريل عند نابولي ، لكنه كان يخشى من تحركات قلج على باشا، الذي كان قد استولى على بنزرت ، وفي ذلك الوقت وافقت إسبانيا على طلب البابا والبنادقة بالإشتراك في عملية لمحاولة إنقاذ قبرص .(١٣١)

لكن الحملة العثمانية كانت أسبق ، ويتحدث المؤرخون عن حملة كبيرة إشترك فيه أكثر من مائة ألف جندى ، إلا أن التكتيك الحربي كان له عامل كبير في النصر ، لقد تم إرسال حملة أخرى إلي صقلية في نفس وقت فتح قبرص ، حيث قامت بالإنزال على سواحل ايطاليا ، وذلك للحيلولة دون قدوم مساعدات من الناحية الغربية ، وبهذه الطريقة تم الإستيلاء على قبرص بسهولة تامة ودون مقاومة تقريبا ، وكان ذلك في أغسطس عام ١٥٧١م ، حيث ظلت تحت السيادة العثمانية ثلاثة قرون.(١٣٢)

وبعد استيلاء العثمانيين على قبرص ، نقل إليها عدد كبير من أتراك الأناضول الذين لايزال أحفادهم مقيمين في الجزيرة حتى الآن . ورغم ترحيب القبارصة الأرثوذكس بالحكم العثماني الذي أنقذهم من الإضطهاد الكاثوليكي الذي مارسته البندقية ، إلا أن احتلال العثمانيين للجزيرة أثار الدول الكاثوليكية التي أعدت حملة صليبية ، كان الهدف منها ليس فقط

إسترجاع قبرص ، بل استعادة كل الأراضي المسيحية التي سبق للعثمانيين الإستيلاء عليها . ولقد وفق البابا بالفعل في خلال أسابيع أن يجعل جميع الأطراف تتفق على مبادئ واضحة وقاعدة مشتركة للعمل الأوروبي ضد العثمانيين.

ولقد اتفق المؤرخون على أن الباب العالي كان على علم جيد بكل خلفية هذا التحالف منذ البداية ، وبفضل شبكة جاسوسية واعية ، كان الصدر الأعظم صوقوللو باشا قد أدرك نوعية المفاوضات بين الأطراف ، وقد سعى الباب العالي لكن متأخرا إلي محاولة إبرام الصلح مع البندقية ، وأن يستجلب فرنسا إليه ، في محاولة منه لتفتيت الحلف المقدس من الداخل ، غير أنه لم يوفق في ذلك ، وكان عليه أن يجابه أكبر تجمع بحري مسيحي في شرق البحر الأبيض المتوسط .(١٣٣)

الثورة المورسكية ومعركة ليبانتو البحرية :

بعد استشهاد دارغوث باشا في حصار مالطة عام ١٥٦٥م ، تولى مكانه في إمارة طرابلس القائد قلج على باشا ، الذي ما لبث أن صدر فرمانا سلطانيا عام ١٥٦٨م بترقيته ونقله إلي إمارة الجزائر(١٣٤) ، ولقد أثبت قلج على باشا أنه كان من أعظم من تولوا إمارة الجزائر وجاهد في الشمال الافريقي .

كان من أعظم الأهداف التي يرمي إليها قلج على باشا ، هو إعادة الحكم الإسلامي إلي الأندلس ، بالإضافة إلي إنهاء الحكم الإسباني والموالين له في الشمال الافريقي ، خاصة في تونس ، التي تفصل إقليمي طرابلس والجزائر عن بعضهما البعض . وقد رمى قلج على لإعادة الحكم الاسلامي إلي الأندلس أولاً ، وهذا ما سيؤدي تلقائياً إلى إنكماش الحكم الإسباني وسهولة القضاء عليه في الشمال الافريقي ، وكان من الأمور اللازمة لهذا أيضا دخول العثمانيين إلي المغرب الأقصى ، أو على الأقل

التنسيق مع القوة الإسلامية في هذه الأرض للوصول بسهولة إلي مسلمي الأندلس .

كانت السلطة الحاكمة في المغرب الأقصى ، مع بداية التدخل العثماني الواسع النطاق في الشمال الإفريقي في القرن السادس عشر ، هى سلطة بنى وطاس البقية الباقية من بنى مرين ، والتى قد آلت إلي درجة من كبيرة من الضعف ، فكانت بذلك من الأسباب المباشرة لنجاح الغزو البرتغالي للمغرب الأقصى في القرن الخامس عشر وبدايات السادس عشر.

كان ضعف السلطة الوطاسية في فاس سبباً مباشراً في ظهور الأشراف السعديين(١٣٥) كمجاهدين لهم شعبية جارفة في المغرب ، بسبب نشاطهم الملحوظ ضد الاستعمار البرتغالي للساحل المغربي على المحيط الأطلسي، وكانت هذه القوة الجديدة قوة برية على عكس قوة رؤساء البحر التي سيطرت على الجزائر ، ولقد نجح السعديون في تخليص كثير من الموانئ المغربية من أيدي الأجانب ، حيث ظهروا في بادئ الأمر في إقليم السوس ، وهو الإقليم الذي حاولت كل من البرتغال وإسبانيا إحتلال مخارجه على المحيط الأطلسي .

ولقد تحولت هذه القيادة الجديدة إلي دولة ثابتة مدعمة ، إلتف حولها الأهالي لكى تقوم بمهمتها تجاه الاستعمار ، وقد تمكنت هذه الدولة الناشئة من أن توحد الأهالي في جنوب المغرب وتحارب بهم قوات الإستعمار ، واستطاعت مد سلطتها على القبائل المحيطة ، وأصبحت أمل المغرب الأقصى في الإحتفاظ باستقلاله والوصول الي وحدته (١٣٦) ، و لقد شعرت القيادة السعدية أن التكامل والتعاون بين رجال البحر من مغاربة وجزائريين يمثل خطراً عليها ، وكان ذلك سبباً أساسياً في صدامات وقعت بين الأشراف السعديين وبين كل من رجال البحر المغاربة

والجزائريين ، وقد ظهرت هذه الصدامات في شكل محـاولات متتاليـة لإخضاع الموانئ المغربية لسلطة الدولة السعدية ، ومحـاولات أخـرى لإبعاد نفوذ الجزائريين والعثمانيين عن شمال افريقيا.(١٣٧)

هكذا بدأ التنافر بين القوة السعدية الناشئة - التى سيطرت على المغـرب الأقصى - وبين العثمانيين الذين أملوا في تكوين اتحاد اسـلامي كبيـر ومجاهد ، يواجه الأخطار الخارجية ويحاول إعادة الأندلس للمسـلمين ، ولكن السعديين رفضوا عروض العثمانيين ، بـل ورفضـوا الإعتـراف بالخلافة العثمانية ، وزاد على ذلك تقربهم للأسبان بغية التحـالف معهـم ضد العثمانيين ، وهذا ما أدهش الأسبان الذين توقعـوا ذلـك التحـالف الاسلامي الجهادي ضدهم وضد الوجود البرتغالي فـي الـبلاد ، هكـذا أصبحت القوى المجاهدة الجديدة في المغرب عقبة كبيرة أمام العثمـانيين في محاولاتهم المستمرة لمساعدة الموركسيين في الأندلس .

وفي ذلك الوقت عانى المسلمون في الأنـدلس مـن أسـاليب الضـغط والتصفية، التي مارسها ضدهم الأسبان لعدة أسباب ، أهمها أن المجتمـع الموركسي المسلم يشكل وحدة اجتماعية متماسكة ، كانت مسيطرة تمامـا على الإقتصاد بفضل نشاطها ونكائها وخبرتها ، وهذا مـا أثـار عليهـا الطبقات الصناعية والمالية الجديدة ، يضاف الي هـذا العامـل الـديني الحضاري الذي عمق الخلافات وجعل التعايش بين الفريقين مستحيلا .

وعلى أثر هذا إزدادت الإجراءات التعسفية ضد المسلمين في الأندلس منذ أوائل القرن السادس عشر ، خاصة لكل ما يتصل بالإجراءات التجريدية الكاملة من الهوية والقومية والدين . وعلى ضوء ذلـك اسـتحال علـى الموركسيين الصمت ، وهذا ما يبرره إنتفاضاتهم الإقليميـة المتكـررة ، واستغاثاتهم العديدة الموجهة لحكام المسلمين .

لقد دأب العثمانيون على إرسال حملات منظمة من قبل رجال البحر في الجزائر لإنقاذ المسلمين في إسبانيا ، منذ أن ظهر آل برباروسا في الجزائر في بدايات القرن السادس عشر ، وبعد إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية ، أصبحت الجزائر ومن بعدها تونس مأوى للأندلسيين المهاجرين والفارين من إسبانيا .

لذلك كان شارلكان يعى جيداً الدور الذي يمكن أن يقوم به الموريسكيون في شمال إفريقيا ، لمهاجمة الشواطئ الإسبانية ، وإعاقة حملته الصليبية الكبرى ضد المنطقة . فعند احتلال تونس في صيف ١٥٣٥م فرض على الملك الحفصي معاهدة ينص أحد بنودها على : (ان مولاى الحسن لن يقبل في مملكته أحداً من العرب الأندلسيين (الموريسكيين) باعتبارهم رعايا جلالة الإمبراطور ، سواءً من بلنسية أو غرناطة أو أي مكان آخر في مملكته ، وأن الملك الحفصي لا يسمح لهم بالقدوم أو بالإقامة بتونس ، بل العكس من ذلك بطردهم من مملكته ويرحلهم تماماً عن طريق ضباطه ويعتبرهم أعداءً).[١٣٨]

ولقد استطاع خير الدين برباروسا في عام ١٥٢٩م فقط ، أن يوجه ٣٦ بارجة إلي السواحل الإسبانية لنقل سبعين ألف مسلم خلال سبع رحلات [١٣٩] ، والذين استقروا بعد ذلك في الجزائر وتونس ، وكان ذلك من الأسباب المباشرة لغزو تونس من قبل شارلكان عام ١٥٣٥م ، ثم توجيه حملته الكبرى بعد ذلك على الجزائر عام ١٥٤١م، حيث استطاع رجال البحر والمجاهدين من الأندلسيين وأهل الجزائر أن يدحروها.

ولقد ترددت أنباء هذه الهزيمة في إسبانيا وكان وقعها شديداً على القادة ورجال الدين، إلا أن صداها لدى الموريسكيين كان مؤثراً وبالغاً ، حيث جعلهم يتطلعون إلي النجدة من السلطان العثماني ، وبالفعل ففي أقل من

شهر فقط من هزيمة شارل الخامس أمام الجزائريين بعث مسلمو الأندلس برسالة إلي السلطان سليمان القانوني .

إعتبر محررو هذه الرسالة أن المدد المرسل إلي الجزائر (من الدولة العثمانية) هو تعزيز لشوكة المسلمين ، ولذا طالبوا السلطان بإعادة تعيين خير الدين على الجزائر ليعمل من جديد على صد العدوان الإسباني ، وإنقاذ مسلمي اسبانيا ، وهذا ما يؤكد مدى السمعة والشعبية التى كان يتمتع بها خير الدين في الربع الثانى من القرن السادس عشر (١٤٠) ، فضلاً عن رؤساء البحر المجاهدين ، الذين نراهم بعد وفاة خير الدين باشا يبذلون أقصى جهدهم لمعاونة إخوانهم في الأندلس ، وكان منهم بالطبع قلج على باشا .

ولقد اندلعت في عام ١٥٦٨م الثورة الأندلسية الكبرى ، وبدأت المقاومة المسلحة للموريسكيين ضد حكم فيليب الثاني الجائر ، الذي زاد من التضييق والإضطهاد للمسلمين ، ولقد جاءت الثورة الموريسكية في سنة تعتبر هى أسوأ سنوات حكم فيليب الثاني ، إذ كانت الثورة الهولندية على أشدها ، ومن جهة أخرى كان العثمانيون يحققون الإنتصار تلو الإنتصار، وباتوا يهددون شواطئ ممالكه في البحر المتوسط ، وفي تلك السنة أيضاً إندلعت ثورة في قطالونيا ، حيث قطعت القوات البروتستانتية الطرق البحرية إلي خليج بسقاية . ولكل هذه الأسباب قرر فيليب أن يضع للثورة الأندلسية حداً نهائياً قبل أن يستفحل أمرها ، ويستغل العثمانيون الموقف لمهاجمة صقلية والجزائر الشرقية وربما الجنوب الأندلسي ، هكذا فوض أخيه غير الشرعي دون جوان ديترتش النمساوي Don Juon Dotris للقضاء على الثورة ، وأطلق يده تماماً.(١٤١) فبدأ دون جوان العمل بقسوة، وكانت التصفية هذه المرة رهيبة .

ولقد عمل قلج على باشا كل ما يستطيع لمساعدة الثورة وإنجاحها ، فقد خصص لهم سفن تنقل لهم حاجتهم من السلاح ومدهم ببعض القادة ، وطلب من استانبول وباسترحام شديد مساعدة الأندلسيين ، وأيد الرسائل التي أرسلوها الي السلطان العثماني . على أثر هذا صدر أمرين من الديوان الهمايوني بتاريخ ١٥٦٩/٩٧٧م يطلب من قلج على باشا تقديم السلاح وإرسال الجنود لأهل الأندلس بقدر المستطاع ، ذلك لأن الديوان الهمايوني قد قرر في ذلك الوقت مهاجمة جزيرة قبرص.(١٤٢)

طلب قلج باشا من الأندلسيين توحيد جهودهم والعمل يداً واحدة ضد الأسبان ، وبغية تشتيت جهود الإسبان وإرباك قوتهم ، قرر مهاجمة وهران ثم من بعدها يتحرك إلي السواحل الإسبانية ، وبالفعل أرسل جيشاً يتألف من أربعة عشر ألف جندي مسلحين بالبنادق ، وستين ألف جندي محلي مع أعداد كبيرة من المدفعية والبارود ، كما أمر أربعين قادرغة بالرسو أمام السواحل الإسبانية بالقرب من المرية Almería وكلفها بحماية الثوار ومساعدتهم . لكن أحد رؤساء الثوار وقع بخطأ أدى إلي كشف أماكن الأسلحة قبل إعلان الثورة بيوم واحد ، وتمكن الاسبان على أثر ذلك من كشف مخازن الأسلحة الواحد بعد الآخر ، كما ألقوا القبض على بعض الثوار مما أدى الي فشل الثورة.(١٤٣)

وبدأت السلطات الإسبانية قمع الثوار وتصفيتهم بطريقة رهيبة ، وقد تطلب ذلك أكثر من سنة ، حيث انتقم الأسبان من الأقليات الاسلامية أبشع انتقام ، ومثلوا بهم ولاحقوهم في كل مكان . وقد اجتاحت الجيوش الإسبانية منطقة الثائرين وأحرقت كل شئ ، القرى والديار والبشر والمحاصيل ، ولقد استمرت الملاحقة العسكرية حتى عام ١٥٧٠م ، وقد أدى ذلك إلي التجاء آلاف المورسكيين إلي الجزائر والمغرب وباقي أنحاء الامبراطورية العثمانية ، بمساعدة قلج على وبحارة الجزائر على

الأخص، ولقد نشطت نتيجة لذلك حركة التصدي للاسبان ، حيث ساعد المورسكيون القيادات العثمانية بفضل معرفتهم اللغة القشتالية وأماكن الطرق البحرية ، لهذا فإن سياسة فيليب الثاني ملك اسبانيا أصبحت على اهتمام كبير بالساحل المغربي ، المأوى الأول للأندلسيين ، هذا فضلاً عن أن الثورة الموريسكية قد أعطت بعداً جديداً لتحرك الأسبان ، فكان عليهم القيام بنشاطات جديدة ضد العثمانيين لإنهاء نفوذهم نهائياً ، وكانت كل هذه الأحداث من الدوافع الأكيدة وراء تزعم اسبانيا والبابا الحلف المقدس، الذي سيؤدي إلي هزيمة العثمانيين هزيمة كبيرة في معركة ليبانتو Lepanto عام ١٥٧١م .

ويعد المؤرخون معركة ليبانتو عام ١٥٧١م من أهم الأحداث خلال القرن السادس عشر على الإطلاق[١٤٤] ، فقد ترتب عليها الكثير بالنسبة للنزاعات السياسية والعسكرية في البحر المتوسط شرقه وغربه ، ولم تكن معركة ليبانتو البحرية عام ١٥٧١م حدثا سياسياً طارئاً على الموقف الدولى ، وإنما كانت حدثا تراكمياً بسبب الأحداث المتتابعة والنزاعات المستمرة بين العثمانيين من جهة والدول الأوروبية من جهة أخرى .

ولقد أدت هذه النزاعات المستمرة بين الفريقين ، إلي تكوين تكتل صليبي اشتمل حتى على فرنسا ، التي كانت لها صلات قوية بالامبراطوية العثمانية على الصعيد التجاري والعسكري ، بل وعلى الصعيد الدبلوماسي خلال القرن السادس عشر . ولكن الحدث الأبرز الذي أدى إلي ذلك التحالف الصليبي الذي أعده البابا واشتركت فيه معظم الدول الصليبية ، كان إستيلاء العثمانيين على جزيرة قبرص .

علم العثمانيون أنباء عن تحرك أسطول صليبي لكنهم لم يعلموا وجهته ، لذلك كان على الأسطول العثماني الإستعداد لمواجهة قريبة ، وهكذا بدأ

الباب العالي في تجميع الأسطول العثماني الذي قال عنه المؤخون أنه كان يتراوح ما بين ١٨٠و٢٠٠ سفينة، وقد انطلق هذا الاسطول من ميناء استانبول عام ١٥٧١م حيث بدأ يجوب السواحل الشرقية ، وقد تحرك الأسطول الأوروبي البالغ حوالي ٢٠٨ سفينة من ميناء ميسينا Messina بايطاليا متأخراً ، وهكذا وصل الأسطول العثماني إلي قاعدة ليبانتو البحرية .

وعلى اثر إقتراب أسطول العدو ، إجتمع المجلس الحربي لمناقشة خطة الهجوم ، لكن على ما يبدو أن قواد الأسطول الرئيسيين هذه المرة لم يكونوا من أمراء البحر ، لذلك اقترحوا خطة مغايرة للتكتيك البحري الرئيسي الذي يتبعه أمراء البحر وعلى رأسهم قلج علي الذي عهد إليه بقيادة الجناح الأيسر للأسطول . لقد أراد أميرالات الأسطول عدم دخول هذه المعركة إلا بعد قصف وحدات العدو بمدافع القلاع بعد اقترابه من الميناء ثم تعقبه ، إلا أن قلج علي يعلم جيداً من واقع خبرته الحربية مع خير الدين ودارغوث باشا ، أن الحرب البحرية لا تكون إلا في البحر المفتوح ، حيث لا يجب إنتظار أسطول العدو حتى يهجم في الميناء مما يقوى مركزه ، لأن الأسطول العثماني في هذه الحالة لن يستطيع المناورة والإلتفاف ، إلا أنهم أصروا على موقفهم.(١٤٥)

وقد تحول الاسطول الأوروبي نحو خليج ليبانتو بقيادة دون جوان ، وكانت خطة الأوروبيين هي ضرب الحصار البحري على العثمانيين داخل الخليج ، وتقسيم الأسطول إلي ثلاثة جهات ، كما فعل العثمانيون الذين عهدوا لقلج علي باشا بقيادة الجناح الأيسر لأهميته الإستراتيجية ، مع ذلك فقد تمكن الجانب الأوروبي من إلحاق أكبر هزيمة بحرية بالعثمانيين على الإطلاق في عرض البحر المتوسط ، ولم ينج من الوحدات العثمانية كلها الا الثلاثون سفينة التي عهدت لقلج علي باشا.(١٤٦)

كانت لهذه الهزيمة القاسية التي منى بها العثمانيون في البحر المتوسط العديد من النتائج على الجانب الأوروبي ، الذي عد هذا الإنتصار انتصارا كبيراً للمسيحية ، واعتبره انطلاقة جديدة للصليبية الأوروبية في معاودة استرجاع الأراضي المسلوبة وإنهاء الدور العثماني في البحر المتوسط . إلا أنه في الحقيقة لم يكن هذا الإنتصار إلا انتصاراً معنوياً فقدت به الدولة العثمانية هيبتها الحربية ، لأن الإسبان لم يكونوا قد كسبوا ولو جولة بسيطة مع العثمانيين منذ سنوات ، وها هم ينتصرون في معركة بحرية كاملة ، مع أن هذه المعركة لم تكن لها أية نتائج مؤثرة على العثمانيين ، ولم تفقدهم إلا الأسطول الذي أعيد بناؤه في سرعة غريبة لم تتجاوز عدة أشهر .

إعادة فتح تونس :

كان لخبرة قلج على وسنان باشا الفضل الأول لإعادة قوة الاسطول العثماني لسابق عهدها في وقت قياسي ، بعد تحطمه شبه كاملا عام ١٥٧١م ، وكان الدليل الأكبر على ذلك هو تحرك الباب العالي بمنتهى السهولة في كل أرجاء الامبراطورية بعد أقل من سنتين من معركة ليبانتو، فها هو سنان باشا يتحرك أمام اليمن عام ١٥٧٣م وها هو قلج على يخضع تونس عام ١٥٧٤ .

ولقد أدى نجاح الحلف المقدس في حربه ضد العثمانيين الي جذب الأنظار والاهتمام الأوروبي عامة ، واهتمام فيليب الثاني الملك الإسباني خاصة ، والذي رأى أن الظروف سانحة لشن حرب صليبية واسعة النطاق ، تشمل أهم المراكز والقلاع والمدن الساحلية في الشمال الإفريقي ، وبالفعل فإن اعادة احتلال تونس سيكون أول رد فعل عسكري واضح قام به الاسبان خصوصا والأوروبيون عموما بعد انتصارهم في ليبانتو .

ولقد كان رأي المسئولين الاسبان منقسما بين احتلال الجزائـر وإعـادة احتلال تونس ، ولقد وقع الاختيار على تونس لسهولتها ، إلي جانـب أن السلطان الحفصي كان يطالب الاسبان مراراً بالقيام بحركة عسكرية لطرد العثمانيين واسترجاع تونس . وفي عام ١٥٧٣م تحرك دون جوان متجها نحو حلق الوادي ، حيث تمكن من دخول البلاد دون مقاومة تذكر ، ولقد أباح دون جوان لنفسه البلاد ، واستولى الجيش على الدور ، وعبث حتى بمحتويات جامع الزيتونة ، وبعد ذلك غادر البلاد متجها الي ايطاليا بعـد أن ترك بها حامية ضخمة من ثمانية آلاف رجل ، وبعد أن عين محمـداً الحفصي أميراً على البلاد ، والذي تعهـد بتقـديم المسـاعدة لمحاربـة العثمانيين الذين مازالوا يسيطرون على البلاد من الـداخل ، حيـث لـم تتجاوز السيطرة الاسبانية ضواحي تونس والمنطقة الشمالية فقـط .(١٤٧) هكذا قرر السلطان العثماني سليم الثاني تسخير كل الجهود لفتح تونس من جديد وانهاء الحكم الاسباني والموالين له إلي الأبد ، خاصة فـي حلـق الوادي الذي أدى الوجود الاسباني بها الي الكثير من الضـرر للوجـود العثماني في الشمال الافريقي ، ولم يكن قرار السلطان سليم منفـردا بـل لاقى الاجماع من مستشاريه الي جانب رؤساء البحر الذين علموا جيـدا مدى الضرر الذي لحق بالبحرية العثمانية والنفوذ العثماني مـن جـراء تواجد الاسبان بقلعة حلق الوادي .

وهكذا قام الباب العالي بارسال فرمانات إلي الحكام العثمانيين في مـدن البحر المتوسط ، مخبراً إياهم بقرار الحملة الرسمية إلي تونس ، وناشدهم بتقديم المساعدة مهما كان نوعها .

أما عن موقف إسبانيا في ذلك الوقت فقد علمت بأمر هذه الحملة ، ولقـد سعت في الحال للعمل على القيام برد فعل سريع للمحافظة على تونس ، لكنها كانت تعاني من وضع اقتصادي سئ للغاية ، بالإضافة إلي فقـدان

توازن أسطولها ، هذا الي جانب عامل الوقت الذي لم يكن في صـــالحهم فقد كانت الإدارة العثمانية حاسمة وسريعة جداً في هذا الشأن ، وعليه فقد أصبح المجال مفتوحاً للأسطول العثماني ، الذي وصل إلي تـــونس فـــي يوليو ١٥٧٤م ، وقد ركز العثمانيون كل قواهم على الضفاف الجنوبيـــة والشمالية لقلعة حلق الوادي .

كانت القيادة البرية الحقيقية لقلج على باشا ، حيث كانت خطتـــه تقضـــي بادئ الأمر القضاء نهائياً على قلعة حلق الوادي الخطيرة . وبعد حـــرب ضروس دامت أكثر من ستة أسابيع دافع فيها الجانبـــان عـــن القلعـــة ، واستعمل العثمانيون بالتعاون مع الأهالي كل الوسائل للقضاء على القلعة، التي سقطت بالفعل في يونيو ١٥٧٤م ، وقضي على الطابع التحصـــيني الإسباني بها وخربت تماما.(١٤٨)

واضطر الاسبان والأمير الحفصي الموالي لهم إلي الهـــرب والالتجـــاء للحصون ، فلحق بهم الجيش العثماني ، وتمكن سنان باشا مـــن تضـــييق الخناق على الحاميات الاسبانية حتى استسلمت للجيش العثماني ، وقبض على آخر الأمراء الحفصيين وأرسل الي القسطنطينية ، وانطوت بـــذلك صفحة الحكم الحفصي في تونس نهائيا ، بعد أن حكموا هذه الـــبلاد مـــا يقرب من ثلاثمائة وخمسين عاما.(١٤٩)

وهكذا استطاع العثمانيون إعادة فتح تونس ، والقضاء نهائيا على الحكـــم الاسباني والحفصي بها . ولما أتم سنان باشا فتح تونس أخذ ينظم شئونها ، فألحقها في البداية بولاية الجزائر ، ولقد استقر الحكم العثماني في تونس حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر عندما احتلت من قبل فرنســـا . والجدير بالذكر أن تونس أصبحت في العهـــد العثمـــاني أكبـــر مـــأوى للأندلسيين الفارين من الحكم الاسباني ، فقـــد اســـتقر بهـــا الآلاف مـــن

الموريسكيين الذين أقاموا بها عدة مدن كبرى ، وهذا ما أدى بعد ذلك الي الإرتقاء الملحوظ بمجتمع الشمال الافريقي .

ولقد ارتبطت إمارات الشمال الافريقي بإمارة الجزائر ، لكن لـم يسـتمر ذلك طويلا حيث انفصلت إمارتي طرابلس وتونس بعد ذلك ، وأصـبحتا تدار بشكل مستقل كل واحدة عن الأخرى ، وعين على كل منهـا أميـر أمراء ربط باستانبول مباشرة ، وكان ذلك عام ١٥٧٧م .

هوامش الفصل الرابع

١- بيتر شوجر ، أوروبا العثمانية ، ترجمة : د. عاصم الدسوقي ، دار الثقافة الجديدة ، الطبعة الأولى ١٩٩٨م ، ص ٨٦

٢- **شارل الخامس (شارلكان) :** : هو شارل هابسبورج ملك اسبانيا وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وهو حفيد الملك فردناندو موحد اسبانيا ، ولد عام ١٥٠٠م ، تم تتويجه عام ١٥٢٠م ، كان شارلكان ثمرة زواج سياسي حيث تزوج فيليب هابسبورج ابن وولي عهد ماكسيمليان الأول أرشيدوق النمسا من خوانا تراستامارا ابنة ملكي إسبانيا الكاثوليكيين فرديناند وإيزابيلا، وقد نتج عن هذا الزواج شارل الخامس الذي ورث أملاك العائلتين في كل من إسبانيا والنمسا ، وعندما أصبح إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة بمباركة البابا عام ١٥٢٠م ، حكم إمبراطورية لم يشهد لها مثيل في اتساعها ، دخل تحت حكمه كل من ايطاليا والمانيا والنمسا واسبانيا وهولندا والأراضي المنخفضة وكثير من جزر البحر المتوسط ، بالإضافة الي ممتلكات اسبانيا فيما وراء البحار التي استطاع الإستيلاء عليها مثل فلوريدا وكوبا والمكسيك وجواتيمالا وهندوراس وبيرو وشيلي . وأما أعدائه فكان على رأسهم السلطان العثماني سليمان القانوني ، تنازل عن العرش عام ١٥٥٦ م ، توفى عام ١٥٥٨ م.

٣- المرجع السابق ، أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، الجزء الأول ، ص ٢٦٢

٤- رودس **Rhodes** : هى جزيرة صغيرة (من الجزر اليونانية حالياً)، تقع على بعد ١٨كم جنوب سواحل آسيا الصغرى ، وهى

تعد أبعد الجزر اليونانية عن اليونان ، تتميز بموقع إستراتيجي هام حيث تشرف على مدخل بحر إيجه ، يبلغ طول الجزيرة حوالي ٧٧كم ، ومساحتها حوالي ١٤١٢كم مربع .

٥- البلاذي ، فتوح البلدان ، دار الكتب العلمية - بيروت ، الطبعة الأولى ، ص٢٣٧

٦- فرسان القديس يوحنا **Hospitales of saint John** : بدأت هذه المؤسسة حياتها كمنظمة خيرية دينية ، وكان لها في مدينة القدس قبل الحروب الصليبية مأوى لمساعدة المحتاجين ، خصوصاً الحجاج المسيحيين الذين يزورون فلسطين ، وعندما نشبت الحروب الصليبية تحولت هذه المنظمة إلي منظمة عسكرية تحت إسم (الإسبتارية) ، تم طردهم نهائياً من الشام عام ١٢٩١م ، انظر : جوناثان سميث ، الإسبتارية : فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس وقبرص ١٠٥٠ - ١٣١٠م ، ترجمة : صبحي الجابي ، دمشق ١٩٨٩م ص ٤٦ : ٦٢

٧- عمر محمد البارونى ، الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس ، مطبعة ماجي - طرابلس ١٩٥٣م ، ص ٧٥

٨- عايض بن حازم الروقي ، جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلي الحرمين الشريفين ، مقال بالمجلة التاريخية المصرية، المجلد ٤٢ ، ٢٠٠٤ م ، ص ٥٥١

٩- المرجع السابق ، عبد العزيز محمود عبد الدايم ، الصراع بين القوى المسيحية ودولة المماليك الجراكسة ، ص ٢١٢

١٠- المرجع السابق ، فاروق أباظة ، أثر تحول التجارة الخ ، ص ٧٢

١١- نص هذه الرسالة : (انه بأمرنا نحيطكم علماً بأنه قررنا أن نتسلم هذه الجزيرة لما ينالنا من الضرر والأعمال المشينة في كل يوم ، وإذا سلمتم عن طواعية هذه القلعة إلي جلالتنا فإننا نقسم بالله خالق الأرض والسماء ونقسم بمرسل نبينا محمد أن كل من على الجزيرة صغاراً وكباراً لا خوف ولا أذى ولا ضرر من قبل جلالتنا . وإذا أنتم أصررتم على عدم الإستسلام فإننا نقلب عليكم القلعة رأساً على عقب ونعذبكم ونقتلكم شر قتله ، كما فعلنا مع كثيرين، وكونوا على يقين من ذلك) انظر : أندريه كلو ، سليمان القانوني ، تعريب : البشير سلامة ، دار الجيل - بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩١م ، ص ٨٤

١٢- خلف الوزيناني ، الفتح العثماني لجزيرة رودس ، جامعة أم القرى - مكة المكرمة ، عام ١٩٩٧م ، ص ٥٨

١٣- العباسي ، منح رب البرية في فتح رودس الأبية ، تحقيق : د. فيصل عبد الله الكندي ، حوليات كلية الآداب - جامعة الكويت ، الحولية الثامنة عشرة عام ١٩٩٨م ، ص ٦٦

١٤- المرجع السابق ، خلف الوزيناني ، الفتح العثماني الخ ، ص ٨٢

١٥- المرجع السابق ، العباسي ، منح رب البرية الخ ، ص ٦٧،٦٨

١٦- دخل السلطان سليمان مدينة رودس في ٣٠ ديسمبر ١٥٢٢م ، وجاءت بعده جموع الجيش لدخول المدينة ، وصدرت الأوامر العليا بتجهيز الكنيسة لصلاة الجمعة ، ورحل فرسان القديس يوحنا عن الجزيرة في ٣ يناير ١٥٢٣م ، وقد شرع العثمانيون بعد دخول المدينة في بناء المسجد الجامع ، الذي لا يزال موجوداً بها حتى اليوم .

١٧- **المجر Hungary** : كانت مملكة كبيرة في وسط أوروبا ، المجر الحالية جزء منها ، فكانت المجر الكبـرى تمتـد حتـى البحـر الأدرياتي ، وقد تكونت من اتحاد المجر وبوهيميا Bohemia أى تشيكوسلوفاكياCzechoslovakia ، وهى تشمل عدا ذلك كافـة الأقطار الشمالية ليوغوسلافياYugoslavia السـابقة (سـلوفينيا Slovenia ، كرواتيـا Croatia ، أكلافونيـا Aclafonia ، وترانسلفانيا Transilvania وهى جزء من رومانيا الحاليـة) ، ومع أن المجريين هم العنصر المسيطر إلا أنهم كانوا يسيطرون على الرعايا السلاف (تشيك ، سلوفاك ، سـلوفيين ، كـروات) وحتى ألمانيا ورومانيا والصرب .

١٨- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوى ، الدولـة العثمانيـة دولـة إسلامية الخ ، ص ٧٠٦ ، ٧٠٧. في هذه المعاهدة أعفى التجـار الفرنسيون من الخضوع للقانون العثماني ، وطبق عليهم القـانون الفرنسي تحت إشراف ممثل فرنسا في الأستانة ، كمـا تمتعـوا برسوم جمركية تقل عما كان يدفعه رعايا الدول الأخرى ، بشرط أن يتمتع رعايا السلطان بالمثـل . ومـنح الفرنسـيون الحريـة التجارية المطلقة ، وحرية الملاحة في كل المـوانئ العثمانيـة ، ونصت المعاهدة على ألا تبحر أي سـفينة أجنبيـة فـي الميـاه العثمانية إلا وهى ترفع العلم الفرنسي .

١٩- المرجع السابق ، أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التـاريخ العثماني ، ص ٩٥ ، ٩٦

٢٠- تذكر بعض المصادر أن السلطان سليمان قد رفع الروح المعنويـة للجند قبل المعركة مباشرة عن طريق خطبة بليغة وقصيرة قـال فيها (إن روح رسول الله تنظر إليكم) فبكى وأبكى الجنود مـن وقع الكلمات .

٢١- المرجع السابق ، أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانيـــة ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١

٢٢- المرجع السابق ، خليل إينالجيك ، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلي الإنحدار ، ص ٥٨

٢٣- المرجع السابق ، أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانيـــة ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣

٢٤- المرجع السابق ، ص ٢٧٣

٢٥- المرجع السابق ، خليل إينالجيك ، تاريخ الدولة العثمانيـــة الـــخ ، ص ٥٩

٢٦- **أندريا دوريا :** هو قائد الأساطيل الإسبانية ، ولد في مدينة جنـــوة الإيطالية ، تعلم فن الحرب والمغامرة البحرية ، عندما بلغ ســـن الأربعين إلتحق بالبحرية وأظهر براعة فائقـــة ، أصـــبح قائـــداً للأسطول الجنوي عام ١٥١٣م ، ثم قرر الإلتحـــاق بالأســـطول الفرنسي ، بعدها عاد مرة أخرى إلي إيطاليـــا وعمـــل أميـــرالاً بالبحرية ، ثم أصبح قائداً للأساطيل الإسبانية ، قـــاد الأســـطول الإسباني في عدة مواجهات مع الأســـاطيل العثمانيـــة ، يعتبـــره المؤرخون من أفضل القادة البحريين وأمهرهم في التاريخ ، توفى عام ١٥٦٠م . انظر : المرجع السابق ، عزيز ألتـــر ، الأتـــراك العثمانيون الخ ، هامش ١ ، ص ٩٤

٢٧- المرجع السابق ، أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٧٥

٢٨- المرجع الســـابق ، بســـام العســـيلي ، خيـــر الـــدين بربـــروس ، ص ١٢٨،١٢٧

٢٩- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوي ، الدولـــة العثمانيـــة دولـــة إسلامية الخ ، ص ٨٨٨ ، ص ٨٨٩ . وانظر : أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية،ص٢٢٧

٣٠- انظـر تفاصيـل معركـة بـروزة فـي المراجـع التاليـة :

Cook,M.A,A History of the Ottoman empire to 1730, Cambridge university press

Wolf .John, The Barbary coast : Algeria under the turks,W.W.Norton,1979 .

٣١- المرجع السابق ، أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانيـة ، ص ٢٧٩ ، ٢٨٢

٣٢- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوي ، الدولـة العثمانيـة الـخ ، ص ٨٩٢

٣٣- المرجع السابق ، ايرينا بيتروسبان ، الإنكشاريون في الإمبراطورية العثمانية ، ص ١٥٦

٣٤- كانت استركون مركزاً دينياً للمجر ، يقيم فيه رئيس أساقفة المجـر الكاثوليك ، وكانت القاعدة أنه يتم تحويل الكنائس الكبـرى إلـي مساجد في المدن التى لا تستسلم من تلقاء نفسها وتفتح بـالقوة ، لكن السلطان سليمان مراعاة لشعور المجريين ، لم يحـول هـذه الكاتدرائية إلي مسجد ، وأمر بتحويل كنيسة أصغر منها ، فضلا عن أنه لم يتم المساس بكنوزها الذهبية والماسية الثمينة .

٣٥- المرجغ السابق ، خليل اينالجيك ، تاريخ الدولة العثمانيـة الـخ ، ص ٦٠

٣٦- المرجع السابق ، أوزتونا ، تاريخ الدولـة العثمانيـة ، ص٢٨٣ ، ٢٨٤

٣٧- المرجع السابق ، أحمد كونـدز ، الدولـة العثمانيـة المجهولـة ، ص ٢٣٩

٣٨- المرجع السابق ، اينالجيك ، ص ٦٠

٣٩- يتحدث المؤرخون عن فضل كبير للسلطان سليمان في إظهار المذهب البروتستانتي والإعتراف به رسمياً من قبل إسبانيا الكاثوليكية ، لقد أرغم الضغط العثماني على الجبهة الأوروبية بين عامي ١٥٢١ - ١٥٥٥م الهابسبورج على تقديم تنازلات للبروتستانت ، خاصة بعد مساندة الدولة العثمانية لهم ، فقد أرسل السلطان سليمان رسالة للأمراء البروتستانت يخبرهم فيها بأنهم أصبحوا قريبين للمسلمين ، بعد تخليهم عن الأوثان وبعد تمردهم على البابا ، ومنذ ذلك الحين أصبحت حماية اللوثريين والبروتستانت ومساعدتهم ضد الكاثوليك حجر الزاوية للسياسة العثمانية في أوروبا ، أدت إلي إضعاف هابسبورج وأحدثت أيضاً تغيرات سياسية كبيرة في أوروبا ، وهذا ما أدى إلي عرقلة تنظيم الحملات الصليبية ضد المسلمين ، وأصبحت المجر في ظل الحكم العثماني مأوى وقلعة حصينة للبروتستانت .

٤٠- المرجع السابق ، أندريه جوليان ، تاريخ إفريقيا الشمالية ، ص ٣٣٤

٤١- جلال يحيى ، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر ، المكتب الجامعى الحديث ، الإسكندرية ، ص ٩٥

٤٢- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص ٧٦ : ٧٨

٤٣- Diego Telles Alarcia, Elpapel de norte de Africa en la politica exterior hispana (XV – XVI) Tiempos Modernos, 2000, P.10;13

٤٤- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص ٧٨ ، ٧٩

٤٥- المرجع السابق ، ص ٨٢ : ٨٤

٤٦- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثماينة الخ ، ص ٩١٣

٤٧- **قادرغة** : نوع من السفن الحربية المقاتلة متوسطة الحجم ذات المجاديف ، عدد المجدفين فيها\١٩٦ ، عدد المقاتلين ١٠٠ ، كانت من أفضل السفن العثمانية نتائج في المعارك البحرية ، فهى سريعة الإلتفاف في المناورات القصيرة ، وبها عدد مناسب من المقاتلين .

٤٨- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية الخ ، ص ٩١٥ ، ٩١٦

٤٩- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوى ، نقلا عن : محمد خير فارس ، تاريخ الجزائر الحديث ص ٣٤

٥٠- المرجع السابق ، جوليان ، تاريخ إفريقيا الشمالية ، ص ٣٣٠ ، ٣٣١

٥١- المرجع السابق ، بسام العسيلي ، خير الدين بربروس ، ص ١٢٩

٥٢- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية الخ ، ص٦١٧

٥٣- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص ١١٨

٥٤- عبد الجليل التميمي ، رسالة من مسلمي غرناطة إلي السلطان سليمان القانوني عام ١٥٤١م ، مقال في المجلة التاريخية عدد ٣ ، يناير ١٩٧٥م ، ص ٤٠ ، ٤١

٥٥- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوي ، ص ٩١٨ ، ٩١٩

٥٦- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون ، ص ١٦٠

٥٧- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوي ، ص ٩١٩ ، ٩٢٠

٥٨- المرجع السابق ، شوقي عطا الله الجمل ، المغرب الكبير الخ ، ص ٨٨ ، ٨٩

٥٩- **دارغوث باشا** : للريس دارغوث مكانة كبيرة في تاريخ طرابلس الغرب خاصة والشمال الإفريقي عامة ، اشتغل منذ صباه مساعداً ومرشداً ومدفعياً في البحر ، حتى إذا حل عام ١٥٠٥م أصبح بحاراً ذو خبرة وتجارب، ويظهر من هذا التاريخ أن دارغوث زاول الملاحة والقرصنة قبل الاخوان برباروسا ، ولقد عمل لهما مساعداً وزوج ابنته لحسن بن خير الدين ، استشهد أثناء حصار مالطة عام ١٥٦٥م .

٦٠- ممدوح حسين / شاكر مصطفى ، الحروب الصليبية في الشمال الإفريقي وأثرها الحضاري ، دار عمار بالأردن ، الطبعة الأولى ١٩٩٨م ، ص ١٨

٦١- المرجع السابق ، ص ١٨

٦٢- المرجع السابق ، ص ٥٠٢

٦٣- عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية لدراسة العلاقات العثمانية – المغربية في القرن السادس عشر ، مقال بالمجلة التاريخية المغربية – تونس، العدد ٢٩ – ٣٠ يوليو ١٩٨٣م ، ص ٧٤

٦٤- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ (طرابلس الغرب) ص ٢٥

٦٥- المرجع السابق ، عبد الجليل التميي ، رؤية منهجية الخ ، ص ٧٥

٦٦- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ (طرابلس الغرب) ، ص ٣٧ ، ٣٨

٦٧- المرجع السابق ، عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية الخ ، ص ٧٦

٦٨- المرجع السابق ، ص ٧٦

٦٩- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، (طرابلس الغرب) ، ص ٤٥ ، ٤٦

٧٠- المرجع السابق ، عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية الخ ، ص ٧٧

٧١- **قلج علي باشا** : من القيادات البحرية المتفردة ، تصر المراجع الأوروبية على أصله المسيحي ، بينما تقر المراجع التركية أنه عثماني المولد، إلتحق بخدمة الأسطول وتدرج في مناصبه ، إشترك مع دارغوث باشا في صد حملة شارلكان على جزيرة جربة بتونس ، ثم رقى إلي منصب والي طرابلس ثم والي الجزائر ، إشترك في معركة ليبانتو البحرية عام ١٥٧١م ، رقى إلي منصب قبودان باشا نتيجة لبطواته في المعركة ، ظل يشغل هذا المنصب طيلة خمسة عشر عاماً حتى توفى فجأة في مسجده باستانبول عام ١٥٨٧م . انظر : المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية الخ ، ص ٩٢٣ ، ٩٢٤

٧٢- المرجع السابق ، رؤية منهجية ، ص ٨٠ ، ٨١

٧٣- **برج الرؤوس** : يطلق عليه أيضاً برج الجماجم ، كلف دارغوث باشا فرقة من الجيش بجمع رؤوس القتلى في معركة جربة ، ثم أمر بتشييد برجاً ضخماً على ساحل البحر بالقرب من البرج الكبير ليكون ذكرى وشاهداً لما حدث في هذه المعركة ، كان هذا البرج على شكل هرم قطره السفلي يساوي ١٣٠ قدماً ، وارتفاعه حوالي ٣٠قدماً ، وظل هذا البرج قائماً حتى عام ١٨٤٨م ، فبعد أن دخلت فرنسا الجزائر في القرن التاسع عشر ، أجبرت باي تونس على اثر معاهدة نص أحد بنودها السرية على تدمير برج الرؤوس .

٧٤- المرجع السابق ، عبد الجليل التميمى ، رؤية منهجيـــة ، ص ٨٤ ، ٨٥

٧٥- مالطة Malta : هى جزيرة أرخبيلية ذات موقع استراتيجي فـــي البحر المتوسط ، حيث تقع في منتصفه ، شمال ليبيـا وجنـــوب ايطاليا ، مساحتها حوالي ٢٦٤ كم مربع ، وهى الآن جمهورية مالطة ، وعاصمتها فاليتا Valletta

٧٦- المرجع السابق ، عايض الروقي ، جهود الدولة العثمانيــة الـــخ ، ص٥٥٦

٧٧- المرجع السابق ، عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية الخ ، ص ٨٧

٧٨- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص ٥١٨

٧٩- انظر حصار مالطة : ألتـــر ، الأتـــراك العثمـــانيون ص ٥١٨ ، أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣١٩

٨٠- لقد استمر الهجوم العام في محاولة اقتحام مالطـــة حـــوالي ثمـــان ساعات بواسطة ٢٢ ألف جندي دفعة والحدة ، استشـــهد خلالهـــا ستة آلاف عثماني ، وقد رميت الجزيرة خـــلال مـــدة الحصـــار بحوالي ١٨٠ ألف طلقة مدفع ، لكن بسالة المقاومين وقلة المؤن وطول مدة الحصار وقطع الإمدادات ، كان سبباً في فشـــل هـــذا الحصار ، ولقد أطلق على الموقع الذي استشهد فيه دارغوث باشا اسم (موقع دارغوث) Dragut Point

٨١- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون ، ص ٨٩ ، ٩٠

٨٢- المرجع السابق ، محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولـــة الصـــفوية ، ص٨٥

٨٣- المرجع السابق ، محمد فريد ، تاريخ الدولـــة العليـــة العثمانيـــة ، ص ٢٢٢

٨٤- محمود شاكر ، التاريخ الإسلامي ، الجزء ٢١ ، التاريخ المعاصر : المسلمون في الإمبراطورية الروسية ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الثانية ١٩٩٤م ، ص ٥٨

٨٥- المرجع السابق ، طقوش ، تاريخ الدولة الصفوية ، ص ٩٤

٨٦- المرجع السابق ، محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية ، ص ٢٢٢

٨٧- المرجع السابق ، أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣٤٠ ، ٣٤١

٨٨- المرجع السابق ، طقوش ، تاريخ الدولة الصفوية ، ص ٩٥

٨٩- المرجع السابق ، أوزتونا ، ص ٣٤٣

٩٠- المرجع السابق ، محمد فريد ، ص ٢٤٠

٩١- المرجع السابق ، أوزتونا ، ص ٣٤٣ ، ٣٤٦

٩٢- المرجع السابق ، ص ٣٤٦

٩٣- المرجع السابق ، طقوش ، ص ١٠٢

٩٤- المرجع السابق ، أوزتونا ، ص ٣٤٨

٩٥- المرجع السابق ، العيدروس ، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر ، ص ٢٢

٩٦- المرجع السابق ، طقوش ، ص ٩٥ ، ٩٦

٩٧- المرجع السابق ، اسماعيل ياغي ، العالم العربي في التاريخ الحديث ، ص ٤٢

٩٨- فاروق عثمان أباظة ، الحكم العثماني في اليمن ، هيئة الكتاب ١٩٨٦م، ص ٢٢

٩٩- محمد البسليطي ، الصراع الدولي في البحر الأحمر : الدولة العثمانية والأئمة في تاريخ اليمن الحديث ، المنتدى الجامعي للنشر ، صنعاء ، عام ٢٠٠٢م ، ص ٤٠

١٠٠- المرجع السابق ، فاروق أباظة ، الحكم العثماني في اليمن ، ص ٢٢

١٠١- فالح حنظل ، العرب والبرتغال في التاريخ ، منشورات المجمع الثقافي- أبو ظبي ، عام ١٩٩٧م ، ص ٣٣٤

١٠٢- محمد عبد اللطيف البحراوي ، فتح العثمانيين عدن ، دار التراث – القاهرة ١٩٧٩م ، ص ١٥٤ ، ١٥٥

١٠٣- حسن صالح شهاب ، البحرية العثمانية ومهمة التصدي للمخطط البرتغالي في البحر الأحمر والخليج العربي ، بحث في ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية عام ١٩٨٨م ، بعنوان : الصلات التاريخية بين الخليج العربي والدولة العثمانية ، مركز الدراسات والوثائق – الإمارات ، ص ٩٣

١٠٤- **سواكن** : هى مدينة تجارية هامة ، تقع على الساحل الغربي للبحر الأحمر ، وهى من مدن السودان الحالية ، ولقد ضمت سواكن لولاية الحجاز العثمانية في عهد السلطان سليم .

١٠٥- **مصوع** : هى إحدى موانئ الساحل الغربي للبحر الأحمر ، وهى من مدن أريتريا الحالية ، إحتل البرتغاليون مصوع في مستهل القرن السادس عشر واضطهدوا سكانها المسلمين ، واعتدوا على مقدساتهم ، إذ حول الأب الفاريز مسجد مصوع إلي كنيسة لصالح البرتغاليين ، وقد رفض أمير مصوع التعامل مع الغزاة ، وطلب الحماية العثمانية .

١٠٦- المرجع السابق ، فاروق أباظة ، الحكم العثماني في اليمن ، ص ٢٦

١٠٧- **محيي الدين بيري باشا :** هو قائد بحري عثماني مخضرم ، أصبح قبطاناً عام ١٥٠٠، أعظم أعماله على الإطلاق هو كتابه البحرية (بحرية ودنيا خريطة سي) الذي رسمت فيه لأول مرة خريطة العالم بدقة متناهية بما في ذلك العالم الجديد ، باشر مهنته كقائداً من ضمن قادة الأسطول العثماني ، متنقلاً بين الهند والبحر الأحمر والخليج العربي ، كان له عظيم الأثر على البحرية العثمانية بوجه عام ، تم إعدامه عن طريق وشاية عام ١٥٥٢م وهو يبلغ من العمر ثمانين عاماً .

١٠٨- المرجع السابق ، فاروق أباظة ، أثر تحول التجارة الخ ، ص ١٢٨:١٣٠

١٠٩- المرجع السابق ، أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٣٣١

١١٠- محمد محمود السروجي ، المقاومة العربية الإسلامية في الخليج العربي ، بحث ضمن بحوث ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية عام ١٩٨٨م، بعنوان : الصلات التاريخية بين الخليج العربي والدولة العثمانية ،ص٢٤٠

١١١- المرجع السابق ، حسن شهاب ، البحرية العثمانية الخ ، ص ٩٥

١١٢- فاتح حنظل ، معارك البحرية العثمانية ضد البحرية البرتغالية في الخليج العربي ، مجلة الوثيقة ، العدد السابع عشر عام ١٩٩٠م ، ص ٣٥

١١٣- المرجع السابق ، أوزتونا ، ص ٣٣٣

١١٤- المرجع السابق ، حسن شهاب ، البحرية العثمانية الخ ، ص ١٠٩

١١٥- المرجع السابق ، محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية ، ص ٢٥٤

١١٦- المرجع السابق ، فاروق أباظة ، الحكم العثماني في اليمن ، ص ٢٦

١١٧- المرجع السابق ، أوزتونا ، ص ٣٦٢

١١٨- المرجع السابق ، أثر تحول التجارة الخ ، ص ١٢٩ ، ١٣٠

١١٩- المرجع السابق ، أوزتونا ، ص ٣٦٥

١٢٠- المرجع السابق ، محمود شاكر ، المسلمون في الإمبراطورية الروسية، ص ٥٧

١٢١- المرجع السابق ، نصر الله فلسفي ، إيران وعلاقاتها الخارجية ، ص٢٤

١٢٢- المرجع السابق ، خليل اينالجيك ، ص ٦٣

١٢٣- أقيمت فيما بعد مدينة بطرسبرج أو ستالينجراد Volgograd في الموقع بين نهري الفولجا والدون ، ولقد استطاع الروس حفر قناة تربط بينهما وربط البحرين عام ١٩٥٢م .

١٢٤- المرجع السابق ، ص ٢٦٧

١٢٥- المرجع السابق ، اينالجيك ، ص ٦٥

١٢٦- بيترو أديوري ، قبرص والحروب الصليبية ، دار الملتقى للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٩٧م ، ص ٥

١٢٧- المرجع السابق ، عبد العزيز محمود عبد الدايم ، الصراع بين القوى المسيحية ودولة المماليك الجراكسة الخ ، ص ٢١٢

١٢٨- أحمد عتمان ، تاريخ قبرص ، القاهرة عام ١٩٩٧م ، ص ١٥٣

١٢٩- المرجع السابق ، عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية ، ص ٩٧

١٣٠- أكمل الدين إحسان أوغلى وآخرون ، الدولـة العثمانيـة تـاريخ وحضارة، ترجمة : صالح سـعداوي ، الجـزء الأول ، مركـز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية – اسـتانبول ، عـام ١٩٩٩م ، ص ٤٤

١٣١- المرجع السابق ، أحمد عتمان ، تاريخ قبرص ، ص ١٦١

١٣٢- المرجع السابق ، أوزتونا ، ص ٣٧٠

١٣٣- المرجع السابق ، عبد الجليل التميمى ، رؤية منهجية ، ص ٩٨

١٣٤- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص ٢٢٣

١٣٥- **السعديون** : هم من أسرة عربية الأصل كما هو مؤكد لدى مـن أرخ لهم ، انتقلوا من ينبع بالحجاز إلي درعة بجنوب المغـرب ، استوطنوا قرية (تاكمادرت) وذلك في المائة السادسة من الهجرة ، وكان الإعتقاد السائد لدى المغاربة أنهم مـن الأشـراف ، لكـن خصومهم من بقايا الوطاسيين والمرنيين وأنصارهم كانوا يطعنون في صحة نسبهم الشريف ، معتمدين في ذلك على البتـر الـذي لوحظ في عمود نسبهم كما ذكر ابن القاضي . وقد ظل السعديون حتى مطلع القرن العاشر الهجرى / السـادس عشـر المـيلادي يحيون في المغرب حياة بسيطة دينية وعلمية ، ولم يبرزوا على المسرح السياسي إلا حين اشتدت وطأة البرتغاليين علـى سـكان الجنوب الغربي ، ولم يتدخل الوطاسيين لحمايتهم ، ومـن هنـا ظهروا كقادة لحركة تحرير ، لهذا التف حولهم الناس وبـايعتهم القبائل . (انظر: ابراهيم شحاتة حسن ، أطوار العلاقات المغربية العثمانية ،الاسكندرية ١٩٨١م) .

١٣٦- جلال يحيى ، المغرب العربي والإستعمار ، المكتبة الثقافية ، رقم ١٦٤ ، الدار المصرية للتأليف والنشر ، نوفمبر ١٩٦٦م ، ص ١٦

١٣٧- المرجع السابق ، جلال يحيى ، تاريخ المغرب الكبير الخ ، ص ٣٥

١٣٨- المرجع السابق ، محمد رزوق ، الأندلسيون وهجراتهم إلي المغرب ، ص ٨٤

١٣٩- المرجع السابق ، عبد الجليل التميمي ، رسالة من مسلمي غرناطة الخ، مقالة بالمجلة التاريخية المغربية ، عدد ٣ ، يناير ١٩٧٥م ، ص ٣٩

١٤٠- المرجع السابق ، ص ٤١ ، ومما ورد بالرسالة : (وخذلنا جيراننا وإخواننا ببلاد المغرب من أهل الإيمان ، وقد كان بجوارنا الوزير المكرم ، المجاهد في سبيل الله خير الدين وناصر الدين وسيف الله على الكافرين ، علم بأحوالنا ، وما نجده من عظيم أهوالنا لما كان بالجزائر ، ....، فاستغثنا به فأغاثنا وكان سبباً في خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المتمردين ونقلهم إلي أرض الإسلام) ص ٤٥

١٤١- المرجع السابق ، عادل بشتاوي ، الأندلسيون المواركة ، ص ١٥٠ : ١٥٣

١٤٢- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص ٢٢٦

١٤٣- المرجع السابق ، ص ٢٢٦

١٤٤- عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية ، ص ٩٦

١٤٥- المرجع السابق ، أوزتونا ، ص ٣٧٣

١٤٦- المرجع السابق ، عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية ، ص ٩٩

١٤٧- المرجع السابق ، ص ١٠٣ ، ١٠٤

١٤٨- المرجع السابق ، ص ١٠٥

١٤٩- المرجع السابق ، شرقي عطا الله الجمل ، المغرب الكبير الــخ ، ص ١٠٨

التعقيب

بنهاية القرن السادس عشر تشكلت الحدود شبه النهائية للدولة العثمانية ، وبدأ عهد جديد هو عهد الإستقرار لمعظم الولايات الواقعة تحت الحكم العثماني ، وبدا أن الدولة قد بدأت في البناء على كافة الأصعدة ، وإذا كان القرن السادس عشر هو ذروة القوة العسكرية والسياسية للإمبراطورية ، فإن القرن السابع عشر سوف يشهد ذروة الحضارة والبناء .

ولقد استطاعت الدولة العثمانية تحقيق الكثير من أهدافها عن طريق استراتيجياتها الأساسية التى اتبعتها منذ نشأتها ، لقد استطاعت الدولة أن تتوسع في أراض أوروبية لم يدخلها الإسلام من قبل عن طريق الجهاد المستمر ، فنشرت بذلك الإسلام في كثير من بلدان شرق أوروبا ، وصبغت تلك البلدان بالصبغة الإسلامية المميزة ، ومع خروج الدولة العثمانية من البلقان أصبحت معظم هذه البلدان مسرحاً للصراعات الطائفية والعرقية ، مما يشير إلي الدور الهام الذي لعبته الدولة العثمانية في الأمان والإستقرار والإزدهار لبلدان شرق أوروبا .

أما في الشرق الأدنى ، وعلى الأخص الأقاليم العربية ، فقد استطاعت الدولة أن توقف الأطماع الصليبية والإستعمار الخارجي ، الذي كان يوشك أن يلتهم الأراضي العربية ، بل وربما استطاع أن يفعل بها ما فعل بالأندلس وأهلها ، فلقد توحدت الإيالات المغربية الثلاثة ، الجزائر وتونس وطرابلس الغرب تحت الحكم العثماني لتقف أمام الغزو الصليبي ، وتنهى تماماً النفوذ الإسباني والبرتغالي في بلدان المغرب العربي .

وفي المشرق العربي ، استطاعت الدولة أن توقف المد الشيعى ، والتوسع الإيراني الذي اتجه إلي الناحية العربية ، خاصة الأقاليم الشرقية مثل العراق التى عانت من ويلات الإضطهاد الصفوي ، واتجهت الدولة بعد

ذلك إلي الخليج العربي والمحيط الهندي والبحر الأحمر حيث الوجود البرتغالي ، واستطاعت الحد من نفوذه ، وطرده من البحر الأحمر وشرق إفريقيا ، ومن ثم إحياء الطريق التجاري القديم على حساب الإحتكار البرتغالي للتجارة الشرقية .

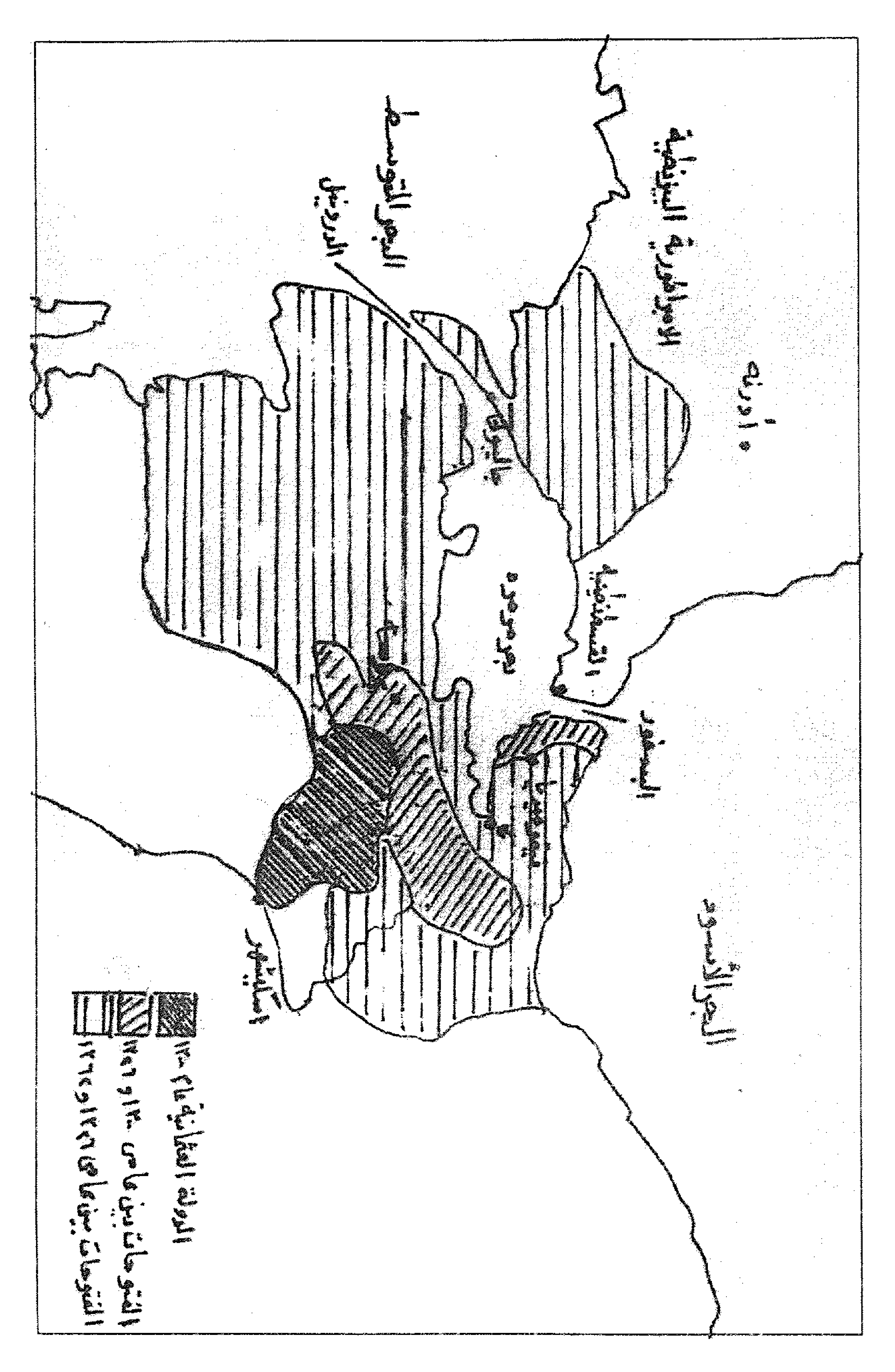
هكذا بدأت المدن العربية فضلاً عن باقي المدن العثمانية في أوروبا وآسيا، تشهد ازدهاراً ملحوظاً إبتداءً من النصف الثاني من القرن السادس عشر ، بعد أن استقرت الفتوحات العثمانية ، وتكون الشكل النهائي للإمبراطورية ، فيمكننا أن نرصد الإزدهار الواضح للمراكز العثمانية عن طريق الأرقام ومقارنتها بحالة تلك المراكز قبل الفتح العثماني .

فقد تضاعفت عدد المراكز التجارية فضلاً عن تباين توسعات القطاعات الإقتصادية المركزية ، ففي تونس مثلاً : منذ بداية القرن السابع عشر إزدادت مساحة المنطقة الواقعة حول جامع الزيتونة بزيادة تقدر بحوالي ٦٠% ، واتسعت مدينة حلب منذ القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر بنسبة تزيد عن ١٠٠% ، أما بالنسبة للقاهرة فقد ذكر المقريزي أنه كان يوجد بالقاهرة في النصف الأول من القرن الخامس عشر ٨٧ سوقاً ، و٥٧ قيسارية (خان وفندق ووكالة) ، أما في العصر العثماني فيمكن الإستدلال على ١٤٥ سوق و٣٦٠ قيسارية ، ويتضح من المقارنة أن التقدم كان باهراً ، خاصة بالنسبة للقيساريات التى هي أساس التجارة الضخمة وتعتبر مؤشراً هاماً للنشاط الإقتصادي في المدينة .

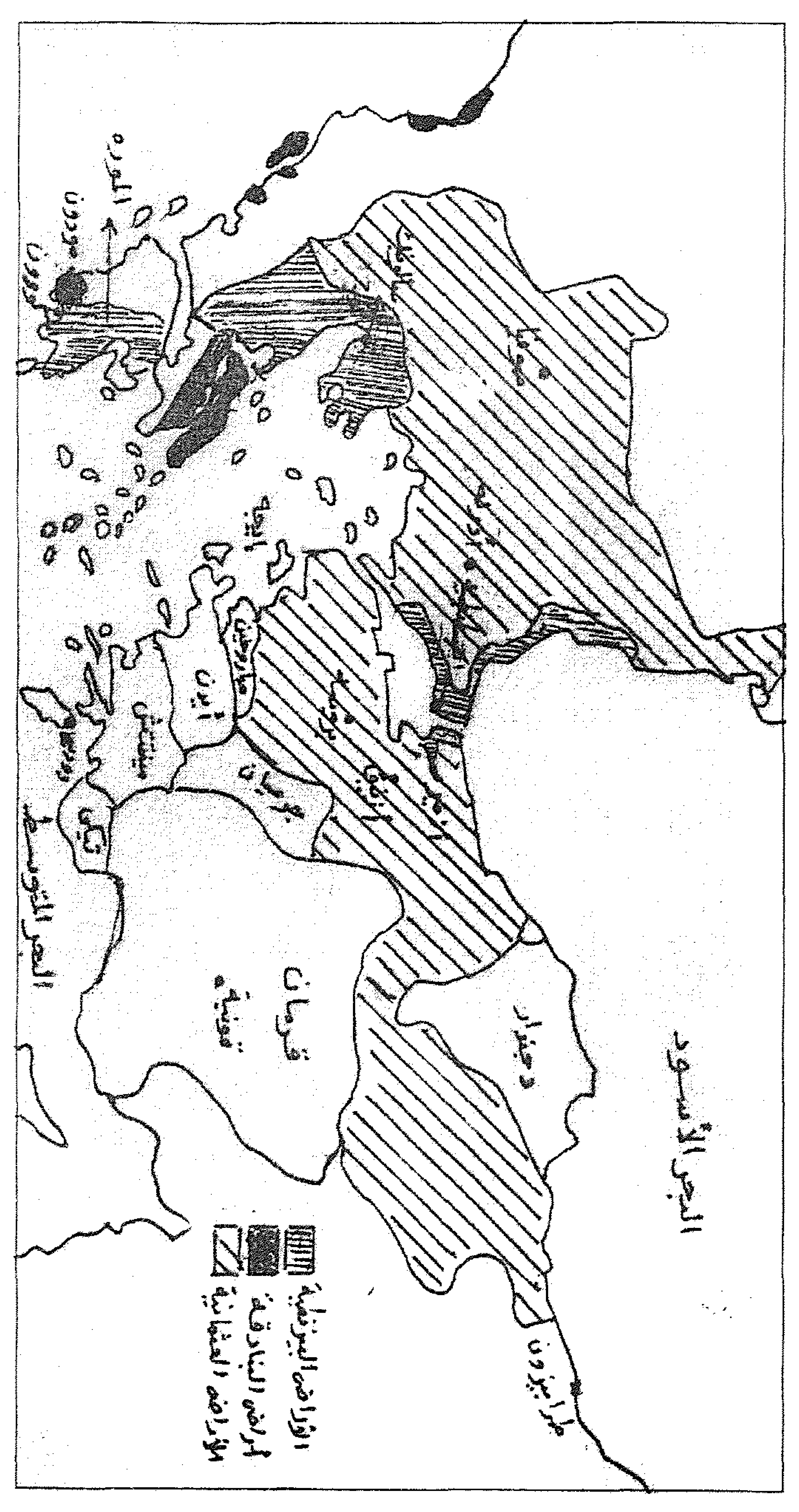
هكذا استطاعت الدولة العثمانية بالفعل إنعاش المدن الواقعة تحت حكمها ، بعد أن كانت معظم هذه المدن تسير في انحدار ملحوظ . فمدن العراق والشام لم تسترجع قواها إطلاقاً كما يقول المقريزي بعد الغزو المغولي ، وفي شمال إفريقيا ، كان القرن الحفصي الأخير في تونس يشهد مأساة

كبيرة خاصة بعد الغزو الأسباني ، وفي باقي مدن المغرب بـــدا التفســـخ السياسي والإنحدار الشديد في الإقتصاد يمثل إغـــراءات كبيـــرة للقـــوى الصليبية لتعاود الهجوم واحتلال المراكز الهامة ، وفي مصر وعاصمتها القاهرة فقد أصابها التدهور الإقتصادي والإجتماعي علـــى أثـــر تحـــول التجارة العالمية إلي طريق رأس الرجاء الصالح كما شهدنا ، وينطبق ذلك على مدن الشام والحجاز التى تقع على نفـــس الطريـــق ، لـــذلك كانـــت السيطرة العثمانية بمثابة نجدة أكيدة ، تحولت على اثرها هذه المدن إلـــي مراكز حضارية مزدهرة ، لها عامل جذب واضح حتى لليهود والنصارى الذين تدفقوا من البلدان الأوروبية لينعموا بهذا الإزدهار .

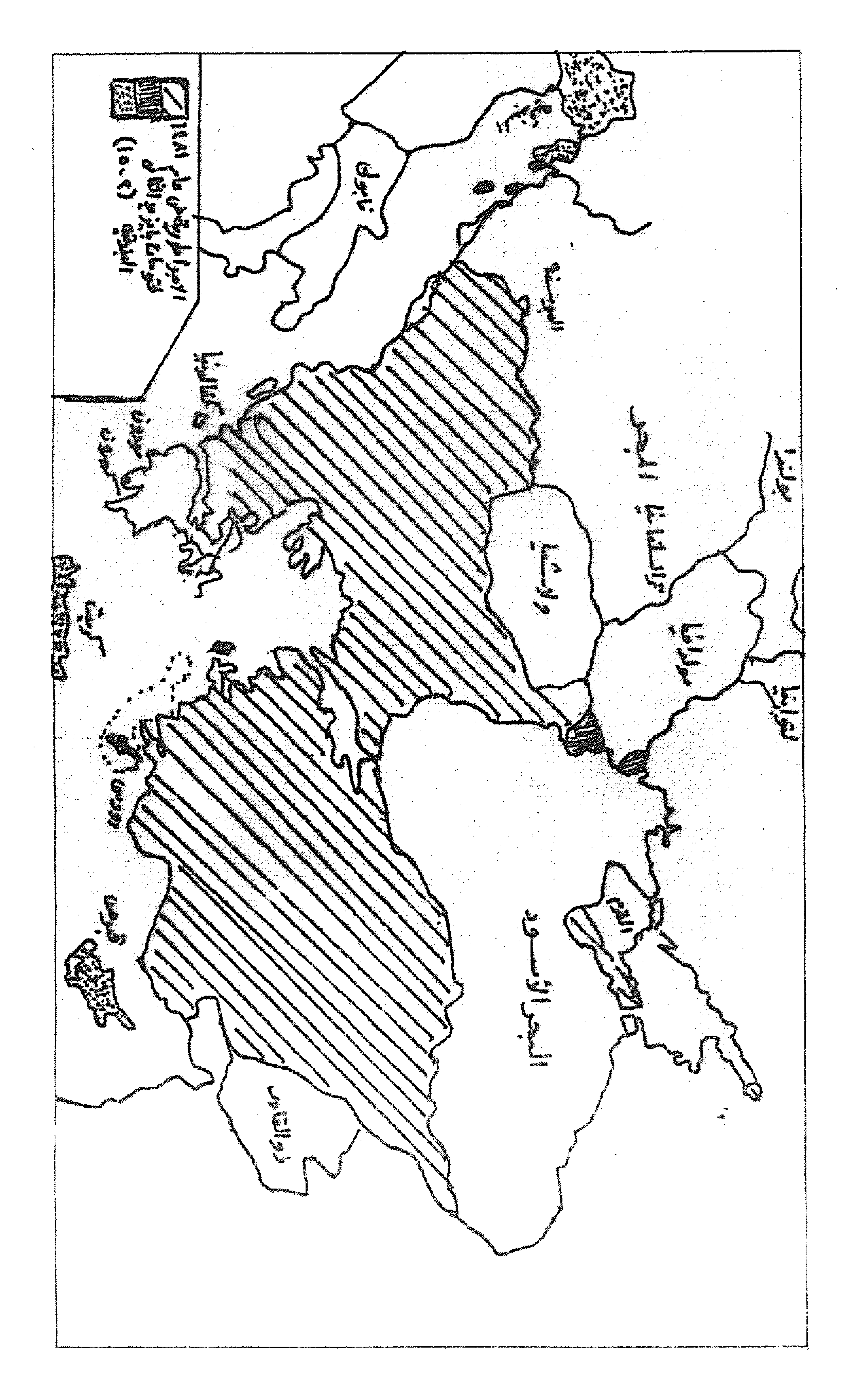
اللوحات والخرائط



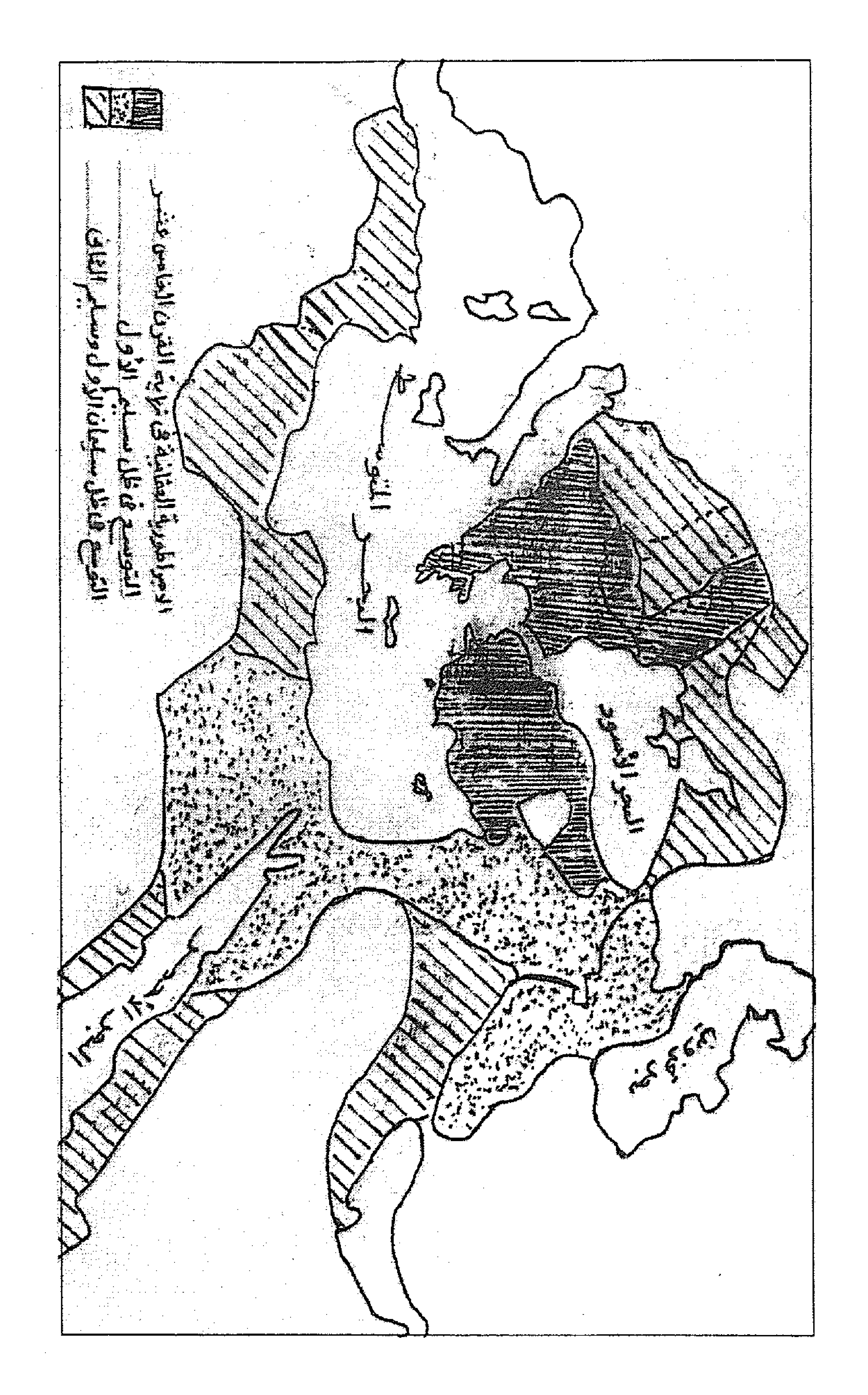
شكل (١) خريطة توضح مراحل التوسع العثماني منذ عام ١٣٠٠م حتى عام ١٣٦٢م .



شكل (٢) خريطة توضح الأراضي العثمانية بعد غزوة تيمورلنك ١٤٠٢م.



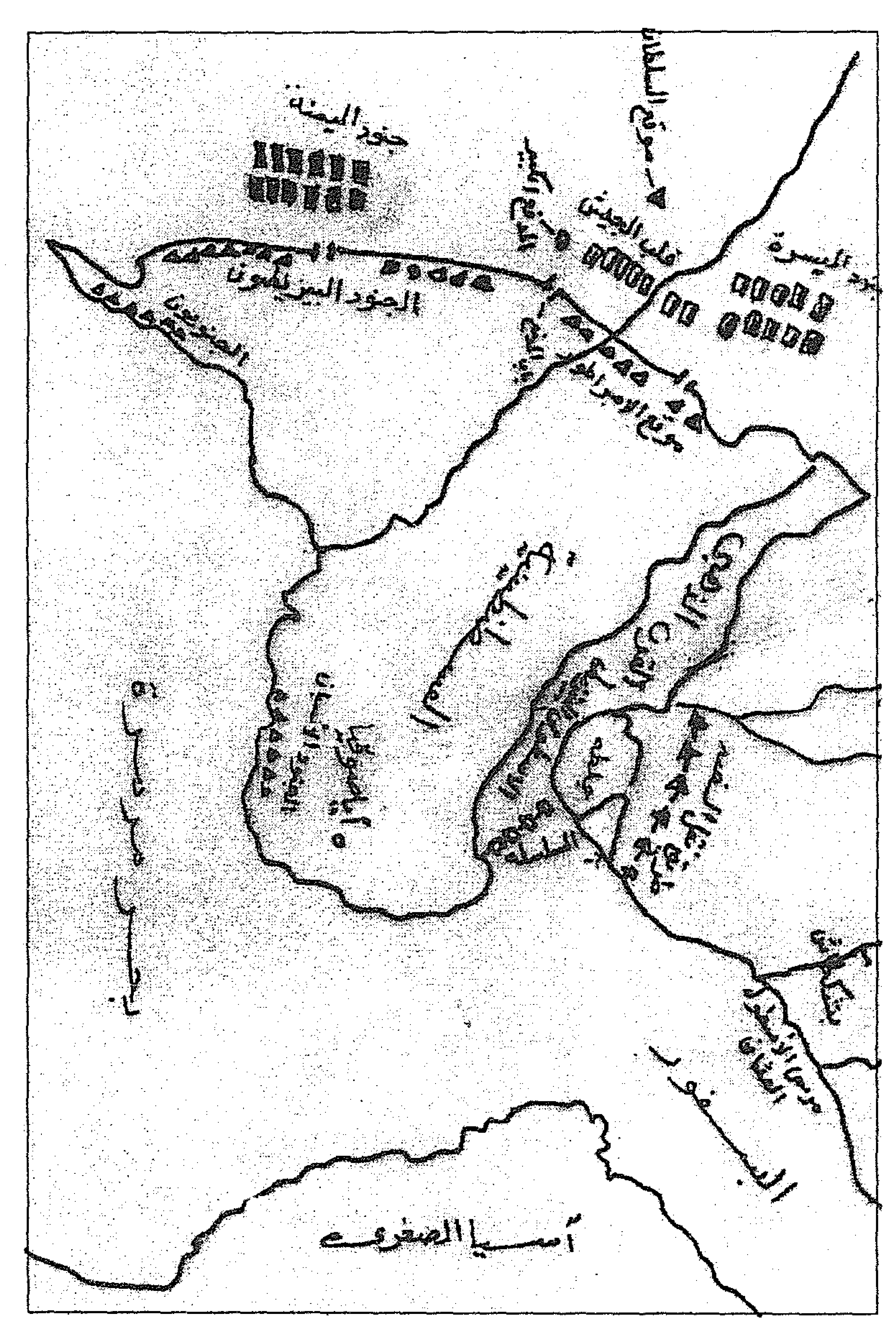
شكل (٣) خريطة توضح حدود الدولة العثمانية حتى عام ١٥١٢م .



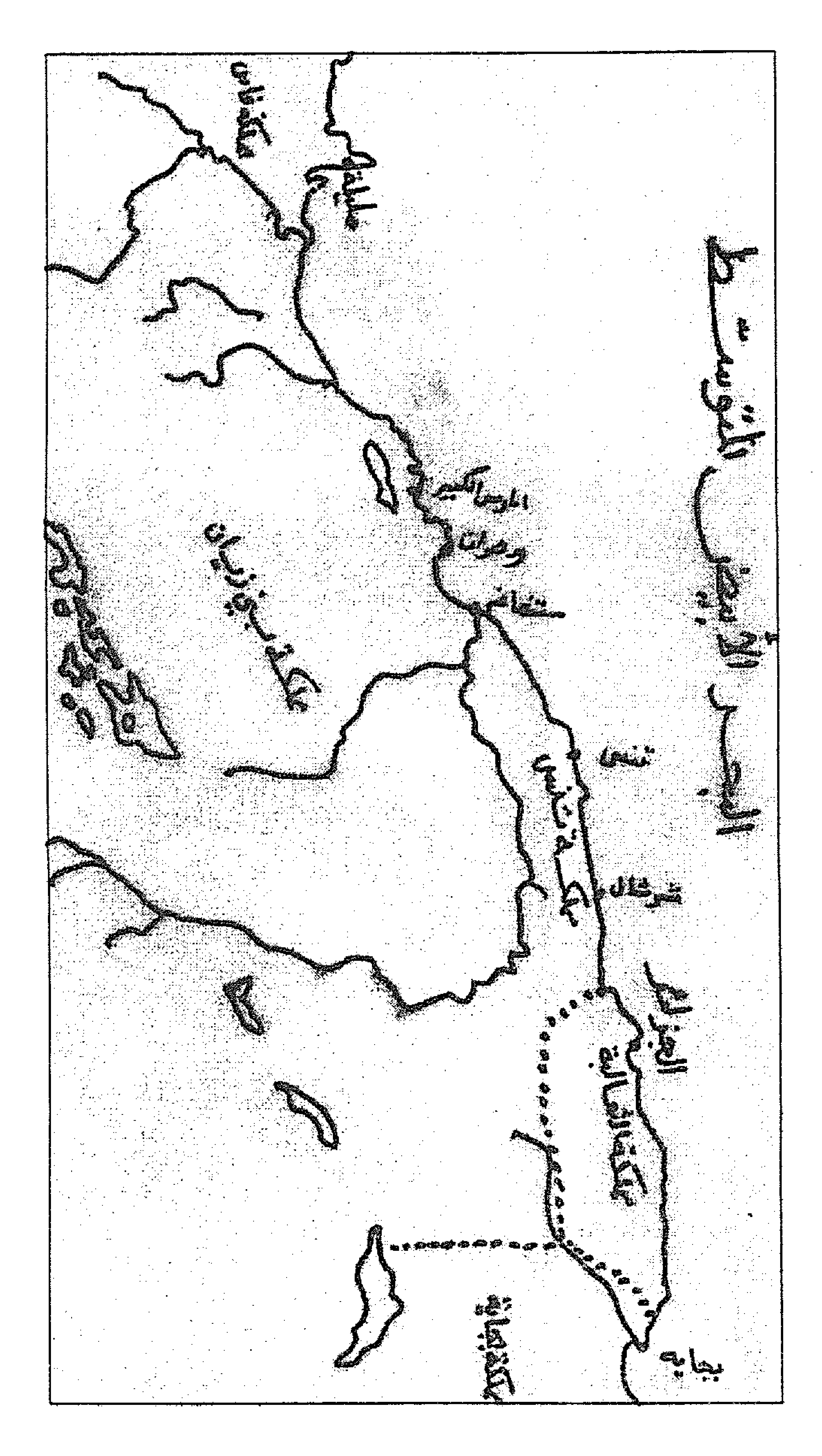
شكل (٤) خريطة توضح مراحل التوسع العثماني حتى عام ١٥٧٤م .



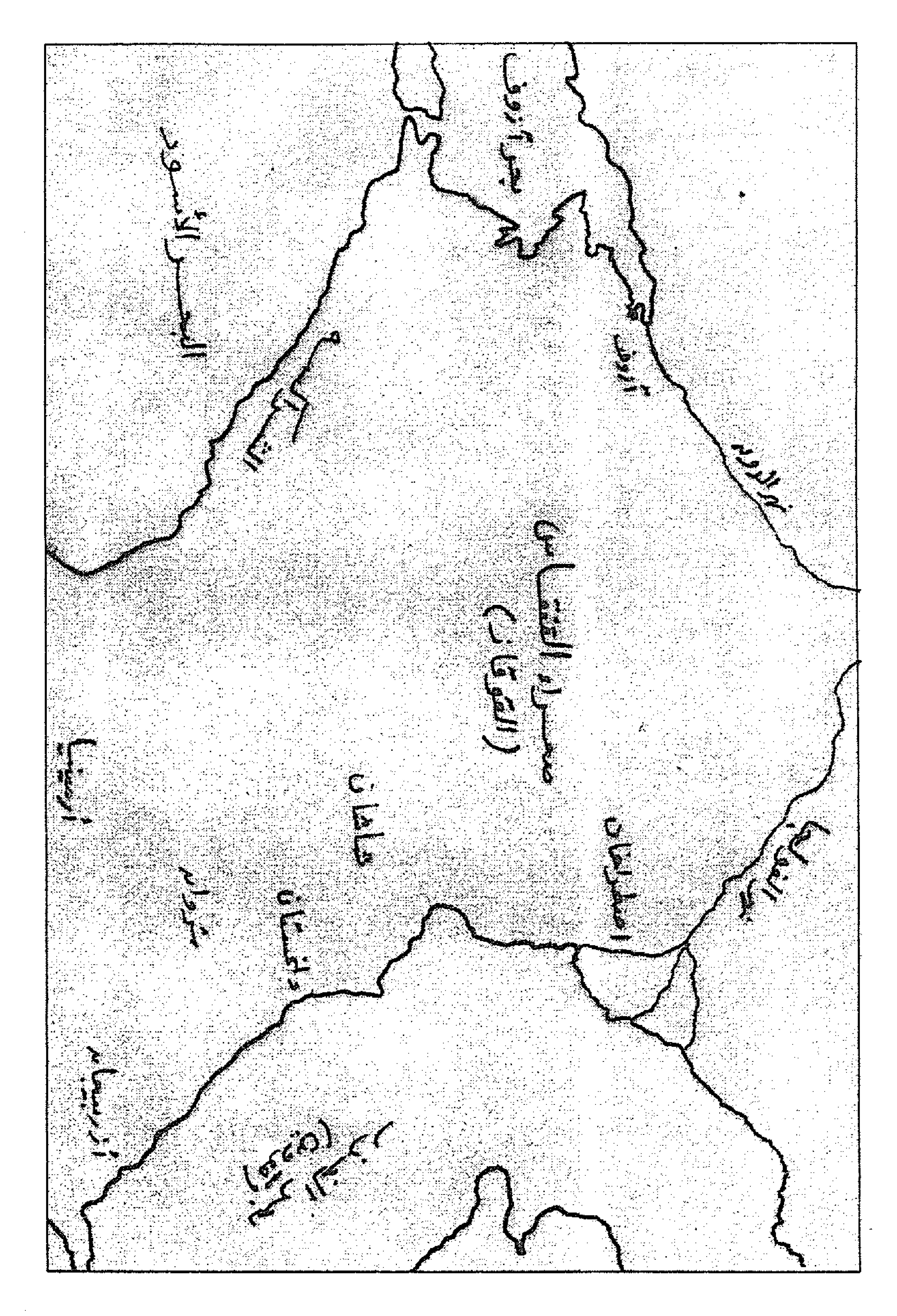
شكل (٥) خريطة توضح شرق أوروبا والبلقان في القرن السادس عشر .



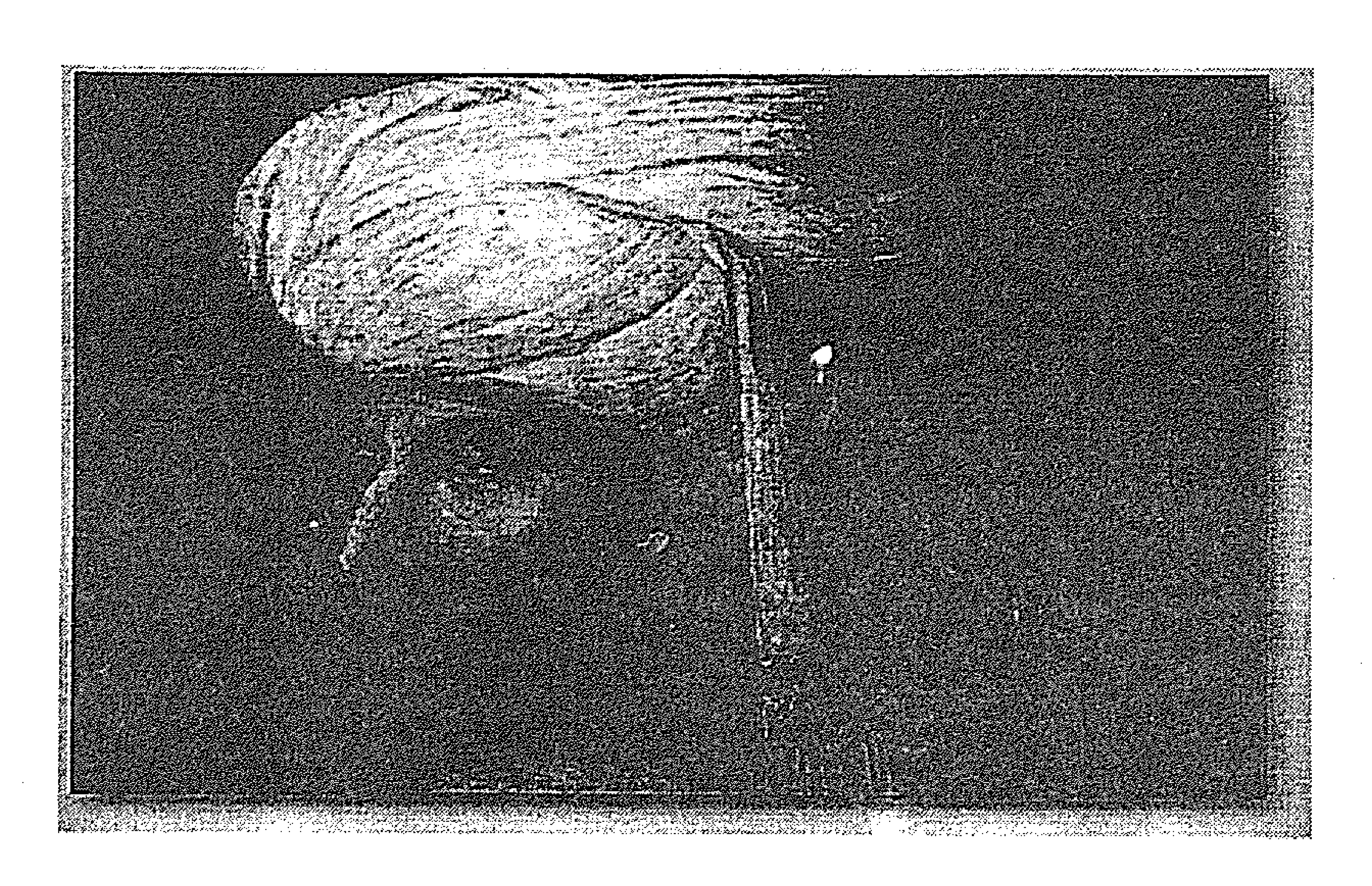
شكل (٦) خريطة توضح حصار وفتح القسطنطينية ١٤٥٣م .



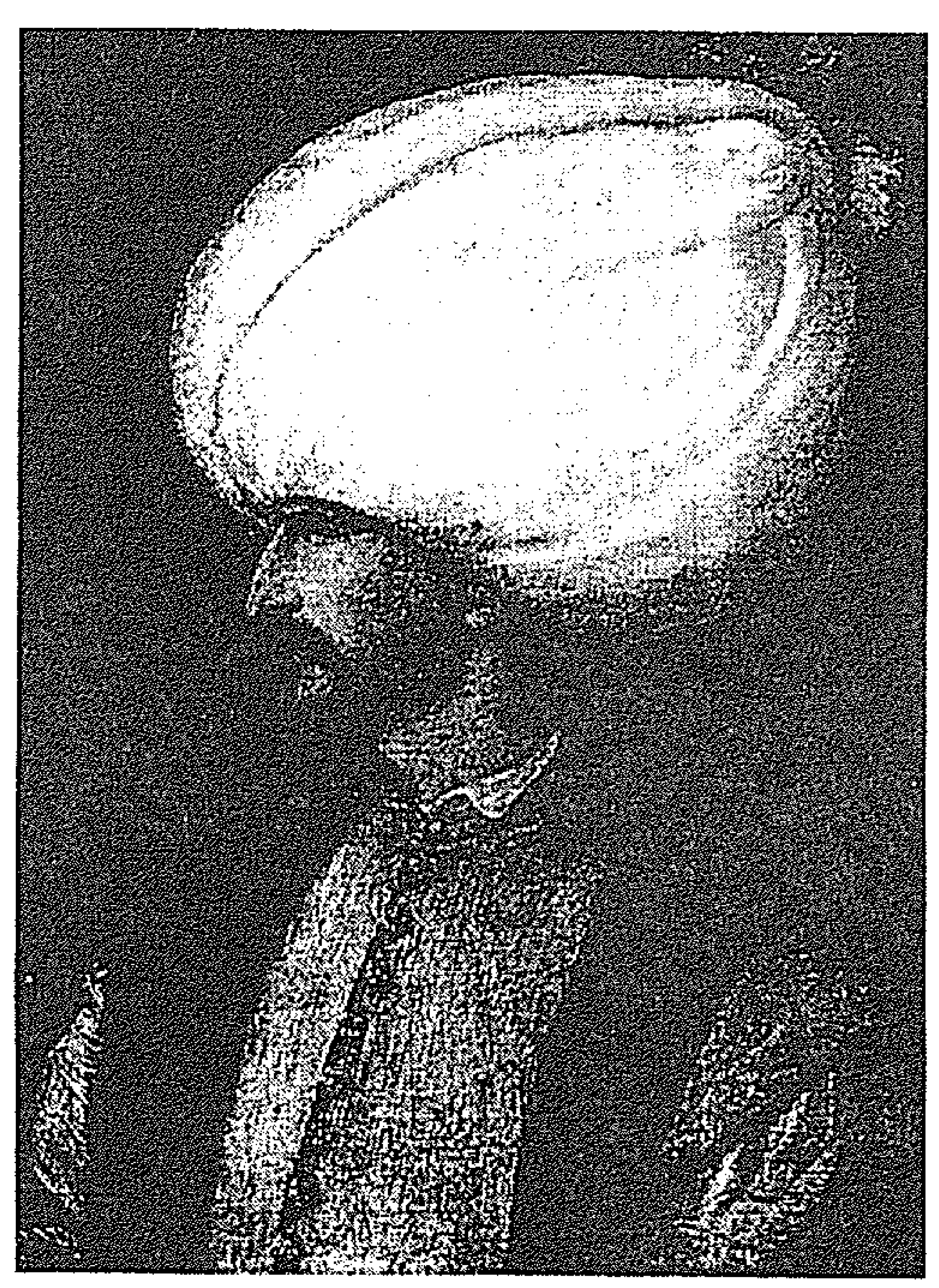
شكل (٧) خريطة توضح المغرب الأوسط قبل السيطرة العثمانية .



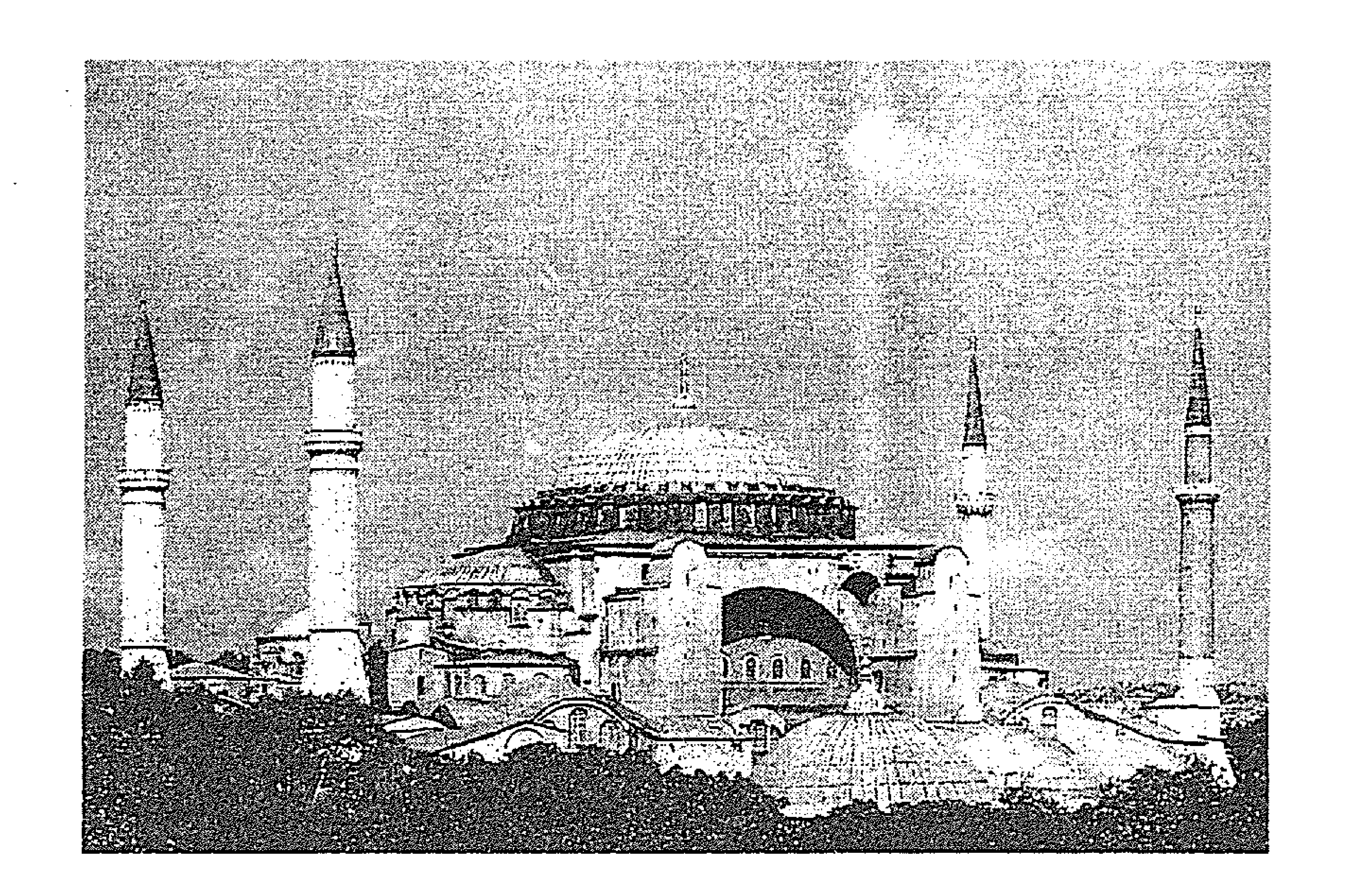
شكل (٨) خريطة توضح بلاد القوقاز في القرن السادس عشر .



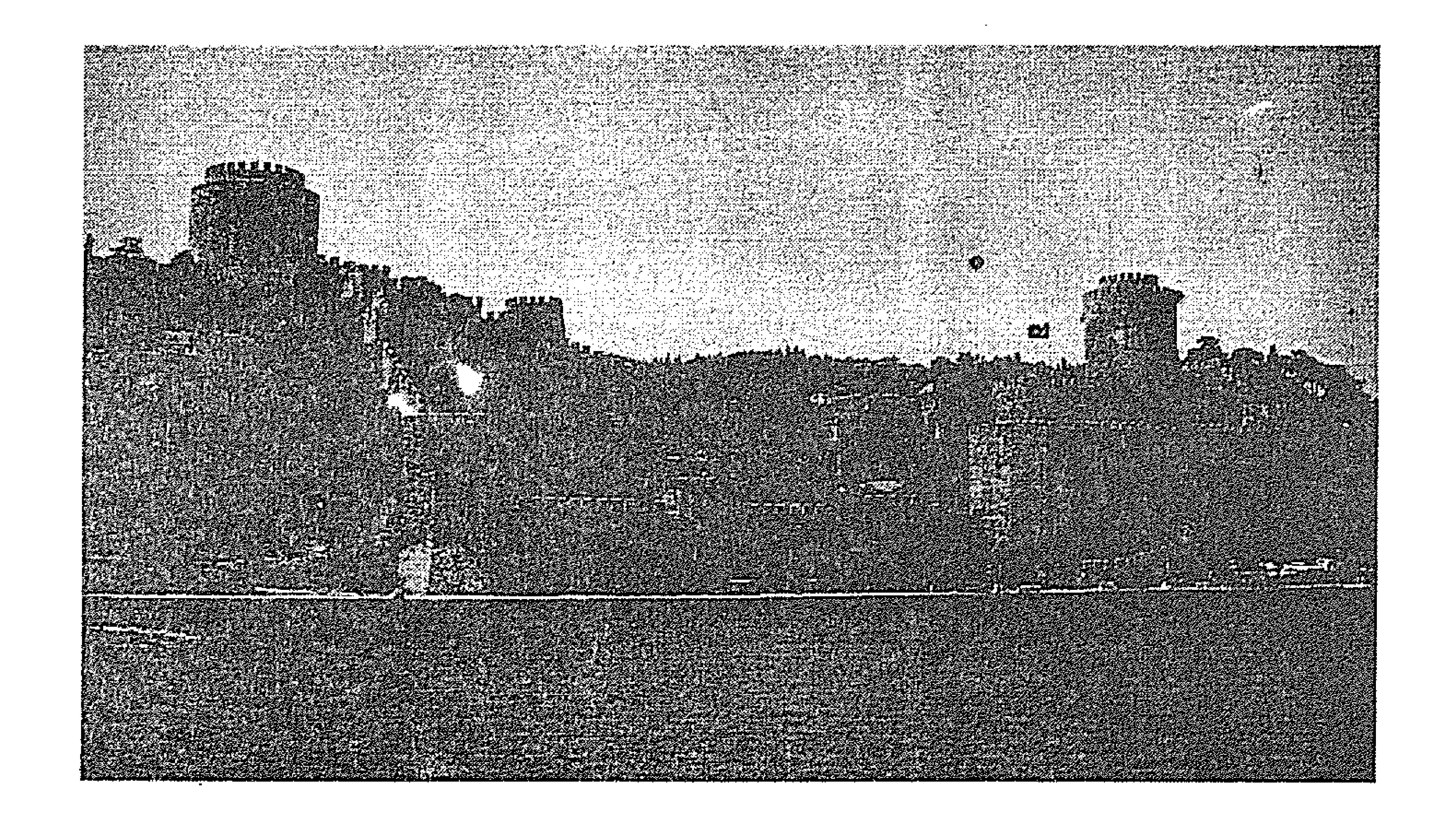
شكل (٨) السلطان محمد الفاتح .



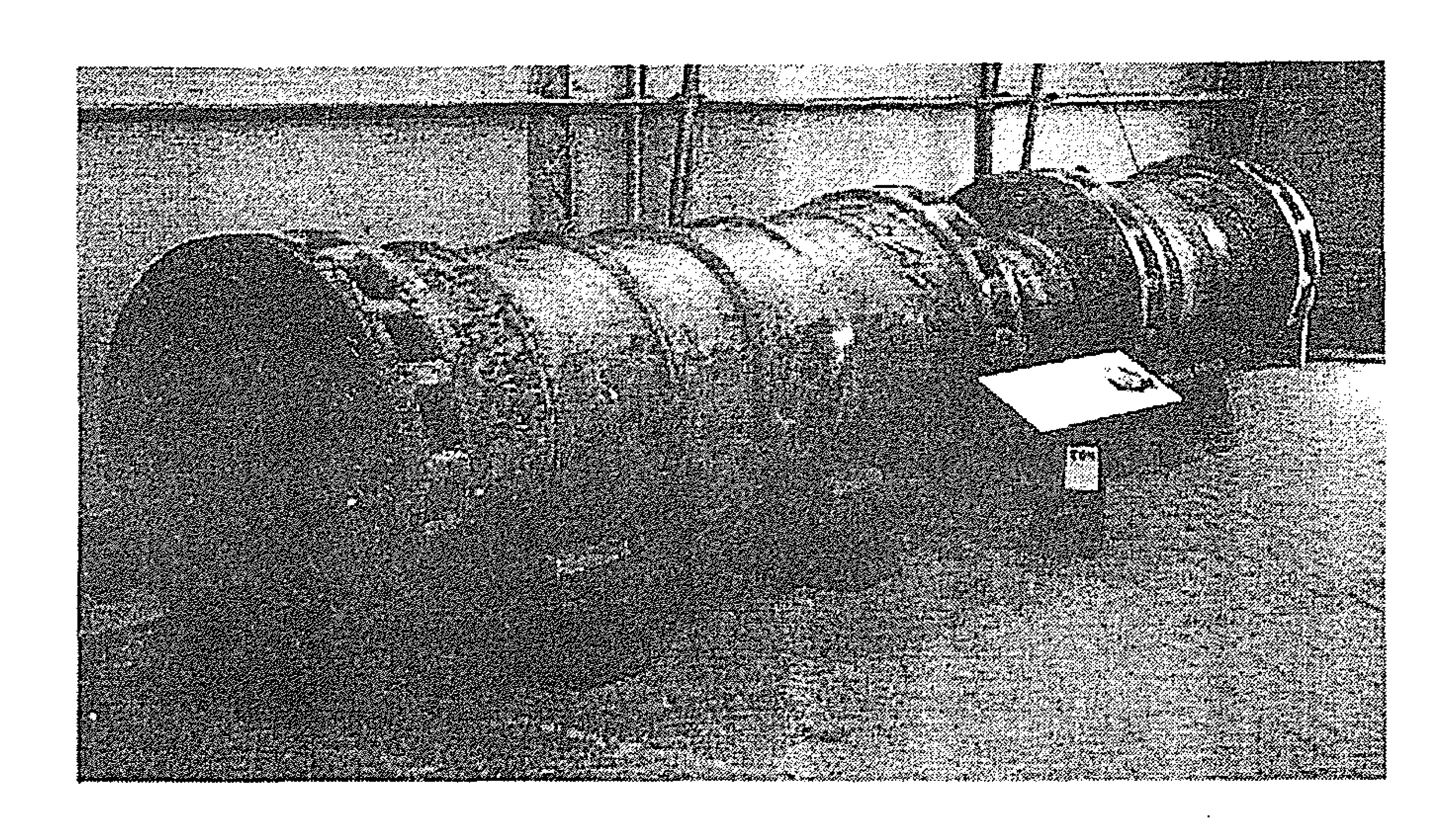
شكل (٩) السلطان سليمان القانوني .



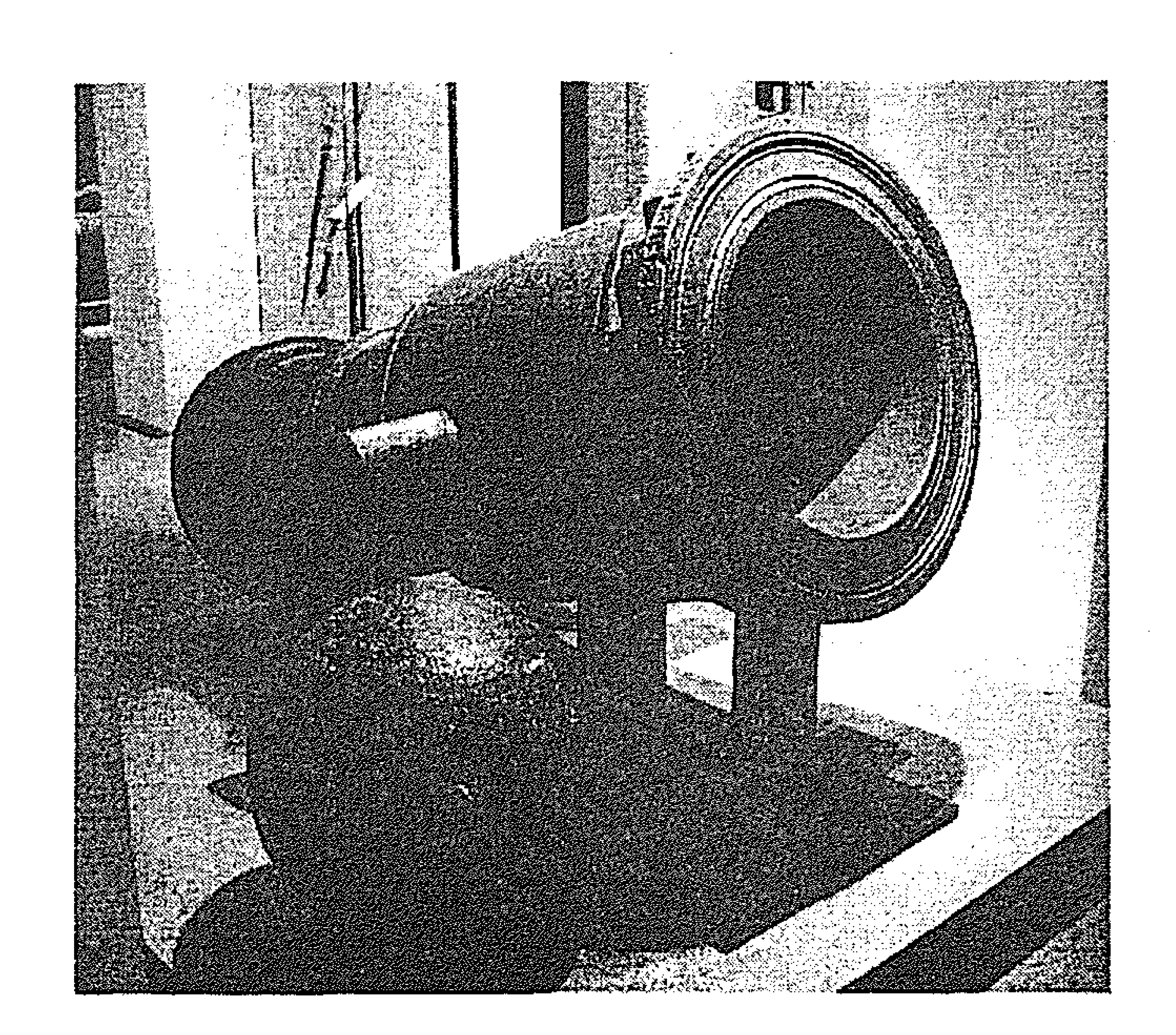
شكل (١٠) آيا صوفيا بالقسطنطينية .



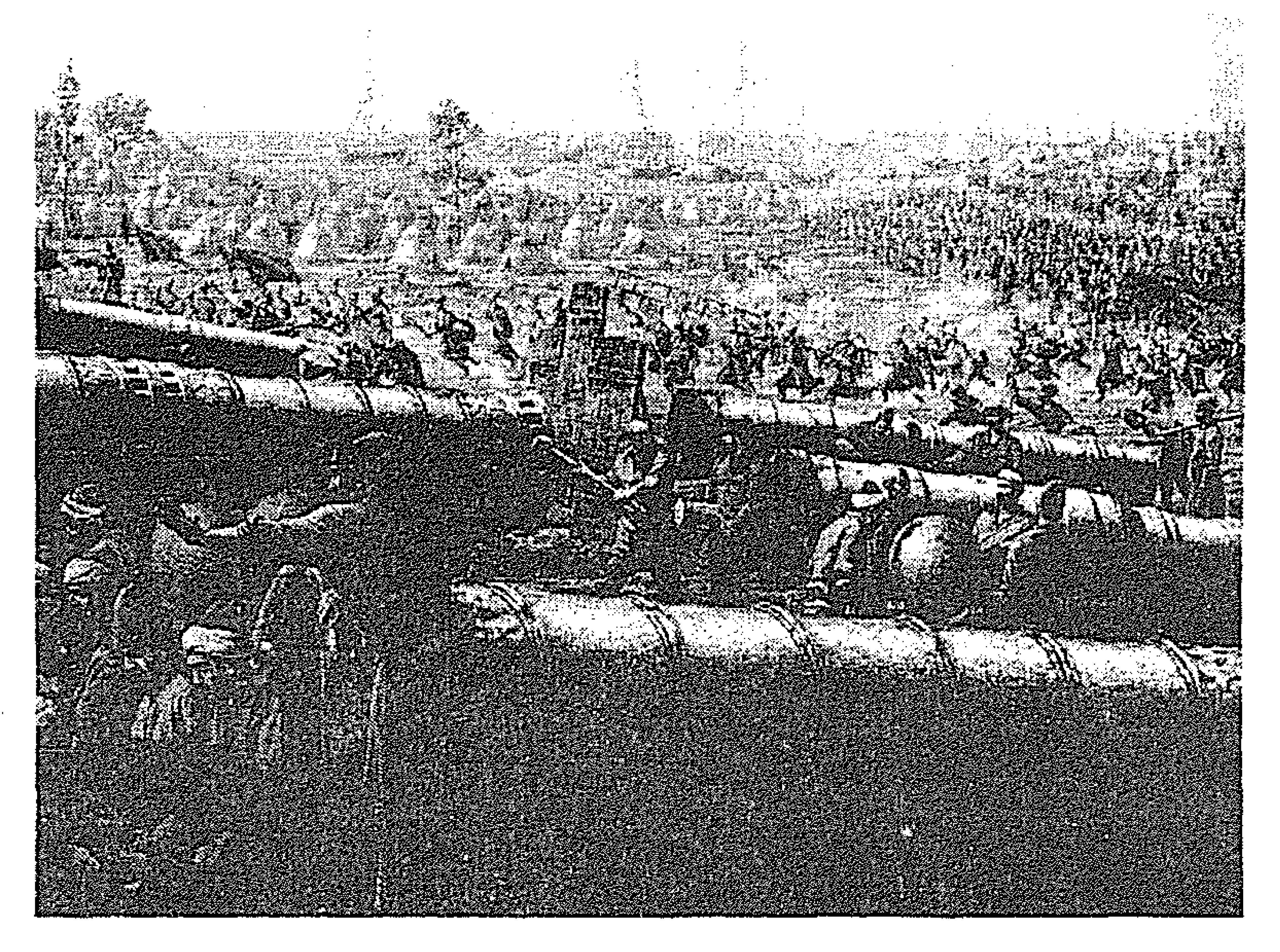
شكل (١١) قلعة (روملى حصار) على البسفور .



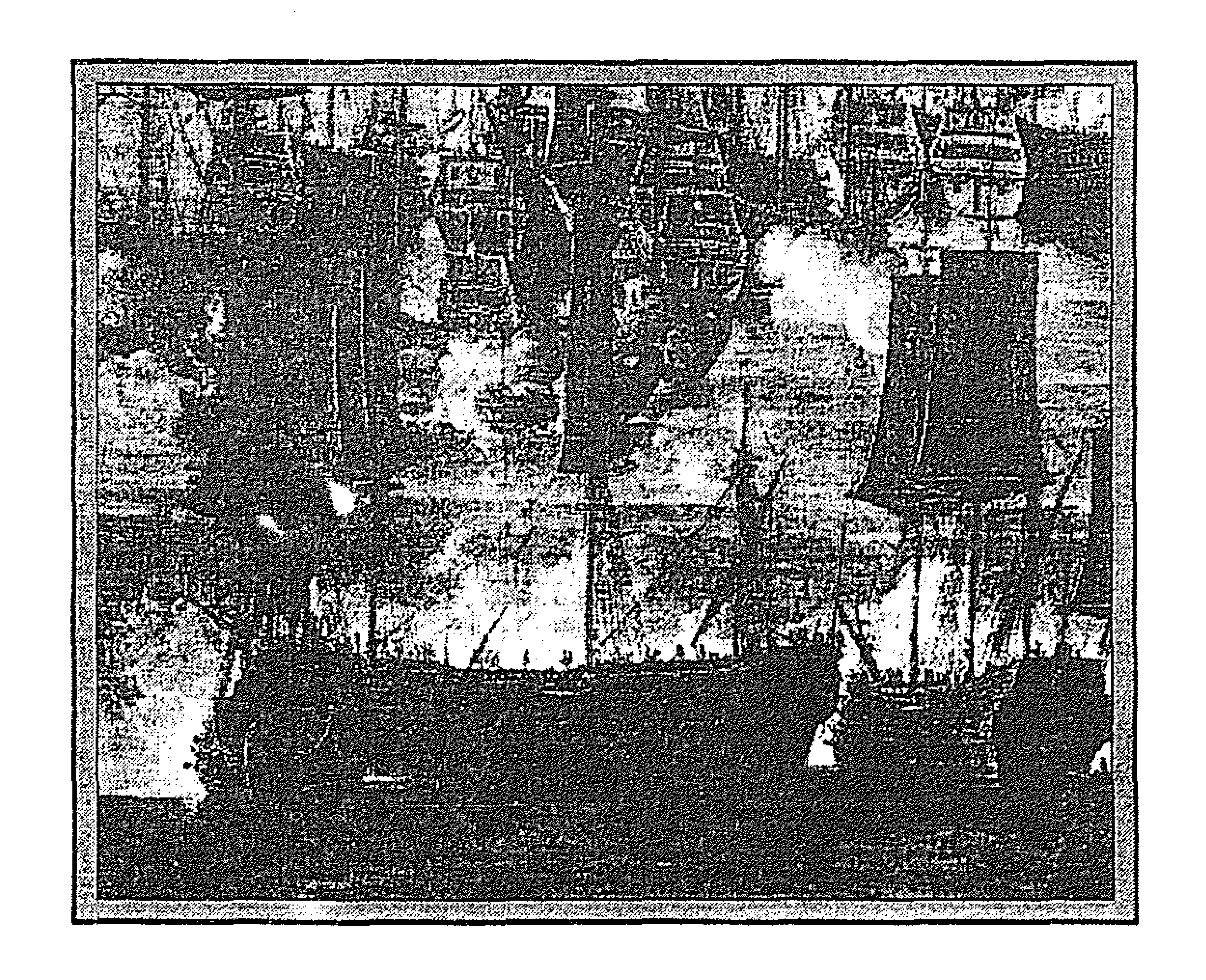
شكل (١٢) مدفع حصار استخدم في حصار القسطنطينية ١٤٥٣ .



شكل (١٣) مدفع هاون يرجع للقرن السادس عشر .



شكل (١٤) إستخدام المدافع العملاقة في حصار القسطنطينية .



شكل (١٥) السفن العثمانية في القرن السادس عشر .

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية :

١- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق محمود خليل ،عالم الكتب للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٩٨م .

٢- ابن العماد ، شذرات الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٨م .

٣- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٩٧م.

٤- المقريزي ، المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، مكتبة الثقافة الدينية ، الطبعة الثانية ١٩٨٥م .

٥- ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر .

٦- المقري ، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، تحقيق مصطفى السقا / وابراهيم الابياري / وعبد العظيم شلبي ، طبعة القاهرة عام ١٩٣٩م

٧- : أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ، الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى تحقيق وتعليق : جعفر الناصري و محمد الناصري ، دار الكتاب – الدار البيضاء عام١٩٥٥م.

٨- ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، طبعة مطبعة الشعب عام ١٩٦٠م .

٩- ابن زنبل الرمال ، آخرة المماليك ، تحقيق : عبد المنعم عامر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسة الألف كتاب الثانى عام ١٩٩٨م .

١٠- عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، الجزء الأول ، المطبعة العامرة الشريفة بمصر عام ١٣٢٢ ه .

١١- العباسي ، منح رب البرية في فتح رودس الأبية ، تحقيق : د. فيصل عبد الله الكندي ، حوليات كلية الآداب – جامعة الكويت ، الحولية الثامنة عشرة عام ١٩٩٨م .

١٢- ابن عربشاه ، عجائب المقدور في نوائب تيمور ، ترجمة وتحقيق : أحمد فايز الحمص ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، عام ١٩٨٦م .

١٣- ابن محمد اللخمى الاشبيلي ، الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان، تحقيق : د. هانست ارنست ، دار احياء الكتب العربية عام ١٩٦٢ .

١٤- البلاذي ، فتوح البلدان ، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى عام ٢٠٠٠م .

١٥- ابن كثير ، البداية والنهاية ، تحقيق : عبد الحميد هنداوى ، الكتبة العصرية ، الطبعة الأولى ٢٠٠١م .

١٦- ابن خلدون ، المقدمة لكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٦م .

١٧- اسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، المطبعة الاميرية ببولاق ، القاهرة عام ١٣٤١للهجرة .

ثانياً : المراجع العربية :

١- على الصلابي ، محمد الفاتح وعوامل النهوض في عصره ، مكتبة الايمان بالمنصورة .

٢- على الصلابي ، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، دار التوزيع والنشر الاسلامية ، الطبعة الأولى عام ٢٠٠١م .

٣- حسن الضيفة ، الدولة العثمانية الثقافة المجتمع السلطة ، دار المنتخب العربي – بيروت ، الطبعة الأولى عام ١٩٩٧م .

٤- أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني ، دار الشروق ، الطبعة الثانية عام ١٩٨٦م .

٥- اسماعيل أحمد ياغي ، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مكتبة العبيكان ، الطبعة الثانية عام ١٩٩٨م .

٦- محمد فريد بك المحامى ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، دار النفائس، الطبعة الأولى عام ١٩٨١م .

٧- محمد حرب ، العثمانيون في التاريخ والحضارة ، المركز المصري للدراسات العثمانية ١٩٩٤م .

٨- عبد الرازق الطنطاوى القرموطى ، العلاقات المصرية العثمانية ، الزهراء للعلام العربي ، الطبعة الأولى عام ١٩٩٥م .

٩- زبيدة عطا ، الترك في العصور الوسطى ، دار الفكر العربي .

١٠- محمود محمد الحويري ، تاريخ الدولة العثمانية في العصور الوسطى، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات ، الطبعة الأولى عام ٢٠٠٢م .

١١- سيد رضوان على ، السلطان محمد الفاتح (بطل الفتح السلامي في أوروبا الشرقية) ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى عام ١٩٨٢م .

١٢- وفيق بركات ، فن الحرب البحرية في التاريخ السلامي ، منشورات جامعة حلب (معهد التراث العلمي العربى) ، ١٩٩٥م .
١٣- سالم الرشيدي ، محمد الفاتح ، دار البشير للثقافة والعلوم – طنطا ، الطبعة الأولى عام ٢٠٠٠م .
١٤- سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوروبا في العصور الوسطى ، الجزء الثانى ، مكتبة النهضة المصرية ، عام ١٩٥٩م .
١٥- سعيد عبد الفتاح عاشور ، الأيوبيين والمماليك في مصر والشام ، دار النهضة العربية عام ١٩٩٦م .
١٦- نادية محمود مصطفى ومجموعة باحثين ، العصر المملوكى من تصفية الوجود الصليبي إلي بداية الهجمة الأوروبية الثانية ، المعهد العالمى للفكر الاسلامي (مشروع العلاقات الدولية في الإسلام رقم (١٠)) ، القاهرة الطبعة الأولى ١٩٩٦م .
١٧- عبد العظيم رمضان ، تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث ، الجزء الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧م .
١٨- حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٤م .
١٩- عادل سعيد بشتاوى ، الأندلسيون المواركة ، القاهرة ، الطبعة الأأولى عام ١٩٨٣م .
٢٠- محمد رزوق ، الأندلسيون وهجراتهم الي المغرب ، أفريقيا الشرق، عام ١٩٩٨م .
٢١- عبد العزيز محمود عبد الدايم ، بحث في كتاب (مصر وعالم البحر المتوسط) بعنوان ، (الصراع بين القوى المسيحية ودولة المماليك الجراكسة في مياه البحر المتوسط) ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٨٦م .

٢٢- عبد الجليل التميمي ، مقالة بعنوان : رسالة من مسلمي غرناطة الي السلطان سليمان القانونى سنة ١٥٤١م ، المجلة التاريخية المغربية، عدد ٣ / يناير عام ١٩٧٥م .

٢٣- عبد الجليل التميمى ، أول رسالة من اهالي مدينة الجزائر الى السلطان سليم الأول عام ١٥١٩م ، مقال بالمجلة التاريخية المغربية، تونس ، عدد ٦ ، يوليو ١٩٧٦م .

٢٤- عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية لدراسة العلاقات العثمانية - المغربية في القرن السادس عشر ، مقال بالمجلة التاريخية المغربية - تونس، العدد ٢٩ - ٣٠ يوليو ١٩٨٣م .

٢٥- عبد الجليل التميمى ، الخلفية الدينية للصراع الاسبانى العثمانى على الايالات المغربية فى القرن ١٦ ، مقال بالمجلة التاريخية المغربية- تونس ، العدد ١٠- ١١ ، يناير ١٩٧٨ م .

٢٦- محمد عبد اللطيف هريدي ، الحروب العثمانية الفارسية ، دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٨٧م .

٢٧- عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ المشرق العربي ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٨م .

٢٨- نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصر الوسيط ، القاهرة ١٩٧٣م .

٢٩- ابراهيم على طرخان ، البرتغاليون في غرب افريقيا ، مقالة بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد الخامس والعشرون - الجزء الأول ، مايو ١٩٦٣م .

٣٠- شوقى عطا الله الجمل ، المغرب الكبير في العصر الحديث ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى ١٩٧٧م .

٣١- محمد حميد السلمان ، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج ، مركز زياد للتراث والتاريخ عام ٢٠٠٠م .

٣٢- محمد حسن العيدروس ، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر ، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، الطبعة الثانية ١٩٩٨م .

٣٣- شوقي عبد القوى عثمان ، التجارة بين مصر وافريقيا في عصر المماليك ، المجلس الأعلى للثقافة ، عام ٢٠٠٠م .

٣٤- ابراهيم شحاتة حسن ، وقعة وادى المخازن في تاريخ المغرب ، قراءة تاريخية عبر علاقات المغرب الدولية في القرن السادس عشر الميلادي ، دار الثقافة – الدار البيضاء ، الطبعة الأولى عام ١٩٧٩م .

٣٥- ابراهيم شحاته حسن ، أطوار العلاقات المغربية العثمانية ، الاسكندرية ، ١٩٨١م .

٣٦- فاروق عثمان أباظة ، أثر تحول التجارة العالمية الي رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، دار المعارف ، الطبعة الثانية .

٣٧- فاروق عثمان أباظة ، الحكم العثماني في اليمن ، هيئة الكتاب ١٩٨٦م

٣٨- فاروق عثمان أباظة ، دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر ، دار المعرفة الجامعية – الاسكندرية ١٩٩٥م .

٣٩- عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادى ، تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس ، الاسكندرية ١٩٨٥ م.

٤٠- أحمد مختار العبادى ، دراسات في تاريخ المغـرب والأنـدلس ، الاسكندرية ، ١٩٨٥م .

٤١- حسن صبحى ، دراسات في تاريخ شمال افريقيا الحديث والمعاصر ، مؤسسة شباب الجامعة – الاسكندرية ١٩٧٥م .

٤٢- الهادى التميمي ، مفهوم الامبريالية من عصر الاستعمار العسكري الي العولمة ، دار محمد على الحامى ، تونس عام ٢٠٠٤م .

٤٣- عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية دولة اسلايمة مفترى عليها، ثلاثة أجزاء ، مكتبة الأنجلو المصـرية ، الطبعـة الثانيـة عـام ١٩٨٦م.

٤٤- بسام العسيلي ، خير الدين بربروس ، دار النفائس ، الطبعة الأولى عام ١٩٨٠م .

٤٥- زكريا سليمان بيومى ، قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين – التحالف الصليبي الماسونى الاستعماري وضرب الاتجاه الاسلامي ، عـالم المعرفة – جدة ، ١٩٩١م .

٤٦- أسامة حسن ، طومان باي آخر سلاطين المماليك ، دار الأمـل ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م .

٤٧- عمر محمد البارونى ، الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، مطبعة ماجي – طرابلس ١٩٥٣م .

٤٨- عايض بن حازم الروقي ، جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلي الحرمين الشريفين ، مقال بالمجلـة التاريخية المصرية، المجلد ٤٢ ، عام ٢٠٠٤ م .

٤٩- خلف الوزيناني ، الفتح العثماني لجزيرة رودس ، جامعة أم القرى – مكة المكرمة ، عام ١٩٩٧م .

٥٠- جلال يحيى ، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر ، المكتب الجامعى الحديث ، الإسكندرية .

٥١- جلال يحيى ، المغرب العربي والإستعمار ، المكتبة الثقافية ، رقم ١٦٤ ، الدار المصرية للتأليف والنشر ، نوفمبر ١٩٦٦م .

٥٢- ممدوح حسين / شاكر مصطفى ، الحروب الصليبية في الشمال الإفريقي وأثرها الحضاري ، دار عمار بالأردن ، الطبعة الأولى ١٩٩٨م .

٥٣- محمود شاكر ، التاريخ الإسلامي ، الجزء ٢١ ، التاريخ المعاصر : المسلمون في الإمبراطورية الروسية ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الثانية ١٩٩٤م .

٥٤- محمد البسليطي ، الصراع الدولى في البحر الأحمر : الدولة العثمانية والأئمة في تاريخ اليمن الحديث ، المنتدى الجامعي للنشر، صنعاء ، عام ٢٠٠٢م .

٥٥- فالح حنظل ، العرب والبرتغال في التاريخ ، منشورات المجمع الثقافي- أبو ظبي ، عام ١٩٩٧م .

٥٦- فالح حنظل ، معارك البحرية العثمانية ضد البحرية البرتغالية في الخليج العربي ، مجلة الوثيقة ، العدد السابع عشر عام ١٩٩٠م .

٥٧- محمد عبد اللطيف البحراوي ، فتح العثمانيين عدن ، دار التراث - القاهرة ١٩٧٩م .

٥٨- حسن صالح شهاب ، البحرية العثمانية ومهمة التصدي للمخطط البرتغالي في البحر الأحمر والخليج العربي ، بحث في ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية عام ١٩٨٨م ، بعنوان : الصلات التاريخية بين الخليج العربي والدولة العثمانية ، مركز الدراسات والوثائق - الإمارات .

٥٩- محمد محمود السروجى ، المقاومة العربية الإسلامية في الخليج العربي ، بحث ضمن بحوث ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية عام ١٩٨٨م، بعنوان : الصلات التاريخية بين الخليج العربي والدولة العثمانية .

٦٠- أحمد عتمان ، تاريخ قبرص ، القاهرة عام ١٩٩٧م .

٦١- يوسف الثقفي ، دراسات متميزة في العلاقات بين الشرق والغرب ، دار الثقافة ، الطبعة الثانية ١٤١١ هـ

٦٢- محمد سهيل طقوش ، تاريخ الدولة الصفوية في ايران ، دار النفائس ، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م .

٦٣- أحمد فؤاد متولي ، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها وحتى نهاية العصر الذهبي ، ايتراك للنشر والتوزيع ، عام ٢٠٠٥م .

٦٤- جمال حمدان ، الاستعمار والتحرير في العالم العربي ، المكتبة الثقافية رقم ١٢٣، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٥ ديسمبر عام ١٩٦٤م .

٦٥- محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام فى الأندلس ، ثمانية أجزاء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة عام ٢٠٠١م .

٦٦- محمد عبد الله عنان ، مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ، هيئة الكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٧ م .

ثالثا : المراجع والمصادر المترجمة :

١- أحمد آق كوندز ، الدولة العثمانية المجهولة ، وقف البحوث العثمانية عام ٢٠٠٨م

٢- بيتر شوجر ، أوروبا العثمانية ، ترجمة د. عاصم الدسوقي ، دار الثقافة الجديدة ، الطبعة الأولى عام ١٩٩٨م .

٣- كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة : نبيه أمين فارس و منير البعلبكي ، دار العلم للملايين - بيروت ، الطبعة الخامسة عام ١٩٦٨

٤- خليل اينالجيك ، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء الي الانحدار ، ترجمة د. محمد . م . الأرناؤوط ، دار المدار الاسلامي ، الطبعة الأولى عام ٢٠٠٢م

٥- يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، الجزء الأول ، ترجمة : عدنان محمد سليمان ، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل - استانبول ، الطبعة الأولى عام ١٩٨٨م .

٦- : برنارد لويس ، استانبول وحضارة الخلافة الاسلامية ، ترجمة : د. سيد رضوان على، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية عام ١٩٨٢م

٧- نيقولا باربارو ، الفتح الاسلامي للقسطنطينية (يوميات الحصار العثمانى ١٤٥٣م) ، دراسة وترجمة وتعليق د. حاتم عبد الرحمن الطحاوى ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية ، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م .

٨- ايرينا بيتروسيان ، الإنكشاريون في الإمبراطورية العثمانية ، مركز جمعية الماجد للثقافة والتراث - دبي ، السلسلة المشتركة للبحوث

والمصادر في تاريخ الجزيرة العربية وبلدان الخليج رقم ٣ ، عام ٢٠٠٦ م .

٩- مرثيدس غارسيا أرينال ، الموروسكيون الأندلسيون ، ترجمة : جمال عبد الرحمن ، المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومي للترجمة رقم ٤٥٨ ، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م .

١٠- جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ترجمة : عادل زعيتر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٠م .

١١- كولن ترنر ، التشيع والتحول في العصر الصفوى ، ترجمة : حسين علي عبد الستار ، منشورات الجمل – بغداد ، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م .

١٢- نصر الله فلسفي ، ايران وعلاقاتها الخارجية في العصر الصفوي ، ترجمة : محمد فتحي يوسف الريس ، دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٨٩م .

١٣- فيج . جي . دى ، تاريخ غرب افريقيا ، ترجمة : د. السيد يوسف نصر ، دار المعارف ، الطبعة الأولى ١٩٨٣م .

١٤- فريدريك وليام بل ، الصراع البحري والقرصنة العالمية ، ترجمة : فؤاد السيد ، الجزء الأول ، مطبوعات جامعة القاهرة عام ١٩٧٧م.

١٥- عزيز سامح ألتر ، الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية ، ترجمة : د. محمود علي عامر ، دار النهضة العربية – بيروت ، الطبعة الأولى عام ١٩٨٦م .

١٦- شارل أندري جوليان ، تاريخ افريقيا الشمالية ، تعريب : محمد غزالي البشير بن سلامة ، الدار التونسية للنشر عام ١٩٨٥م .

١٧- جوناثان سميث ، الإسبتارية : فرسان القديس يوحنـا فـي بيـت المقدس وقبرص ١٠٥٠ - ١٣١٠م ، ترجمة : صبحي الجـابي ، دمشق ١٩٨٩م .

١٨- أندريه كلو ، سليمان القانوني ، تعريب : البشير سلامة ، دار الجيل - بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩١م .

١٩- أكمل الدين إحسان أوغلى وآخـرون ، الدولـة العثمانيـة تـاريخ وحضارة، ترجمة : صـالح سـعداوي ، الجـزء الأول ، مركـز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسـلامية - اسـتانبول ، عـام ١٩٩٩م .

٢٠- بيترو أديوري ، قبرص والحروب الصليبية ، دار الملتقى للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٩٧م .

٢١- أندريه ريمون ، المدن العربية الكبرى فـي العصـر العثمـاني ، ترجمة : لطيف فرج ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، عام ١٩٩١م .

٢٢- اليكس جورافسكي ، الاسلام والمسيحية ، ترجمة : خلـف محمـد الجراد ، سلسلة عالم المعرفة رقم ٢١٥ ، المجلس الوطني للثقافـة والفنون والآداب - الكويت ، نوفمبر عام ١٩٩٦م .

٢٣- روبير مانتران ، تاريخ الدولة العثمانية ، ثلاثة أجزاء ، ترجمـة : بشير السباعي ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيـع ، الطبعـة الأولى عام ١٩٩٣م .

٢٤- محمد فؤاد كوبرلي ، قيام الدولة العثمانية ، ترجمـة : د. محمـد السعيد سليمان ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر عام ١٩٦٧م .

رابعا : المراجع والمصادر الأجنبية :

1- Halil Inaleik, The Ottoman Empire, Organization and economy (collected studies), Variorum reprints, London 1985.

2- H. A. Gibbons, Foundation of the Ottoman Empire, History of The Osmanlis, 1300 – 1403, Oxford.

3- Nicol Donald, The last Centuries of Byzantium 1261-1453, Cambridge university press, Reprinted 2002

4- John E. N. Hearsey, City of Constantine, London, Murray 1963.

5- George Ostrogorsky, History of The Byzantine State, Translated from the German by Toan Hussey, Aeutgers University press 1997.

6- S. J. Shaw, History of The Ottoman Empire and modern Turkey, Cambridge 1976.

7- Thomas w. Arnold, The Caliphate, London 1965.

8- Doukas, Decline and fall of Byzantine to Ottoman, Translated by Hary J. Magoulias.

9- Cook,M.A,A History of the Ottoman empire to 1730, Cambridge university press.

10- Diego Telles Alarcia, Elpapel de norte de Africa en la politica exterior hispana (XV – XVI) Tiempos Modernos, 2000, P.10;13

11- Wolf .John, The Barbary coast : Algeria under the turks,W.W.Norton,1979.

12- Coupland.R, East Africa and Its Invaders,Oxford, London 1938.

13- A.Alderson, The Structure of the Ottoman Dynasty, West-Port, Conuecticut,1982.

14- Brockleman, History of Islamic Peoples, London, 1959.

15- Stephen Turnbull,The Ottoman empire 1326-1699,Routledge Taylor and Francis grop,NewYork and London.

الفهـــــرس

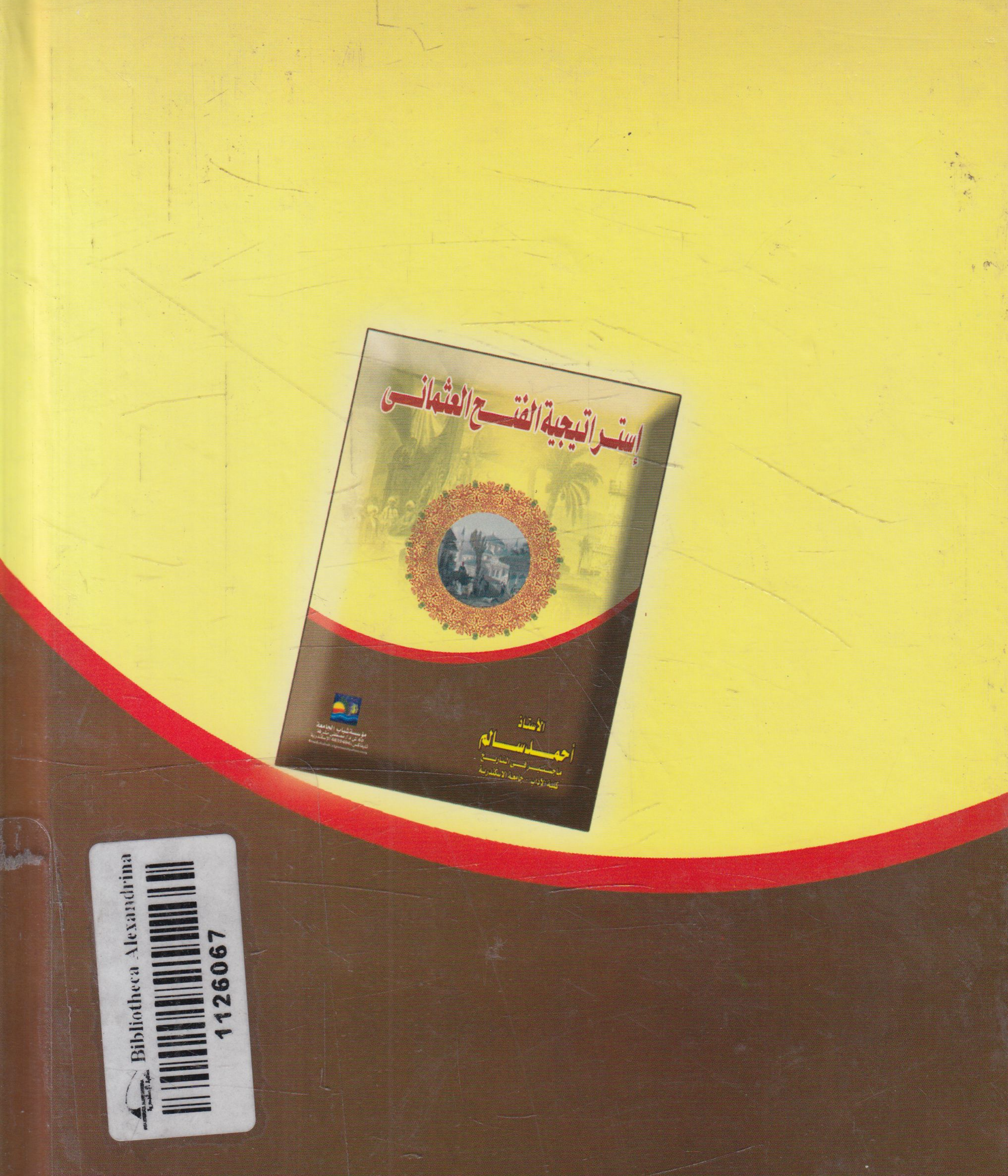
الموضــــوع	رقم الصفحة
- المقدمة	٧
الفصل الأول (المرحلة الأولى – إقامة الدولة وصراع البقاء)	١٧
- تمهيد	١٩
- عثمان الأول..	٢٦
- أورخان الأول..	٢٨
- مراد الأول..	٣٣
- بايزيد الأول	٣٨
- محمد الأول	٤٤
- مراد الثاني	٤٧
- هوامش الفصل الأول	٥٦
الفصل الثاني (المرحلة الثانية – نحو دولة إسلامية عالمية ١)	٦٣
- تمهيد	٦٥
- محمد الثاني (الفاتح)	٦٨
- فتح القسطنطينية	٧٤
- استراتيجية التوسع بعد فتح القسطنطينية	٩١
- هوامش الفصل الثاني	١٠١
الفصل الثالث (المرحلة الثالثة – نحو دولة إسلامية عالمية ٢)	١١٣
- تمهيد	١١٥
- بايزيد الثاني	١١٨
- سقوط غرناطة وبداية التوجه العثماني إلي غرب المتوسط	١٢٣

الموضـــــوع	رقم الصفحة
- جذور الصراع العثماني الصفوي	١٣٠
- سليم الأول	١٣٨
- التوجه العثماني شطر المشرق العربي وأسبابه	١٣٩
- **أولا** : الخطر البرتغالي	١٣٩
- **ثانياً** : الخطر الإسباني	١٥٠
- **ثالثاً** : الخطر الصفوي	١٦٠
- فتح مصر والقضاء على المماليك	١٦٧
- هوامش الفصل الثالث	١٧٤
الفصل الرابع **(المرحلة الرابعة – ذروة التوسع الإمبراطوري)**	١٨٩
- تمهيد	١٩١
- سليمان الأول (القانوني)	١٩٣
- التوسعات العثمانية في الجبهة الأوروبية	١٩٤
- فتح رودس	١٩٦
- موقعة موهاج وفتح المجر	٢٠٠
- حصار فيينا ١٥٢٩م	٢٠٤
- معركة بريفينزا (بروزة) البحرية	٢٠٩
- من حملة المجر ١٥٤١م إلي حملة المجر ١٥٦٦م	٢١١
- الفتوحات العثمانية في شمال إفريقيا	٢١٥
- الفتح العثماني الأول لتونس	٢٢٠
- معركة الجزائر الكبرى ١٥٤١م	٢٢٣
- فتح طرابلس الغرب	٢٢٦

الموضـــــــوع	رقم الصفحة
- حصار مالطة	٢٣٤
- التحركات العثمانية على الجبهة الشرقية	٢٣٧
- النفوذ العثماني في البحار الشرقية	٢٤٣
- سليم الثاني	٢٥٢
- إقرار الحكم العثماني في اليمن	٢٥٤
- التدخل العثماني في القوقاز وروسيا	٢٥٦
- فتح قبرص	٢٥٩
- الثورة المورسكية ومعركة ليبانتو البحرية	٢٦٢
- إعادة فتح تونس	٢٧٠
- هوامش الفصل الرابع	٢٧٤
- التعقيب	٢٩٣
- اللوحات والخرائط	٢٩٧
- المصادر والمراجع	٣١١
- الفهرس	٣٢٧

تم بحمد الله

رقم الإيداع	: ٢٠١١/١٣٨٨٠
الترقيم الدولي	I.S.B.N :
	977-212-202-2


إستراتيجية الفتح العثمانى
الأستاذ
أحمد سالم
ماجستير فى التاريخ
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية
مؤسسة شباب الجامعة